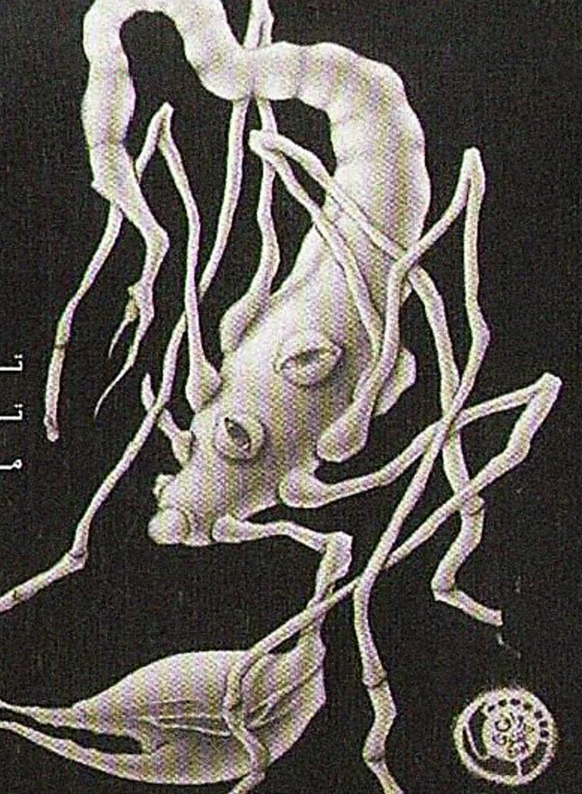


تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

العقرب وقصص أخرى

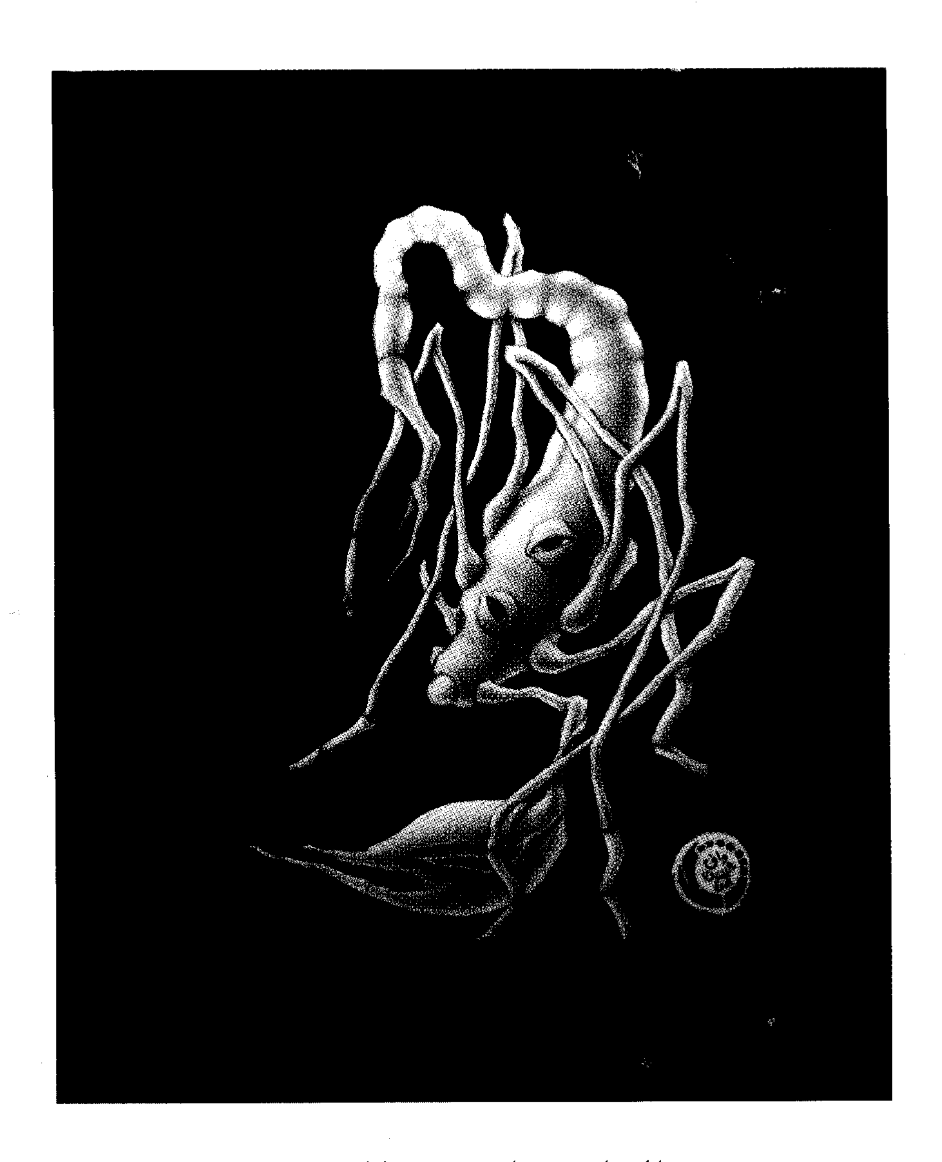
(الجزء الثاني)

تأليف: بول بولز
ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام
مراجعة: د. سليمان خالد الرباح



فبراير 2009

hamza mizou



الفنان: نواف فهد المعتوق

العقرب

رصاص وأكريليك على ورق

٤٥×٣٧ سم



العقرب
وقصص أخرى
(الجزء الثاني)

تـــألـــيـــف: بول بولز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مـــراجـــعـــة: د. سليمان خالد الرياح

العدد 376 فبراير 2009 | 1 |



المشرف العام

هيئة التحرير

مديرة التحرير

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E.Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة – الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٠٣
ردمك: ٦-٢٦١-٠-٩٩٩٠٦

• العقرب وقصص أخرى
(الجزء الثاني)

العنوان الأصلي:

The Scorpion
by: Paul Bowles
Penguin Books 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009م

إبداعات عالمية - العدد 376

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

مقدمة المراجع

بول بولز كاتب متميز، غزير الإنتاج، وما هذه المجموعة - والجزء الأول منها الصادر في العدد الماضي من هذه السلسلة - سوى النزر اليسير من إنتاجه القصصي.

يكتب بولز بلغة إنجليزية بسيطة وواضحة وخالية من التعقيد، الأمر الذي يسهل من عملية الترجمة ومن مهمة المترجم. كما يكثر من المفردات والتعابير العامية المستخدمة في المواقف غير الرسمية في الحياة اليومية. وهذا بالطبع يناسب أسلوب الحوار الذي يكثر منه إذا أراد أن يعبر عن موقف معين أو صراع بين أشخاص، بدلا من اللجوء إلى أسلوب السرد. ومما لا شك فيه أن أسلوب السرد أسهل على الكاتب من أسلوب الحوار، ولكن الكاتب المتمكن من أدواته هو الذي يستخدم أسلوب الحوار لأنه يثري العنصر الدرامي ويعطي حيوية للنص. وإن كان يبدو أن بولز يلجأ إلى الرمز في أحيان قليلة، كما هي الحال في قصة «الضبع».

كما تتسم كتابات بولز باستخدام كثير من الألفاظ والتعابير العربية والإسبانية والفرنسية في قصصه، وبعضها باللهجات الدارجة، حيث إن أحداثها تقع في بلاد ومناطق مختلفة في المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية، (باستثناء قصة «في الغرفة

الحمراء» التي تدور أحداثها في سريلانكا). وهذا يدل على كثرة أسفاره واحتكاكه بثقافات متعددة تنعكس في قصصه. وكمثال على ذلك نجد أن أحداث إحدى قصصه «العين» تقع في مدينة طنجة المغربية. ويبدو أن اختياره لهذه المدينة ليس عشوائيا، بل له دلالته ومغزاه، فهي تطل على مضيق جبل طارق، وهي بذلك تمثل حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وتشتمل القصة على حوار بين ثقافة غربية يمثلها «دنكان مارش» (الكندي الجنسية) وثقافة عربية يمثلها «العربي». ومن الأمثلة الأخرى على هذا الحوار قصة «زمن الصداقة»، إذ تمثل الثقافة الغربية فيها «الآنسة ويندلينج»، بينما يمثل الثقافة العربية «سليمان» و«بوفيلجا».

أبطال قصص بولز شخصيات بسيطة ومن واقع الحياة، وبعضها يحمل أسماء عربية مثل «علال»، وهناك قصة تحمل اسما عربيا وهو «مجذوب»، وهي بالطبع تعبر عن ثقافة عربية، مثل القصتين السابقة الإشارة إليهما. أما الشخصيات الأخرى غير العربية مثل «رامون» في قصة «اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز» فهي تعبر عن قيم وأفكار وتقاليد غربية، وإذا التقت بشخصيات أجنبية بالنسبة إليها فمن الطبيعي أن يحدث احتكاك بين ثقافتين وحضارتين وقيم وتقاليد متباينة.

تتناول قصص بولز تفاصيل الحياة اليومية في المدينة

أو المنطقة أو البيئة التي تقع فيها الأحـداث، مـع وصف دقيق وشامل لها وذكر أسماء الأماكن وما يميزها من معالم جغرافية.

وبعد... عزيزي القارئ... أرجو أن تقضي وقتا ممتعا في قراءة قصص بول بولز، وفي صحبة شخصياته التي تنبض بالحياة، وفي وصفه للأماكن بمعالمها المختلفة، ذلك الوصف الذي يجعلك تشعر كما لو كنت تعرف تلك الأيام، وسبق أن مررت بها أو عشت فيها.

د. سليمان خالد الرباح

أنتِ لستِ أنا

أنتِ لســتِ أنا. لا أحد غيري يمكن بأي حال أن يكون كذلك. أنــا أعرف هذا، وأنا أعرف أيــن كنتِ وما الذي فعلته حتى الآن بالكامل منذ يوم أمس، عندما مضيت إلى خارج البوابة في أثناء تحطم القطار. كان الجميع غاية في الاســتثارة لدرجة أن أحدا لــم يلحظني. أصبحت غير ذات أهميــة حيث كان هناك حديث عن أشلاء الناس والسيارات المحطمة هناك فوق قضبان السكة الحديد. هرعنا جميعا نحن الفتيات إلى أســفل عندما ســمعنا الضوضاء، نزلنا إلــى الأرض عند جدار الحماية من الأعاصير كمجموعــة من القردة. كانت الســيدة ورث تعــض على صليبها وتبكي بشــدة. أظن أنها جرحت شفتيها. أو ربما ظنت أن واحدة من بناتها الأخريات كانت هناك في القطار. كانت حادثة ســيئة بالفعــل، يمكن لأي شــخص أن يرى هذا. فقد تســببت أمطار الربيع في تفتيــت الأرض التي كانت تجعل وصلات الربط ثابتة وراسخة، لذلك تباعدت القضبان قليلا وخرج القطار في النهاية عن الخط إلى مصرف المياه. لكن كيف صار الجميع بلا استثناء غاية في الاستثارة هكذا؟ مازلت عاجزة عن الفهم.

دائما مــا كرهت القطــارات، كرهت رؤيتها تمــر هناك في العمــق، وكرهت رؤيتهــا تختفي بعيدا في أعلــى الوادي صوب المدينة التالية. التفكير فــي كل هؤلاء الناس المنتقلين من مدينة إلى أخــرى، كان يجعلنــي غاضبة من دون داع. مــن الذي قال لهم: ينبغي عليك الذهاب وشراء تذكرة لك واستقلال رحلة هذا

الصباح إلى ريدينج، ســتجتازين ثلاثا وعشــرين محطة، وما يزيد على أربعين جســرا، وتعبرين ثلاثة أنفاق، ومازال عليك أن تواصلــي رحلتك، حتى بعد وصولك إلى ريدينج ؟ لا أحد. أنا أعرف هذا. أعرف أنه ليس هناك مســؤول يقول أشياء مثل هذه للناس. لكن تخيلي أن وجود مثل هذا الشــخص فعلا يمثل ســعادة بالنسبة إلي. ربما سيكون هناك فقط صوت ضخم جدا يتحــدث في مكبــرات صوت يطلق صياحه في جميع الشــوارع الرئيسية عبر نظام للإذاعة المحلية.

عندما رأيت القطار هناك في وضع يرثى له، مشلول الحركة على أحد جنباته، مثل دودة عجوز ميتة سقطت من أحد النباتات، شــرعت في الضحك، لكنني اخترقت الســياج بصعوبة شديدة عندما بدأ الناس يتسلقون النوافذ وهم ينزفون.

كنــت في الفناء، وكان هناك غــلاف علبة ورقية من جبن (تيد بيتس) فوق المقعد. ثم كنت في البوابة الرئيسية، وكانت مشــرعة. في الخارج كانت هناك عربة ســوداء عند الحاجز الحجــري للطريــق، وكان يجلس في مقدمتهــا رجل يدخن. فكرت في التحدث إليه وســؤاله إن كان يعرف من أنا، لكنني قــررت ألا أفعل. كان صباحا مشمســا ممتلئــا بالهواء المنعش والطيــور، تتبعت الطريــق حول التل، إلى أســفل حيث قضبان السكة الحديد. سرت فوق القضبان وأنا أشعر بالاستثارة. بدت عربة القطار الخاصة بالطعام غريبة وهي مطروحة على جانبها وزجاج نوافذها مهشم كله وبعض أقمشة الستائر مسدلة. واصل طائــر أبو الحناء إطــلاق صفيره من فوق الشــجرة. «بالطبع»،

قلت لنفســي. «يحدث هذا فقط في عالم الإنســان. إذا كان من المفترض أن يحدث شــيء ما حقيقي، فسوف يتوقف الناس عن الغناء». ســرت في طريق مغطى ببقايــا الفحم بجوار القضبان الحديدية، وأنا أنظر إلى الناس الممددين فوق العشب. كان بعض الرجال قد بــدأوا يحملونهم ناحية مقدمة القطار حيث تتقاطع الطرق البريــة مع القضبان، كانت هناك امــرأة في زي أبيض، حاولت الابتعاد عن المرور بالقرب منها.

قررت الهبوط إلى أســفل طريــق عريض يمر خلال أحراش التوت الأسود، وفي أرض صغيرة خالية من الأشجار عثرت على موقــد قديم ومجموعة كبيرة من الضمادات والمناديل القذرة في قمامة موجودة في منتصف هذه الأرض. كان كل شيء فوق كومة من الأحجار. وجدت كثيرا من الأحجار الكروية وبعض الحجارة الأخــرى المتنوعة. كانت الأرض هنا ناعمــة جدا ورطبة. عندما رجعــت هناك إلى القطار بــدا لي أن هناك مزيــدا من الناس يركضون هنا وهناك، ســرت بالقرب من الأشخاص الذين كانوا ممدديــن جنبا إلى جنب فوق الرماد، ونظرت إلى وجوههم. كان أحد هــذه الوجوه لفتاة وكان فمها مفتوحا. أســقطت فيه أحد الأحجــار وانصرفت. رجــل بدين كان فمه مشــرعا هو الآخر، أســقط فيه حجرا خشــنا حادا بدا مثل قطعــة فحم. خطر لي أننــي ربما لن تتوافر معي أحجار لهــم جميعا، وكانت الجمرات صغيرة جدا. كانت هناك امرأة عجوز تمضي جيئة وذهابا بسرعة شــديدة وهي تمسح يدها في طرف ثوبها، مرارا وتكرارا. كانت ترتدي رداء طويلا من الحرير تصميمه يحتوي على مجموعة من

الأفواه الزرقاء المطبوعة في كل مكان فيه. ربما كان من المفترض أن تكون نباتات لكن شكلها كان يشبه الأفواه. نظرت إلي بجنون وحافظت أنا على ابتعـادي منها. لاحظت فجأة يدا ذات خواتم في أصابعها تبرز من تحت قطع كثيرة من المعدن الملتوي. سحبت المعدن بقوة ورأيـت وجها. كانت امرأة وكان فمها مغلقا. حاولت أن افتحه لأتمكن من وضع حجر فيه. أمسـك بي رجل من كتفي وجذبني بعيدا. بدا غاضبا. «ما الذي تفعلينه؟»، صرخ. «هل أنتِ مجنونة؟» شرعت في البكاء وقلت إنها كانت أختي. كانت بالفعل تشـبهها قليلا، أخذت أنتحب وأقول: «لقـد ماتت. لقد ماتت». توقف الرجل عن غضبه وسـار بي نحو مقدمة القطار، ممسكا بذراعـي بإحكام بإحدى يديه. حاولت أن انتزع نفسـي منه، في الوقت نفسه قررت ألا أقول شيئا أكثر من «لقد ماتت» بين الحين والآخر. «حسـن»، قال الرجل. عندما بلغنا آخر مقدمة القطار أجلسني فوق العشب بمحاذاة عدد كبير من الناس الآخرين. كان بعضهم يبكي، لذلك توقفت وأخذت أراقبهم.

بدا لي أن الحياة بالخارج كانت تشـبه الحيـاة في الداخل. دائما كان هناك شـخص ما لإيقـاف الناس عن فعل ما يرغبون في عمله. ابتسـمت عندما فكرت أن هـذا كان بالضبط عكس ما شـعرت به عندمـا كنت لا أزال في الداخـل. ربما ما نرغب في فعله خطأ، لكن لماذا ينبغي أن يكونوا هم الأشـخاص الذين يقررون دائمـا؟ أخذت أفكر في هذا بينما كنت جالسـة هناك اقتلع أوراق العشب حديثة النمو من الأرض. وفكرت أنني سأقرر لمرة واحدة ما يكون صحيحا، وأفعله.

لم يكن قد مــر وقت طويل جدا قبل أن تصل عدة عربات إســعاف. كانت مخصصة لنا، لصف مــن الناس الذين كانوا يجلســون على مقعد طويــل، بالإضافة إلى أشــخاص كانوا يرقدون هنا وهناك علــى نقالات أو فوق المعاطف. لا أعرف لماذا، بمــا أن الناس لم يكونوا يتألمــون، أو ربما كانوا كذلك، عندمــا يكون هناك العديد من الناس فــي حالة ألم معا في الوقت نفسه لا يحبون على الأرجح إصدار ضوضاء تعبيرا عن ألمهــم، ربما لأنه ليس ثمة من ينصــت لهم. بالطبع لم أكن في حالة ألم على الإطلاق. كنت ســأخبر أي شخص بذلك لو كنت ســئلت. لكن لم يسألني أحد. كان ما سألوني عنه هو عنواني، وأعطيــت أنا عنوان أختي لأنه كان فقط على مســافة نصف ساعة بالســيارة. بالإضافة إلى أنني مكثت معها لفترة ما قبل أن أرحل، لكن هذا كان منذ ســنوات، على ما أعتقد. تم نقلنا جميعا معا، البعض ممدد داخل عربة الإسعاف، وبقينا جالسين على مقعد طويل غير مريح في عربة غير مزودة بســرير. لابد أن المرأة التي كانت جالســة إلى جواري أجنبية، فقد كانت تئن وتبكي كالرضيع، ولم تكن بها قطرة دم تمكنني من رؤيتها، في أي مــكان. نظرت إليها طويلا من الجنب في عناية شــديدة، لكنها بدت مستاءة من هذا، وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر، وهي لاتزال تئن وتنتحب.

عندمــا وصلنا إلى المستشــفى تم اصطحابنا جميعا وإجراء الفحص علينا. في ما يتعلق بي قالوا فقط: «صدمة»، وســألوني مرة ثانية عن مكان إقامتي. أعطيتهم العنوان الســابق نفســه،

وســـرعان ما أخذوني إلى الخارج مرة ثانية ووضعوني في المقعد الأمامي لإحدى السيارات من طراز «ستيشن»، بين السائق ورجل آخر، مرافقه، على ما أظن. تحدث كلاهما إلي بشـــأن الطقس، لكنني كنت على دراية كافية بألا أدع نفسي تقع في الشرك بهذه الســـهولة. فأنا أعرف كيف أن أبسط الموضوعات يمكن أن يلتف حولـــك ويخنقك بينما تظن أنك في أمان تام. «لقد ماتت»، قلت لمـــرة واحدة، عندما كنا في منتصف الطريق بين المدينتين. «ربما لا، ربما لا»، قال الســـائق، كما لو كان يتحدث إلى طفلة. أبقيت رأسي منكســـا معظم الوقت، لكنني نجحت في إحصاء محطات البنزين بينما كنا نتقدم في طريقنا.

عندما وصلنا إلى بيت أختي نزل الســـائق ودق الجرس، كنت قـــد نســـيت أن الشـــارع كان قبيحا جدا، وأن البيـــوت قد بنيت الواحد قبالة الآخر، بطريقة مشـــابهة، ويفصل بينها فقط ممر أســـمنتي ضيق. وكان كل بيت منخفضا عـــدة أقدام عن الآخر، حتـــى بدا الصف الطّويـــل منها مثل مجموعة ســـلالم ضخمة. كان من الواضح أنه قد ســـمح للأولاد باللعـــب على هواهم في الساحات الأمامية كلها، ولم يكن هناك عشب في أي مكان على مرمى البصر، طين فقط.

جـــاءت أختي إلى الباب. تحدث الســـائق معها بكلمات قليلة، ثم رأيتها تبدو شـــديدة القلق على نحو مفاجئ جدا. تقدمت هي إلى السيارة ومالت عليها. كانت ترتدي نظارة جديدة، أكثر سمكا من الســـابقة. لم يظهر أنها كانت تنظر إلي. بدلا من ذلك قالت للسائق: «هل أنت واثق من أنها على ما يرام؟».

«بــكل تأكيد»، أجاب: «لم أكن لأخبرك لو لم تكن كذلك. لقد خضعــت توا في المستشــفى لفحص كلي. إنهــا مجرد صدمة. الراحة الجيدة ســتجعلها بخير». نزل المرافق ليســاعدني على النزول والســير على الرغم من أنني كان بإمكاني السير بمفردي بســهولة. رأيت أختي تنظر إلي بجانب عينها بالطريقة نفســها التي أعادتها. عندما بلغت الرواق سمعتها تهمس للمرافق: «إنها لا تبدو لي بعد على ما يرام». ربت هو على ذراعها وقال: «ستكون بخير، فقط لا تدعيها تستثار».

«هذا هو ما يقولونه دائما»، احتجت أختي، «لكنها مســتثارة تماما».

دخـل المرافـق إلى الســيارة، «إنها لم تصـب على أي حـال يا سيدتي» وصفق الباب.

«لــم تصب!» صرخــت أختي، وهي تراقب الســيارة، التي انطلقــت وهي لاتزال واقفة تتابعهــا بنظرها حتى بلغت أعلى التــل وانعطفت. كنت لاأزال انظر إلى أرضية الرواق لأنني لم أكن متأكدة بعد مما كان ســيحدث. دائما ما كنت أشــعر بأن شــيئا ما كان على وشــك الوقوع، وعندمــا كان يتملكني هذا الشعور، أبقى ســاكنة تماما، وأترك ما سيحدث لكي يحدث. ليســت هناك جدوى من التساؤل بشــأنه أو محاولة إيقافه، فــي هذا الوقت لم يكن لدي شــعور بأن حدثا معينا كان على وشك الوقوع، لكنني شــعرت بأنني سأكون أكثر ملاءمة لفعل الشــيء الصواب إذا تريثت وتركت أختي تتصرف أولا. كانت واقفــة حيث كانت، بمريلتها، تقلم أطراف أغصان بعض نبات

الصفصـــاف الأمريكي، التي برزت خارج أجمة بجانبها. كانت لاتـــزال ممتنعـــة عن النظر إلـــي. وأخيرا قالت في ســـخط: «بإمكانـــك الذهاب إلى الداخـــل. إن الجو بارد هنا». ففتحت الباب ومضيت إلى الداخل.

تبينت على الفور أنها غيرت وجددت كل شـــيء، لكن بطريقة عكســـية. فقد كانت هناك دائما صالة وحجرة معيشة، باستثناء أن الصالة كان من المعتاد أن تكون على الجانب الأيســـر لحجرة المعيشـــة والآن أصبحت على اليمين. جعلني هذا أتســـاءل: لماذا لـــم ألاحظ أن البـــاب الأمامي صار الآن فـــي نهاية الرواق على اليمين. لقد نقلت حتى الســـلالم والمدفأة إلـــى مكانين آخرين. كان الأثـــاث هو عينه، لكـــن كل قطعة تم وضعها في مكان مغاير تماما لما كانت فيه في السابق. قررت ألا أنطق بشيء وأن أدعها تدلي بتفسيرها إذا شعرت هي بالحاجة إلى ذلك. خطر لي أنها لابد وقد تكلفت كل ســـنت احتفظت به في البنك، ولايزال البيت يبدو بالضبط مثلمـــا كان عليه في البداية عندما بدأت هي في تجديـــده. أبقيت فمي مغلقا، لكنني لم أقو على عدم التطلع هنا وهناك بقدر كبير من الفضول لأرى إن كانت قد أجرت الانقلاب على كل التفصيلات من دون استثناء.

ذهبـــت إلى حجرة المعيشـــة، كانت الكراســـي الثلاثة الكبيرة لاتزال موضوعة حول المائدة الموجودة في وسط الحجرة ومغطاة بمـــلاءات قديمة، ومصبـــاح الأرضية عند البيانـــو الآلي كان له الغطاء الســـيلوفاني الممزق نفســـه فوق حاجب الضوء الذي في أعلاه. بدأت أضحك، فقد بدا لي كل شيء كوميديا جدا عندما

استرجعته. رأيتها ممسكة بطرف الستارة في قوة وهي تنظر إلي مليا. واصلت أنا الضحك.

كان الراديو المجاور للباب يذيع معزوفات للأورغن. فجأة قالت أختي: «اجلسي، يا إيثيل. لدي شيء يجب أن أفعله، سوف أعود». دخلت إلى المطبخ عبر الصالة وسمعت صوت الباب الخلفي ينفتح.

كنت أعرف بالفعل إلى أين سوف تذهب. كانت خائفة مني، وأرادت من السيدة جيلينك أن تحضر. أنا موقنة تماما، أنهما ستحضران في غضون دقيقة، وأن أختي تمضي الآن مباشرة نحو حجرة المعيشة هذه المرة. وقد بدت الآن غاضبة، لكنها لم يكن لديها ما تقوله. السيدة جيلينك قذرة وبدينة. صافحتني وقالت: «حسنا، حسنا، فترة طويلة». قررت ألا أتحدث إليها هي الأخرى لأنني لا أثق بها، لذلك تحولت عنها ورفعت غطاء البيانو الآلي. وحاولت أن أضغط بعض المفاتيح، لكن المزلاج كان مشدودا، وكانت المفاتيح كلها ثابتة ولم تتحرك. أغلقت الغطاء ومضيت لأتطلع عبر النافذة. كانت هناك فتاة صغيرة تدفع عربة دميتها على امتداد الرصيف أسفل التل، ظلت الفتاة تداوم على النظر إلى الوراء إلى الآثار التي صنعتها العجلات عندما تركت جزءا مبتلا من الرصيف ومضت إلى بقعة جافة. كنت قد عقدت العزم على ألا أدع للسيدة جيلينك فرصة ثانية لتخدعني، لذلك ظللت صامتة. جلست على الكرسي الهزاز عند النافذة وبدأت أدندن.

قبل انقضاء فترة طويلة شرعتا في التحدث إحداهما إلى الأخرى بأصوات خفيضة، لكنني سمعت بالطبع كل ما قالتاه.

قالت السيدة جيلينك: «اعتقدت أنهم كانوا يعملون على العناية بهـا». قالت أختي: «أنـا لا أعرف. لذلك أنـا أفعل هذا لكن الرجـل ظل يردد لي أنها كانت على ما يرام. هه! إنها بالضبط على ما هي عليه». «لماذا أنت متأكدة؟»، قالت السيدة جيلينك. وصمتتا للحظة.

«حسنا أنا لن أصبر على هذا!» قالت أختي، فجأة، ثم أضافت، «سأخبر الدكتور دُن برأيي فيه».

«اتصلي بمقر الدار»، حثتها السيدة جيلينك.

«سـأفعل بكل تأكيد»، أجابت أختي: «ابق أنت هنا. سأذهب لأرى إن كانـت كيت موجـودة في بيتها». كانت تقصد السـيدة شولتز، التي كانت تقطن في الجانب المقابل ويوجد لديها هاتف. لم أنظر حتى إلى أعلـى عندما خرجت هي. لقد اتخذت قرارا كبيرا، وكان أن أبقى في البيت وألا أدع نفسي - تحت أي ظرف مـن الظـروف - أؤخذ إلى هنـاك. كنت أعـرف أن الأمر ربما سـيكون صعبا، لكن كانت لديّ خطة ستنجح إذا استخدمت كل قوة إرادتي. إن لدي إرادة قوية.

كان أول شيء مهم أفعله هو أن أبقى هادئة، وألا أتفوه بكلمة ممكن أن تفسـد السـحر الذي كنت قد بدأته. كنت أعرف أنها سـتصبح معركة بيني وبين أختـي، لكنني كنت واثقة من أن قوة شخصيتي وتعليمي العالي قد أهلاني لمثل هذه المعركة بالضبط، وإنه بمقدوري الفوز بها. كل ما كان علي أن أعمله هو أن أواصل الإصرار في داخل نفسـي، وسوف تحدث الأمور بالطريقة التي أردت أن تحدث بها. قلت هذا لنفسـي بينما كنت أتأرجح على

الكرسي. كانت السيدة جيلينك واقفة عند مدخل الصالة منحنية، تقريبا تطل إلى الخارج من الباب الأمامي. بدت الحياة الآن أكثر وضوحا وأكثر معنى عما كانت عليه لفترة طويلة، طويلة جدا. سأحقق ما أردته بهذه الطريقة «لا يمكن لأحد أن يوقفك»، قلت لنفسي.

مضى ربع ساعة قبل أن تعود أختي. عندما دخلت، كان معها كل من السيدة شولتز وشقيقها، وكان الرعب باديا عليها. عرفت بالضبط ما الذي حدث قبل أن تخبر أختي السيدة جيلينك. اتصلت بالدار واشتكت للدكتور دُن من إطلاق سراحي، وبدوره كان مستثارا جدا، وأخبرها بأن تعمل على إبقائي بكل الوسائل لأنني لم يطلق سراحي على الإطلاق، وأنني تمكنت من الخروج بطريقة ما. كنت مصدومة بعض الشيء لسماع هذا يقال بهذه الطريقة، لكن كان علي الآن، وهذا هو ما فكرت فيه، أن أعترف لنفسي بأن هذا بالضبط هو ما حدث.

نهضت عندما حضر أخو السيدة شولتز، وحملقت فيه بقوة.

«هوني عليك، الآن، يا آنسة إيثيل»، قال، وبدا صوته متوترا. انحنيت له: على الأقل فقد كان مهذبا.

«عجبا يا ستيف»، قالت السيدة جيلينك.

راقبت كل حركة صدرت عنهم. سأتمنى الموت على أن أفقد مفعول السحر. شعرت بأنه في إمكاني معالجة الأمر، لكن بمجهود عظيم. كان شقيق السيدة شولتز يحك جانب أنفه، ويده الأخرى كانت ترتعش في جيب بنطلونه. عرفت أنه لن يسبب لي أي متاعب. السيدة شولتز والسيدة جيلينك لن تذهبا إلى أي

حد يزيد عما تخبرهما به أختي. وهي نفسها كانت خائفة مني لأنها - على الرغم من أنني لم ألحق بها أبدا أي ضرر - كانت على اقتناع دائم بأنني سأفعل ذلك يوما ما. ربما كان هذا لأنها عرفت ما كنت بصدد أن أفعله بها، لكنني أشك في هذا، وإلا لفرت هي من المنزل.

«متى سيأتون؟» سألت السيدة جيلينك.

«سيأخذونها عما قليل»، قالت السيدة شولتز.

إنهم جميعا واقفون عند المدخل.

«رأيتهم وهم يقومون بإنقاذ ضحايا الفيضان، هل تذكرون ما أذيع الليلة الماضية في الراديو؟»، قال أخو السيدة شولتز. ثم أشعل سيجارة واستند بظهره إلى أعمدة الدرابزين.

كان البيت قبيحا جدا، لكن كانت لدي أفكار لجعله يبدو أفضل. أنا لدي ذوق ممتاز في الديكور. حاولت ألا أفكر في هذه الأشياء، وقلت مرارا وتكرارا في عقلي: «اجعلي الأمر ينجح».

أخيرا جلست السيدة جيلينك على الأريكة عند الباب وجذبت تنورتها على ساقيها وسعلت. لاتزال الحمرة تبدو على وجهها والجدية أيضا. كدت أضحك بصوت عال عندما فكرت في ما ينتظرون رؤيته، فعلا لأعرف إن كانوا على دراية به.

سمعت بالخارج صوت باب سيارة يغلق بعنف. في الممر حضر رجلان من الدار. كان هناك شخص آخر يجلس إلى عجلة القيادة، منتظرا. ذهبت أختي سريعا إلى الباب الأمامي وفتحته. قال أحد الرجلين: «أين هي؟» دخل كلاهما ووقفا ينظران إليّ برهة وابتسما ابتسامة عريضة.

«حسنا، مرحبا!» قال أحدهما. التفت أحدهما وقال لأختي: «هل توجد مشكلة؟» ضربت أختي رأسها بيدها: «إنه لمن الغريب أنكم لا تستطيعون أن تكونوا أكثر اهتماما»، قالت بغضب: «إنهم يمضون بالطريقة نفسها، كيف تعرفان ما الذي سيفعلونه؟».

تمتـم الرجل ثم اقترب مني وقال: «هـل ترغبين في القدوم معنا؟ أعرف شخصا ما بانتظار رؤيتك».

نهضت وسـرت ببطء عبر الحجرة، وأنا أنظر إلى الستارة في أثناء سـيري، بصحبة الرجلين عن يميني ويساري، عندما وصلـت إلى المدخل بالقرب مـن أختي أخرجت يدي من جيب معطفي ونظرت فيها، كان في يدي أحد الأحجار التي جمعتها. كانت المهمة سـهلة جدا. قبل أن يتمكـن أحدهما من إيقافي مددت يدي وحشـرت الحجر في فمها، صرخت هي بالضبط قبل أن ألمسـها، وبعد ذلك نزفت شـفتاها مباشرة، لكن الأمر برمته اسـتغرق وقتـا طويلا. كانوا جميعـا واقفين بثبات في أماكنهـم. بعد ذلك، أمسـك الرجلان بي مـن ذراعي بإحكام شـديد، وكنت أنظر إلى ما حولي، إلى الحوائط. شـعرت بأن أسـناني الأمامية قد تحطمـت. وكان بإمكاني تذوق الدم في شـفتيّ، وأحسست بأنني كنت على وشـك الإصابة بالإغماء. أردت أن أضـع يدي على فمي، لكنهما أمسـكا بذراعي «هذه هي نقطة التحول»، فكرت.

أطبقت جفني بإحكام. عندما فتحتهما كان كل شيء مختلفا، وعرفت أنني ربحـت، لم أتمكن من الرؤية بوضوح للحظة، لكن حتـى في أثناء تلك اللحظة رأيت نفسـي أجلـس فوق الأريكة

ويـــداي أمام فمـــي. عندما اتضحت لي الرؤيـــة، رأيت الرجلين يمســـكان بذراعي أختي، وأنها كانت تكافح كفاحا مريرا. دفنت وجهـــي بين يدي ولم أرفعه ثانية، بينما كانا يخرجانها من الباب الأمامـــي، حدث أن اصطدموا بحامـــل المظلات وحطموه، جرح الحامل المحطـــم كاحلها، وركلت هي قطعا من البورســـلين إلى داخـــل الصالة، كنت مســـرورة جدا، ســـحبوها عبـــر الممر إلى الســـيارة، وجلس كل رجل منهما إلى جوارها في الخلفية. كانت تصرخ وأســـنانها تبرز، لكن بينما غـــادروا حدود المدينة توقفت هي وبدأت تبكي، ومع ذلك كانت تحصي محطات الخدمة على طول طريق عودتها إلى الدار، ووجدت أنها كانت أكثر مما ظنت. عندمـــا وصلوا إلى تقاطع الطرق مع القضبان بالقرب من مكان وقـــوع حادثة القطار، أطلت من النافـــذة، لكن العربة كانت فوق القضبان قبل أن تدرك أنها كانت تنظر من الجانب الخطأ.

اجتازت البوابـــة، وهي منهارة بالفعل. احتفظوا بالآيس كريم الذي وعدوها به للعشـــاء، لكنها لـــم تكن تصدقهم، وبينما كانت تمضي عبر الباب الرئيســـي بـــين الرجلين توقفت فـــي العتبة، وأخرجـــت أحد الأحجار من جيب معطفهـــا ووضعته في فمها. حاولـــت أن تبتلعه، لكنه انحشـــر في حلقها، فأســـرعا بها عبر إحـــدى الصالات إلى حجرة اســـتقبال صغيرة وجعلاها تتخلص منه. كان الشيء الغريب، الذي أفكر فيه الآن، أن أحدا لم يدرك أنها لم تكن أنا.

وضعوها في السرير، وبحلول الصباح لم تعد تشعر برغبة في البكاء، إذ كانت متعبة جدا.

الوقت بين العصر والمغرب والسـماء تمطر بغزارة. كانت هي جالسة في سريرها (السرير نفسه الذي اعتدت أنا استخدامه) فـي الدار، تدون كل هذا في الورق. لم تكن لتفكر أبدا في عمل هذا حتى الأمس، لكنها الآن تظن أنها أصبحت أنا، لذلك راحت تعمل كل شيء اعتدت أنا القيام به.

البيت هادئ جدا. مازلت أنا في حجرة المعيشة، جالسة على الأريكـة. في إمكاني المضي إلى الطابق العلوي وإلقاء نظرة على غرفتها إذا أحببت. لكن مرت فترة طويلة منذ أن كنت أصعد إلى أعلـى، ولم أعد أعرف كيف تم ترتيب الغرف، لذلك فأنا أفضل البقـاء هنا في الطابـق الأرضي إذا نظرت إلـى أعلى يمكنني أن أرى نافـذة مربعة من الزجاج الملـون أرجواني وبرتقالي فوق السلالم، على هيئة ساعة رملية، ومع ذلك لم يكن الضوء منتشرا هنا بشـكل كبير جدا لأن المنزل المجاور ملاصق جدا، بالإضافة إلى أن المطر كان يهطل بقوة هنا أيضا.

اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز(*)

وقع رامون عقد العمل في كادث(* *). كانت السفينة ستزور سانتا كروز دي تنريف، أول الموانئ في رحلتها، بعد يوم ونصف اليوم في البحر. في الليل دخلت السفينة الميناء، قبل الظلام بقليل. أضاءت الكشافات الموجودة في كل مكان في الميناء الجبال العالية المنحدرة وجعلتها خضراء بلون العشب في مقابل السماء الداكنة. وقف رامون عند الدرابزين يشاهد المنظر «لا بد أنها أمطرت هنا»، قال لأحد أفراد الطاقم كان يقف بجانبه. زمجر الرجل، لم يكن ينظر إلى المنحدرات الخضراء التي تلمع بصورة غير طبيعية في الوهج الكهربائي، بل ينظر إلى أضواء البلدة في الأمام، «خضراء جدا»، وقال رامون وهو أقل تأكدا، لم يعبر الرجل حتى عن ضيقه وهو يرد.

بمجرد أن رست السفينة، جاءت أعداد كبيرة من الهندوس أصحاب المحلات، حاملين أشرطة مطرزة وسلعا مشغولة للركاب الذين ربما لن ينزلوا إلى الشاطئ. بقي الهندوس على سطح السفينة الخاص بركاب الدرجة الأولى، غير مبالين بالنزول إلى الدرجة الثالثة حيث كان رامون الصبي المختص في حجرة غسيل الأطباق في مطعم ركاب السفينة. لم يسبب له العمل إزعاجا حتى الآن، كان قد تحمل المزيد من الأعمال الشاقة في كادث. كان هناك طعام كاف، وعلى الرغم من أنه لم يكن جيدا، فقد كان

(*) ميناء في شمال شرق جزيرة تنريف في جزر الكناري الغربية.

(* *) ميناء جنوب غرب إسبانيا على خليج في المحيط الأطلنطي، وتنطق قادس بالعربية.

أفضـــل مما كان يقدم لركاب الدرجـــة الثالثة. لم يخطر لرامون من قبل أبدا أنـــه كان يريد الخصوصية في إقامته، حتى أنه لم يكـــن مباليا بضرورة تقاســـم كابينة مع عشـــرة أو نحو ذلك من الملاحين. ومع ذلك، كان غير سعيد إلى حد كبير منذ رحيله عن كادث. باســـتثناء الأوامر التي كانـــوا يصدرونها إليه في المطبخ، فقد كان ســـلوك البحارة معه كما لو أنـــه لم يكن موجودا. كانوا يغطون سريره بملابسهم المتســـخة، ويتمددون عليه، ويدخنون، في الليل عندما كان يرغب في النوم. فشـــلوا في إشراكه في أي محادثة، وحتى الآن لم يأت أحد بأي تلميح، من أي نوع انتقاصا أو استهجانا، بشأن وجوده بالنســـبة إليهم بدا ببساطة على أنه غيـــر موجود وحتى بالنســـبة إلى أقل النـــاس اهتماما بذواتهم، كانت مســـائل مثل هذه ســـتصبح غير محتملـــة. عندما كان في السادســـة عشـــرة لم يكن رامون في موقف مشـــابه، كان يُعامل بخشونة وفظاظة لكن ليس بتجاهل تام.

كان معظم أفـــراد الطاقم واقفين في مقدمة الســـفينة وهم يدخنون، وكانوا يشـــيرون إلى البـــارات الواحد إلى جوار الآخر، بينما كانوا يمســـحون الضفة بأعينهم. العناد الذي كان نوعا ما وليد شـــكواه وتعرضه للظلم، ولأنـــه كان يرغب في أن يكون مع نفســـه ولو بشكل جزئي خلال إحدى الورديات. مشى رامون إلى مؤخرة السفينة ومال بشدة على الدرابزين، وراح ينظر إلى أسفل في الظلام. كان في إمكانه ســـماع صوت بوق سيارة يتم إطلاقه بشكل مســـتمر بينما كانت السيارة تســـير على امتداد الضفة، وكانـــت التلال الخلفيـــة تردد الصوت بشـــكل متقطع، مضخمة

إياه بينما كانت ترسله عبر المياه، ومن الجانب الآخر كان يسمع الهدير الخافت لموجات البحر قبالة حاجز الأمواج. كان يشعر بالحنين إلى الوطن بعض الشيء، ولأنه واقف هناك فقد أصبح غاضبا أيضا. كان من غير المقبول استمرار هذا الوضع، كانت فترة يوم ونصف اليوم فترة طويلة جدا، وكان قد عقد العزم على أن ينتهز الفرصة على الفور عندما تسنح له، ولأن عقله الصغير غير منضبط فقد أخذ يكرر الصورة المشوشة لعملية قتال وصراع على نطاق واسع مع الطاقم بأكمله، والذي أنهاه بالخروج منه كمنتصر وحيد.

إنه لمن المبهج أن تسير بجوار حاجز المياه ليلا في ميناء غريب، مصحوبا برياح الخريف تدفعك برقة في ظهرك، لم يكن رامون متعجلا، فراح يتوقف أمام كل مقهى، ويستمع إلى أصوات الجيتار والصياح من دون أن يسمح لنفسه، من ناحية ثانية أن يستدرج أو يعترض سبيله من جانب النسوة اللائي نادينه من مداخلهن المظلمة، كان عليه أن ينظف مطبخ السفينة بعد الانتهاء من تقديم وجبة إضافية إلى ستين عاملا قدموا مباشرة إلى هنا على متن السفينة في سانتا كروز، كانوا متجهين إلى أمريكا الجنوبية، لذا كان عليه أن يكون آخر من ينزل من السفينة، ولذلك راح يبحث عن رفاقه البحارة فعثر على كثير منهم في مقهى «ديل تايد» جالسين إلى منضدة يتناولون بعض المشروبات، رأوه قادما، لكن لم تند عنهم إشارة تدل على تعرفهم عليه أو اهتمامهم به، لم تكن هناك على منضدتهم مقاعد خاوية، مشى نحو المنضدة، وتباطأ قليلا بينما كان يقترب منها، ثم واصل سيره تجاه نهاية المقهى.

نادى عليه الرجل الموجود خلف البار: «هل تبحث عن شيء ما؟»، استدار رامون وجلس فجأة إلى منضدة صغيرة. وجاء الجرسون وقام بخدمته، لكنه لم يكن باستطاعته أن يميز ما كان يحتسيه، فقد كان يراقب المنضدة الجالس إليها الرجال الستة من بحارة سفينته، مثل شخص متيم. ترك رامون عينيه تتابعان كل إشارة أو إيماءة، وكان منصتا إلى كلماتهم التي كانت تقطعها ضحكات عالية بين الفينة والأخرى. بدأ الامتعاض يتفاقم بداخله، شعر بأنه لو ظل جالسا أكثر من ذلك فسوف ينفجر. دفع كرسيه إلى الخلف وقفز إلى أعلى ثم هرول بشكل درامي مثير إلى خارج الشارع. لم يلحظ أحد خروجه.

بدأ يمشي بسرعة في شوارع البلدة، لم يلق بالا إلى أين كان يمضي. عيناه كانتا مثبتتين على الأفق الوهمي، مضى عبر السوق بطول طريق دي روندا العريض، وفي الشوارع الصغيرة التي تؤدي إلى خلف الكاتدرائية. ازداد عدد الناس في الشوارع بينما كان يمشي بعيدا عن وسط البلدة، حتى وصل إلى ما بدا له أنه منطقة نائية، حيث كانت الدكاكين عبارة عن مجرد أكشاك، وكان مجبرا على المشي بتؤدة مع الحشد. عندما أبطأ من مشيته، شعر بتوتر أقل. وبالتدريج بدأ يهتم بالبضائع المعروضة للبيع وبالناس الموجودين من حوله. خطر له فجأة أنه سيرغب في شراء منديل كبير. خارج أكشاك معينة كانت هناك سلاسل من خيوط مربوطة تدلت منها ممسوكة من أركانها، أعداد كبيرة من الأقمشة المربعة، كانت ألوانها تزهو في توهج المصابيح الكربيدية. عندما توقف رامون ليختار واحدا منها،

عند أقرب كشـــك، أدرك أنه في هذا الكشـــك القريب فتاة ذات وجه ضاحك كانت تشتري بدورها بندانة (منديلا كبيرا). انتظر حتى اختارت المنديل الذي أرادته، ثم خطا بســـرعة إلى صاحب المحل وأشـــار إلى اللفة التي كان يهيئها، قال: «هل لديك منديل آخـــر مثل هذا بالضبط؟» لم تعره الفتاة انتباها ووضعت الباقي فـــي محفظتها. «نعم»، قال صاحب المحل، ومد يده إلى الكاونتر لتفحـــص المناديل. التقطت الفتاة ربطتهـــا الصغيرة الملفوفة في ورقة الجريدة، وانصرفت، ومشـــت بطول الشـــارع، «لا، لا يوجد عندك!» صرخ رامون إلى البائع، وأسرع خلفها كي لا يفقد أثرها في وســـط الحشد. ظل يتتبعها لمســـافة ما على امتداد الطريق العام، حتى انعطفت إلى شـــارع جانبي أفضـــى إلى أعلى التل. كانـــت تفوح هنا رائحة مياه مجاري الصرف الصحي، وكان على ارتفاع عال قليلا. ســـرَّع رامون مـــن خطوته خوفا من أن تدخل الفتـــاة إلى أحد المباني قبل أن تتاح له فرصة التحدث إليها. في مكان ما مـــن عقله الباطن كان يتمنى إقناعها بالذهاب معه إلى مقهـــى «ديل تايد». عندما لحق بها، تحدث بســـرعة من دون أن يتدبر ما كان ينطق به: «يا آنسة». ولأنه فاجأها فقد توقفت عن الســـير وظلت ثابتة فوق أرضية الشارع المبلطة. وعلى الرغم من أنها كانت قريبة جدا منه، فإنه لم يســـتطع رؤية وجهها بشـــكل واضح.

- «ماذا تريد؟».
- «أريد التحدث معك».
- «لماذا؟».

لم يستطع الإجابة.

- «أظن... (تلعثم).

- «ماذا؟!».

كان هناك صمت، ثم عندما ضحكت تذكر رامون وجهها: طلق ومرح، لكنه ليس وجها طفوليا. رغم الثقة التي بعثت فيه بسبب تذكره شكل وجهها، فإنه سألها: «لماذا تضحكين؟».

«لأنني أعتقد أنك مجنون».

لمس ذراعها وقال في جسارة: «سترين إن كنت مجنونا».

«لن أرى شيئا. أنت بحار. وأنا أعيش هنا»، أشارت إلى الجانب المقابل من الشارع. «إذا رآك والدي، فسيتعين عليك قطع الطريق بأكمله ركضا إلى سفينتك». ثم ضحكت مرة ثانية. كانت ضحكتها بالنسبة إلى رامون موسيقية، لكنها باهتة بشكل مزعج.

«أنا لا أريد أن أضايقك. أردت فقط التحدث إليكِ»، قال، بجبن مرة ثانية.

«حسنا. لقد تحدثت الآن. مع السلامة»، بدأت سيرها. كذلك فعل رامون، مقتربا خلفها. لم تتحدث. بعد دقيقة، قال ملاحظا بابتهاج: «قلتِ إنكِ تعيشين هناك في الخلف!».

«كانت كذبة»، قالت بصوت فاتر. مضيفة: «أنا أكذب دائما».

«آه. أنت تكذبين دائما»، كرر رامون بجدية بالغة.

وصلا إلى شارع مضيء عند نهاية سلم عال. أصبح الرصيف سلسلة من الدرجات الحجرية ترتقي بشكل مائل إلى أعلى المنازل. بينما كانا يصعدان ببطء، تبدل الهواء. كانت تنتشر فيه

رائحة طعام يطهى، وأوراق أوكالبتوس تحترق. هنا فوق مستوى البلدة، كانت الحياة أكثر رحابة. أناس يطلون من الشرفات، أو جالسون في مداخلهم المظلمة يتحادثون، أو واقفون في شوارع مثل الجزر بين كلاب تسعى وأطفال يتحركون.

توقفت الفتاة واستندت إلى جانب أحد البيوت. كانت مقطوعة النفس قليلا من التسلق.

«هل أنت متعبة؟» سأل.

بدلا من أن ترد استدارت بسرعة وانطلقت إلى داخل مدخل بجانبها. لثوان قليلة كان رامون مترددا هل يتبعها أم لا؟ بمرور الوقت تسلل إلى الممر الخافت الإضاءة الذي اختفت فيه. سار خلاله إلى داخل الفناء. بعض الأولاد ذوي الملابس الرثة الذين كانوا يجرون هنا وهناك توقفوا فجأة وحدقوا فيه. كان هناك راديو في أعلى تصدر عنه موسيقى جيتار. نظر رامون إلى أعلى. كان المبنى بارتفاع أربعة طوابق، وكانت هناك أنوار في كل نافذة تقريبا.

في طريق عودته ثانية إلى الضفة ظهرت له امرأة من ظلال المتنزه الصغير المجاور للكاتدرائية وأمسكت بذراعه. نظر إليها، كانت تتظاهر بالخجل بشكل وقح، برأسها المائل بزاوية مجنونة بينما كانت تكرر، «أنا أحب البحارة». تركها تمشي معه إلى مقهى دل تايد، بمجرد دخوله، أصابه إحباط لتبينه أن رفاقه البحارة كانوا قد ذهبوا. ابتاع للسيدة قدح مانزانيلا(*) وتركها بينما كانت قد بدأت في احتسائه. لم ينبس ببنت شفة. في الخارج، بدا

(*) شراب إسباني لاذع.

الليل فجأة شـديد الدفء. وصل إلى ملهى «الأبيض والأسود»، حيث كانت فرقة تعزف بالداخل. كان اثنان أو ثلاثة من رجال الباخرة في ساحة الرقص المظلمة، يحاولون بعث قليل من الحياة في الفتيات المتعبات اللائي تعلقن بهم. لم يتناول هناك حتى المشروب، لكنه أسرع عائدا إلى السفينة. كان سريره مكدسا بالجرائد واللفائف، لكن الكابينة كانت خاوية، وكان في متناوله قضاء عدة ساعات من الليل في هدوء وسكينة. وأن ينعس، قبل وصول الآخرين. أبحرت السفينة عند الفجر.

كانوا بمحاذاة الجزيرة في اليوم التالي، لم يكونوا قريبين بشكل يكفي لرؤية الشاطئ، لكن كانوا في داخل المنظر الرائع للجبل المخروطي، الذي كان هناك إلى جانبهم طوال اليوم في الأفق، واضحا على مرمى البصر. واصلت السفينة التقدم في طريقها لمدة يومين تجاه الجنوب الغربي. أصبح البحر هادئا، وزرقته أكثر دكنة، وكانت الشمس تتوهج بشدة ولمعان في السماء. توقف الطاقم عن التجمع فوق سطح مؤخرة السفينة، باستثناء وقت مبكر من المساء وفي الليل، عندما يتمددون جميعا في استرخاء فوق هذا السطح، وهم يغنون في أصوات خشنة بينما النجوم تترنح وتتمايل جيئة وذهابا فوق رؤوسهم.

سارت الحياة بالنسبة إلى رامون على المنوال نفسه. لم يكن يرى أي اختلاف في موقف الطاقم نحوه. لايزال يبدو له أنهم كانوا يعيشون من دونه. المجلات التي تم شراؤها من سانتا كروز لم تكن متاحة أبدا في أرجاء الكابينة. في فترات العصر عندما يجلس الرجال حول المنضدة في غرفة طعام الدرجة الثالثة،

لم تكن القصص التي تُروى بالإمكان تفسـيرها أو ترجمتها من خلال أي إشـارة في روايتهم تدل على أنها موجهة إلى مجموعة هـو من ضمنها. وهو بالتأكيد كان يعرف بشـكل أفضل أن عليه ألا يحاول حكي أي شيء بنفسه. كان بانتظار ضربة الحظ التي قد تفرضه بالقوة على وعيهم.

فـي منتصف صباح اليـوم الرابع لمغادرة ميناء سـانتا كروز رفع رامون رأسـه من مطبخ السـفينة فلاحظ العديد من رجال كابينتـه متجمعين على امتداد الدرابزين في مقدمة السـفينة. كانت الشـمس ساطعة تماما وسـاخنة، فعرف أن الذي أبقاهم هناك لابد أنه شيء ضروري. رأى أحد الرجال يشير نحو مؤخرة السـفينة. ومن دون قصد كان يتجول بعيدا فوق سطح السفينة على مسـافة أقدام قليلة من المجموعة، وهـو يبحث في البحر والأفق عن جسم ما، شـيء ما غير كتل الطحالب الحمراء التي كانت تطفو بشكل مستمر فوق سطح الماء الداكن.

- «إنه يزداد اقترابا!».
- «كم هو قوي!».
- «إنه متعب!».
- «هذا واضح!».

نظر رامون فوق رؤوسهم، وفي ما بينهم، عندما كانوا يبدلون مواقعهم من وقت إلى آخر. لم ير شيئا. كان على استعداد تقريبا ليقتنع بأن الرجال كانوا يستميلونه، على أمل أن يكون قادرا على الترويح عنهم، عندما يتحتم عليه من فرط الفضول أن يتساءل: «ما هذا؟» ولذلك اعتزم أن يكون هادئا، وأن ينتظر ويرى.

فجأة أتيحت له الرؤية بالفعل. كان هناك طائر صغير أصفر وبني اللون يطير بشكل منحن في خط غير مستقيم خلف السفينة، وهو يترنح كلما تراجع بشكل متكرر نحو المياه بين دفقات الطاقة المفرطة والباعثة على اليأس والتشبث بالحياة.

- «ألف ميل بعيدا عن الأرض!».
- «سينجح! انظر! ها هو قادم!».
- «لا!».
- «المرة القادمة».

في كل محاولة متهورة جامحة للوصول إلى ظهر السفينة، كان الطائر يقترب أكثر إلى الرجال، وعندئذ ربما خوفا منهم، يرفرف إلى أسفل تجاه البحر الذي يغلي من شدة الحرارة، مفتقدا الأثر العظيم الاضطراب الذي تخلّفه السفينة في المياه في كل وقت من هامش الاقتراب. وعندما بدا في هذا المرة أنه سيتحرك بالتأكيد في اضطراب واهتياج إلى أسفل نحو الاختلاط والتشوش الأبيض للهواء والماء، الذي كان يندفع إلى أعلى في ضعف، وكان رأس الطائر يتحول في عزم وتصميم نحو كتلة السفينة البيضاء التي تتحرك أمامه بشكل مستمر.

كان رامون مبهورا. كان أول ما خطر له هو أن يخبر الرجال بأن يتراجعوا إلى الخلف قليلا بعيدا عن الدرابزين لربما تواتي الطائر الشجاعة ليهبط. بينما كان على وشك أن يفتح فمه ليدلي بهذا الاقتراح، فكر فيه بشكل أفضل، وعلى الفور كان ممتنا لبقائه صامتا. فقد كان بوسعه تخيل السخرية التي كانت ستوجه إليه في ما بعد: في الكابينة، أو في وقت الطعام، أو في المساء

فوق السطح... كان شخص ما سيؤلف أغنية صغيرة مخجلة عن رامون وطائره. وقف يراقب، في ألم متزايد من الإثارة.

- «خمس بيزيتات على أنه سيهلك!».

- «عشر على أنه سينجح!».

دار رامون هنا وهناك ثم جرى برشاقة نحو المطبخ. وفي التو تقريبا عاد إلى السطح مرة ثانية. وهو يحمل في يده تميمة السفينة، وكانت قطا ثقيل الوزن، عيناه ترمشان في سرعة بشكل غبي في وهج الشمس المفاجئ. هذه المرة مشى مباشرة عائدا إلى الدرابزين حيث وقف الآخرون. وأجلس القط عند أقدامهم.

«ما الذي تفعله؟» قال أحدهم.

«انظر وسوف ترى»، قال رامون.

كانوا جميعا هادئين للحظة، أمسك رامون بجنبي القط ورأسه منتظرا أن يجذب القط انتباه الطائر المرفرف. كان من الصعب حدوث هذا. وبغض النظر عن الكيفية التي كان بها رامون يوجه رأس القط فإنه لم يظهر أي علامة على الاهتمام بالطائر. ظلوا منتظرين لفترة. وعندما وصل الطائر إلى مستوى قريب من السطح على بعد عدة أقدام من السفينة، انتفضت رأس القط فجأة، فعرف رامون أن الاتصال قد حدث. فسحب يديه على الفور بعيدا عن القط، الذي وقف ساكنا تماما، وطرف ذيله يتحرك قليلا. ثم أخذ خطوة إلى الأمام مقتربا من الحافة، وهو يراقب كل حركة ومجهود يبذله الطائر الذي كان في حالة هيجان شديدة.

- «انظر إلى هذا».

- «إنه يراه».
- «لكن الطائر لا يراه».
- «إذا لمس السفينة، فإن عرض البيزيتات العشر سيظل ساريا».

ارتفع الطائر في الهواء، طار سريعا للحظة حتى أصبح فوق رؤوسهم مباشرة. نظروا إلى أعلى في الشمس اللاهبة، محاولين حماية أعينهم بأيديهم. الطائر حتى الآن بعيدا إلى الأمام، لدرجة أنه لو هبط، فسوف يحط على السطح على بعد أقدام قليلة أمامهم. القط، محدقا، في الهواء إلى أعلى، جرى بسرعة عبر السطح إلى أن أصبح أسفل الطائر مباشرة، الذي ترك نفسه يهبط ببطء حتى بدا لهم أن بإمكانهم الوصول إليه والتقاطه. قفز القط قفزة فاشلة في الهواء. صرخوا جميعا، لكن الطائر كان عاليا جدا. فجأة ارتفع إلى أعلى كثيرا، ثم توقف عن الطيران. مروا من تحته سريعا بينما ظل هو معلقا في الهواء للحظة. عندما أداروا رؤوسهم ثانية إلى الوراء كان هناك شيء أصفر يهبط ببطء إلى أسفل باتجاه البحر، وسرعان ما فقدوا أثره تقريبا.

في وجبة الغداء تحدثوا عنه. وبعد حدوث بعض الجدال والنقاش دُفعت الرهانات. ذهب أحد عمال التزييت إلى كابينته وأحضر شرابا ومجموعة من الكؤوس الصغيرة وضعها أمامه وملأها الواحدة تلو الأخرى.

«هل ترغب في بعض منه؟» قال لرامون.

أخذ رامون كأسا، ومرر عامل التزييت بقية الكؤوس إلى الآخرين.

حقول صقيعية

كان القطـــار قد تأخر لأن صندوق التســخين أســفل إحدى العربات قد اشــتعل في وســط حقل مســطح شــديد الاتساع مغطى بالثلوج. وقد ظلوا هناك قرابة الســاعة. عقب الضوضاء والانطلاق الســريع للقطار نجمت عن الصمت المفاجئ للركاب واهتزازهــم فــي مقاعدهم حالة عامة من القلــق والتوتر. وفي إحدى اللحظــات، مرق قطار آخر علــى القضيب المعاكس وهو يطلق هديرا أعلى من صوت الرعد، وعقب ذلك، ازدادت عصبية الركاب حدة، وبدأوا يتحدثون بتذمر في أصوات منخفضة.

بدأ دونالد يرسم بظفره بعض أشكال في الثلج الذي كان يغطي الجزء السفلي من إطار النافذة المجاورة لمقعده. كان والده قد قال له «توقف عن هذا». وكان بمقدور دونالد أن يســأل «لماذا؟» لكنه فكر في الأمر، فلم يكن بإمكانه تخيل الألم الذي سيتســبب فيه هذا السؤال، وشعر بالاستياء بعض الشيء نحو أمه لعدم تدخلها. فقد كان ينتظــر منها أن تعترض على ذلك الحظر الذي لا مبرر لــه، لكن الخبرة علمته أنها يمكن الاعتماد عليها في الوقوف في صفــه والدفاع عنه فقط في عدد محــدود من المرات أثناء اليوم الواحد، وكان من الطيش تبديد رصيدها من حسن النية.

كان الثلج قد تمت إزالته عن رصيف المحطة عندما نزلوا من القطار. كان الجو قارس البرودة؛ وكانت سحابة كثيفة من البخار تزحف من أســفل القاطرة، وتغلف العربة الأولى بشــكل جزئي. كانت قدما دونالد تؤلمانه من البرد.

«ها هو الخال جريــج والخال ويليز!» صاح دونالد، وقفز في الهواء عدة مرات.

«يجب عليــك ألا تصيح، إننا نراهما. قــف مكانك، والتقط حقيبتك»، قال والد دونالد.

كان الخال ويليز مرتديا معطفا أسود من الفراء كان يصل إلى الأرض تقريبا. وقام بوضع يديه أسفل ذراعي دونالد ورفعه إلى أعلى حتى أصبح رأس دونالد في مســتوى رأسه، وقبله بقوة في فمــه. ثم طوحه في الهواء مناولا إيــاه إلى ذراعي الخال جريج، وفعل الخال جريج الشيء نفسه. «كيف حال الرجل؟» صاح الخال جريج، بينما كان ينزله إلى الأرض.

«بخيــر»، قال دونالد، وهو يشــعر بانتصار، لأن والده لم يكن يحــب أن يرى أولادا يتــم تقبيلهم. وقال له من قبــل، «الرجال يتصافحون بالأيدي. إنهم لا يقبلون أحدهم الآخر».

كانت السماء صافية تماما، وعلى الرغم من أنها كانت تتحول بالفعل إلى لون أرجواني شاحب بمرور فترة ما بعد الظهر، فإنه كان لا يزال بالإمكان رؤيتها تلمع بضوء شديد، مثل منظر السماء في أحد مشاهد الباليه الروسي. وكانت أمه قد اصطحبته معها قبــل بضعة أســابيع لأنها كانت ترغب في رؤيــة بافلوفا(*)، ولم يكن الباليه هو الرقــص الذي يمتع دونالد ويثيره، بل كان يمتعه الاتصال المباشــر المفاجئ مع عالم الســحر. كانت هذه السماء الســحرية فوقهــم الآن، وهــي مختلفة تماما عن الســماء التي اعتــاد رؤيتها فوق شــوارع نيويورك. كان كل مــا يتعلق بالمزرعة

(*) آنا بافلوفا: من أعظم راقصات الباليه، روسية الأصل، ولدت في سان بطرسبرج وتوفيت في لاهاي (١٨٨٥ - ١٩٣١) - [المترجم].

مصبوغا بطابع سـحري. كان البيت بمنزلة نواة لعالم سـحري أكثـر واقعية من العالم الذي يعرفه الناس الآخرون تقريبا. أثناء فصـول الصيف الطويلة، التي تزدهر فيهـا الخضرة والتي كان دونالد يقضيها هناك مع أمه وأفراد عائلتها، اكتشف ذلك العالم وقـام بسـبر أغواره، ولم يشـعر أحد منهم قط أنـه كان يعيش فـي قلب هذا العالـم. لكن وجود والده في المزرعة كان يشـكل خطرا فادحا، لأنه كان من المستحيل تقريبا إخفاء أي شيء عنه، وبمجـرد معرفته بوجود ذلك العالم الآخر فإنه لن يدخر وسـعا فـي القيام بتدميـره. لم يكن دونالد واثقا حتـى ذلك الوقت إن كانت جميع المداخل المفضية إلى هذا العالم تتم حراستها بأمان أو تم تمويهها بفاعلية وإحكام أم لا.

كانوا يجلسـون في المقعـد الخلفي من عربـة الجليد وجلد الجاموس يغلفهم من جميـع الجهات. كان الحصانان الرماديان الكبيـران ينفثان بخار زفيرهما خلال فتحات أنفيهما العريضة. كان الريف الأبيض يمضي في صمت، وكانت أشـجاره المتجمدة ذات لون قرنفلي في ضوء النهار المتأخر. كان الخال جريج ممسكا بالأعنة، والخال ويليز، جالسـا بجواره، وكان يستدير جانبا في مقعده، ويتحدث مع والدة دونالد.

«قدماي تؤلمانني»، قال دونالد.

«حسـنا، يا إلهي، يا لك من صبـي!» صاح الخال ويليز. «ألم تضعهمـا على قوالب الطوب؟ هناك خمسـة قوالب من الطوب السـاخن موجودة عندك في الأسـفل. لقد وضعت هناك لهذا الغـرض». ثم انحنى ورفـع طرف البطانيـة الثقيلة المخصصة

لتغطية النصف الأسفل من الجسم. وكانت قوالب الطوب ملفوفة في ورق جرائد.

«قدمـــاي أنا أيضا مثل لوحين من الثلج»، قالت والدة دونالد. «هنا، اخلع حذاءك وضـــع قدميك فوق هذين القالبين». ودفعت قالبين من الطوب باتجاه قدمي دونالد.

«إنه يرغـــب فقط في جذب انتباهنا»، قال والد دونالد. لكنه لم يمنعه من أن يحصل على قالبي الطوب.

بعد ذلك سأل الخال ويليز أخته: «هل هذا أحسن؟»

«تبدو أحسن. كم ميلا تبقى على الوصول إلى المزرعة؟»

«سبعة أميال حتى الناصية، وميل ونصف من المنعطف»، قال.

«آه، كنت أعرف أنها تبعد مســـافة ميل ونصف من المنعطف»، قال دونالد.

كان دونالد قد قطع هذه المسافة مرات كثيرة في فصل الصيف، وكان يعرف أســـماء المزارع على امتـــداد الطريق. «أولا تصل إلى مزرعة إيلدر، ثم مزرعة لاندون، ثم مزرعة مديسون ...»

لكزه والده بمرفقه بقوة في ضلوعه. «فقط ابق صامتا لبعض الوقت».

تظاهر الخال بعدم ســـماعه لما قاله والـــد دونالد، وأضاف: «حســـنا، حســـنا. إنك تتمتع بذاكرة قوية بكل تأكيد. كم تبلغ من العمر الآن؟»

انقبض حلق دونالد؛ وكان هذا حدثا مألوفا جدا ولم يكن يعني على الإطلاق أنه كان على وشـــك أن يبكي - كان مجرد إحساس بالرغبة في البكاء. ســـعل دونالد وقال في صوت معتدل: «ست

سنوات». ثم سعل مرة ثانية، وهو يشعر بالخجل والخوف من احتمال أن يكون الخال ويليز قد لاحظ شيئا ما خطأ، فأضاف: «لكنني سأبلغ السابعة في أول يوم في السنة الجديدة».

ظلوا صامتين جميعا عقب ذلك، ولم يكن هناك سوى الإيقاع الخافت لخبب الحصانين والصوت الناعم المنساب للمزلجتين فوق الثلج المترامي الأطراف. كانت السماء الآن أكثر إظلاما بعض الشيء مقارنة بالمراعي البيضاء، والغابات على جانب التل وفي الوراء، وقد بدت الملايين من أغصانها العارية، باعثة على الخوف. كان دونالد سعيدا لكونه جالسا في الوسط. كان يعرف أنه ليس ثمة ذئاب في الخارج، لكن، هل بإمكان أي شخص أن يكون على يقين فعلا من هذا؟ فقد كانت هناك ذئاب يوما ما - ودببة أيضا - ولأنه ببساطة لم يتسن لأحد رؤية أي منها على مدار السنوات، فإنهم يقولون إنها لم تعد موجودة الآن. لكن هذا ليس دليلا.

عندما وصلوا إلى المنعطف، حيث يتفرع الطريق المؤدي إلى المزرعة عن الطريق الرئيسي، كانت هناك سبعة صناديق بريد صدئة منتصبة في صف منحن، حيث كان لكل بيت صندوق على الطريق.

«الصندوق» أر. إف. دي «رقم واحد»، قال الخال ويليز بطريقة لطيفة. فقد كان هذا دائما بمنزلة نوع من الدعابة في ما بينهم. لأنهم حتى بعد شرائهم للمزرعة، وهم من أبناء المدن، كانوا يعتقدون أن المزارعين الحقيقيين مرحون ومضحكون جدا.

كان دونالد في ذلك الوقت يشعر بأنه في أرض الوطن، وأعطاه هــذا الثقة لأن يقول: «التوصيل الريفــي المجاني». قال الكلمات بعنايــة، نظرا لأن الكلمة الأولــى أحيانا ما كانت تمثل له صعوبة في النطق بها. لكن نطقه كان سليما، فصاح الخال جريج دون أن يلتفت إلى الخلف: «هذا صحيح! هل تذهب الآن إلى المدرسة؟»

«نعــم». ولم يشــعر بالرغبة في قــول المزيد، لأنــه كان يتابع منحنيات ومنعطفات الطريق، التي كان يعرفها عن ظهر قلب. لكن كل شــيء قد بدا له مغايرا جدا عمــا يتذكره عنه، حتى وجد أنه من الصعوبة التســليم بأن المكان كان هو نفس المكان. فقد فقدت الأرض ألفتها، وأضحت جرداء ومكشــوفة. حتى أنه كان بمقدوره أن يــرى بوضوح، في الليل الــذي كان يهبط، من خلال الأحراش غير المورقة التي كان ينبغي أن تخفي الحقول العارية التي خلفها. كانــت قدماه الآن على ما يــرام، لكن يديه فــي القفاز الصوفي المكسو بالجلد الجاموسي كانت فاقدة الإحساس بسبب البرودة.

لاحــت المزرعة في الأفــق، في كل نافذة مــن نوافذ الطابق الســفلي كانت هناك شمعة مشتعلة، وإكليل من نبات الشوكران. انحنــى دونالد وارتدى حذاءه، وكان هذا من الصعوبة بمكان لأن أصابعه كانت تؤلمه. وعندما اعتدل مرة ثانية كانت عربة الجليد قــد توقفت. كان بــاب المطبخ مفتوحا، وكان هناك شــخص ما يقف في الخارج. وكان الجميع يصيحون «مرحبا!» و«عيد ميلاد ســعيد!»، في المســافة الواقعة بين عربة الجليد والمطبخ لم يكن دونالد على دراية بشيء سوى التقبيل والتربيت الذي كان يتلقاه، وهو يُحمل ويُنزل إلى الأرض، وإخباره بأنه قد صار أكبر ســنا.

ســاعده جده على خلع حذائه ثانية ورفع الغطاء من أعلى الموقد لكــي يتمكن من تدفئة يديه على حرارة اللهب. كان المطبخ يبعث برائحة، كما في فصل الصيف، هي خليط روائح دخان الخشب، واللبن الرائب والكيروسين.

كان من المثير جدا دائما الوجود وسـط أنـاس كثيرين. وأن يشــكل كل فرد منهم حماية إضافية له ضــد المراقبة الصارمة المســتمرة من جانب أمه وأبيه. ففي البيت لم يكن هناك ســوى أمــه وأبيه بالإضافة إليه، لدرجــة أن أوقات تناول الطعام كانت بمنزلــة فترات تعذيب له. لكن في تلــك الليلة كان هناك ثمانية أفراد على مائدة العشــاء. وقد قاموا بوضع قاموس قديم مغلف بالجلد على الكرســي حتى يصبح دونالد عاليا بدرجة مناسبة، وكان يجلــس بين جدته والعمة إميلــي. وكانت العمة إميلي ذات عينين بنيتين داكنتين وعلى قــدر عال من الجمال. وقد تزوجها الخال جريج منذ ســنة، وكان دونالد يعرف من خلال المحادثات العرضيــة العديدة التي ســمعها أنها لم تكــن محبوبة فعلا من جانب الآخرين جميعا.

كانت الجــدة تقول: «لويــزا وإيفور لن يتمكنــا من الحضور قبل الغد، فقد أقلهما الســيد جوردون حتى بورتسفيل بسيارته. وسوف يبيتون الليلة جميعا في الفندق، وأول شيء سيتعين علينا القيام به في الصباح هو الذهاب لإحضارهم».

«وإحضار السيد جوردون أيضا، على ما أعتقد»، قالت أمه.

«مــن المحتمل»، قال الخال جريج. «إنــه لن يرغب في قضاء عيد الميلاد المجيد بمفرده».

بــدت أمه متضايقة، وقالت «إنه أمــر يبدو غير ضروري. إن عيد الميلاد يوم خاص بالعائلة، على أي حال».

«حســنا، إنه الآن جزء من العائلة»، رد الخال ويليز بابتسامة تنم عن خبث.

فأجابت أمه بانفعال كبير: «أعتقد أنه فظيع».

«إنه سيئ جدا هذه الأيام»، قال الجد وهو يهز رأسه.

«ألا يزال يتناول المشــروبات الكحولية القوية العتيقة؟» سأل والده.

فرفع الخال جريج حاجبيه من الدهشة وقال: «إلى هذا الحد وما هو أسوأ منه. أنت تعرف ... وإيفور أيضا يعرف».

كان دونالــد يعلــم أنهم كانوا يتحدثون بغمــوض لأنه موجود بينهم، فتظاهر بعدم الإنصات وراح يشــغل نفسه بعمل علامات علــى مفرش المائدة أمامــه بالحلقات التي توضــع فيها مناديل المائدة.

كان والده قد انفغر فوه من فرط الدهشة: «من أين يحصلون عليها؟» وسأل.

«عــن طريــق وصفة الطبيــب»، رد الخال ويليز في ســهولة وباســتخفاف، «ثمــة طبيــب بولنــدي ملتو هناك فــي المنطقة العلوية».

«آه، بصراحــة»، صاحت أمه، «أنــا لا أدري كيف تؤيد لويزا أمرا كهذا».

العمــة إميلي، التي كانت صامتة حتــى تلك اللحظة، تحدثت فجأة قائلة في تأمل، «أنا لا أعرف، فالاثنان جيدان جدا بالنسبة

إليهـا. أعتقد أن السـيد جوردون كريم جدا، فهـو يدفع إيجار شـقتها، كما تعرفين، ويسـمح لها باستخدام السـيارة والسائق الخصوصي طيلة فترة بعد الظهر».

«أنتِ لا تعرفين أي شـيء عن هـذا الأمر»، قال الخال جريج في صوت أجش فظ بغية إسـكاتها، لكنها استمرت بصوت عال وحاد بعض الشـيء، حتى أن دونالد تبين له أنهما كانا يمارسان سلوكهما المعتاد في النقاش.

«إنني أعرف بالفعل أن إيفور على اسـتعداد تام لتطليقها في أي وقت تريده، لأنها قالت لي هذا بنفسها».

كان هنـاك صمت على المائدة؛ وكان دونالد متأكدا من أنه لو لم يكن موجودا هناك فإنهم جميعا كانوا سـيبدأون في التحدث فـي تلـك النقطة. وقد قالت العمة إميلي شـيئا لـم يكن له أن يسمعه.

«حسنا»، قال الخال ويليز بحماس، «ماذا عن قطعة أخرى من الكعك يا دونالد، يا عجوز؟»

«تقصد ماذا عن السرير»، قال والد دونالد، «فقد حان موعد الذهاب إلى السرير».

لم تقل أمه شيئا، ساعدته على النزول من كرسيه وأخذته إلى الطابق العلوي.

كانـت ألواح الزجـاج الصغيرة الخاصة بنافـذة حجرة نومه مغطـاة بالثلج تماما. فتـح دونالد فمه، وتنفـس في أحد هذه الألواح حتى ذابت فتحة مستديرة خلاله وتمكن من رؤية السواد في الخارج. «لا تفعل هذا، يا عزيزي»، قالت أمه. «فسـوف تقوم

الجـدة بتنظيف النافذة. الآن تعال هنا إلى السـرير. ثمة قالب رائع من الطوب السـاخن تحـت الأغطية حتى لا تصبح قدماك باردتين!» وأحكمت أمه أطراف الغطاء من حوله، وقبلته، وأخذت المصبـاح من فوق المنضدة. كان صوت أبيه المحمل بالضيق يأتي مـن نهاية السـلم. «هيه، يا لورا! ما الـذي يحدث عندك فوق؟ تعالي».

«ألن يكون هنـاك مصدر للضوء في حجرتي على الإطلاق؟» سألها دونالد.

«أنا قادمة»، صاحت. وخفضت بصرها إلى دونالد. «لا يوجد لديك في بيتنا مصدر للضوء».

«أعرف، لكن في البيت بإمكاني إنارته إذا احتجت إليه».

«حسنا، لن تكون بحاجة إليه الليلة. سوف يصاب أبوك بنوبة عصبيـة إذا تركت المصباح لديك. أنـت تعرف هذا. ليس عليك الآن إلا أن تنام».

«لكنني لن أقدر على النوم»، قال بصوت يدل على ما كان فيه من تعاسة.

«لورا!» صاح والده بقوة.

«دقيقة واحدة!» صرخت، بغيظ.

«من فضلك، يا أمي ...؟»

كان صوتهـا يعبر عـن عنادها عندما قالـت، «هذا الطقس البارد سـيجعلك تنام فـي غمضة عـين. والآن فلتنم». ومضت إلـى المدخل، والمصباح في يدها، واختفت عبر المدخل وهي تغلق الباب خلفها.

كان هنـــاك منبه صيني صغير على المنضدة صوته عال جدا. خلال فترات الصمت غير المنتظمة كان يأتي من الطابق الأسفل صـــوت ضحك مكتوم ينطلق فجأة ثم يخبو على الفور. كانت أمه قد قالت: «سأفتح النافذة مسافة بوصة واحدة تقريبا، وسيكون هذا كافيا». كانت الحجرة قد أمســـت أكثر برودة بمرور الوقت. دفع باطن إحـــدى قدميه في مقابل قالب الطوب الســـاخن في منتصف نهاية الســـرير. فســـمع صوت طقطقـــة الجريدة التي كان ملفوفـــا فيها. لم يكن هناك ما يمكـــن القيام به خلا النوم. في طريقه عبر تخـــوم الوعي كان يحلم. من الجبل الواقع خلف المزرعة، وهو يعدو في صمت فوق السطح الجليدي للثلج، ويقفز علـــى الصخور وبين الأحراش، جاء أحد الذئاب. كان يجري نحو المزرعة. وعندما يصل إلى هناك سوف ينظر عبر النوافذ إلى أن يعثر على حجرة الطعام حيث كان البالغون يجلسون حول المائدة الكبيرة. ارتعد دونالد عندما رأى عينيه في الظلام عبر الزجاج. والآن، وهو يحســـب حســـاب كل حركة بدقة، قفـــز الذئب قفزة حطمت زجاج النافذة، وأمسك بتلابيب والده من عند الحلق. في لمح البصر، وقبل أن يتمكن أي شـــخص من التحرك أو الصراخ، مضى الذئب مرة ثانية وهو لا يزال ممســـكا بفريسته بين فكيه، ورأســـه يدور يمنة ويسرة بينما يســـحب الهيكل الضعيف المنهك بسرعة وخفة فوق سطح الجليد.

عندما فتح عينيه كان ضوء الفجر قد تسلل إلى حجرته. كان هناك بالفعل خبط ورنين في ســـلطانيات البيت، فقد كان هناك أناس يقومون بتقليب شـــيء ما. سمع دونالد صوت نافذة تغلق،

ثم الصوت المنتظم لشــخص ما يشق الخشب ببلطة. في الوقت الحالي كانت هناك ضوضاء قريبة، فعرف أن والديه في الحجرة المجاورة قد استيقظا. بعد ذلك انفتح باب حجرته فجأة ودخلت أمه، مرتدية روب حمّام ســميكا من الصوف، وشــعرها منسدل على ظهرها. «عيد ميلاد سعيد»، قالت بصوت عال، وهي تحمل جوربا شبكيا أحمر ضخما ممتلئا بالفاكهة واللفافات الصغيرة. «انظر ما الــذي وجدته معلقا عند المدفأة!» أصيب بخيبة الأمل لأنــه كان يأمل في الذهــاب إلى هناك والحصــول على هديته بنفسه. «لقد أحضرتها إليك هنا لأن البيت بارد مثل الحظيرة»، قالت له: «ابق هنا في أمان في الســرير حتى يصبح البيت دافئا قليلا».

«متى ســنحصل على ما في الشــجرة؟» كانت أهم الشــعائر هي المتعلقة بشــجرة عيد الميلاد، حيث كانت تتكوم أسفلها أكثر الهدايا إمتاعا.

«على رسلك، تمهل»، أخبرته، «لقد حصلت على جورب الهدايا الخاص بــك. لا يمكننا أن نحصل على ما تحت الشــجرة حتى تصــل العمة لويزا إلى هنا. أنــت بالطبع لا ترغب في أن يفوتها هذا. أليس كذلك؟»

«أيــن هديتي للعمة لويــزا والعم أيفور؟ ســيأتي العم أيفور، أيضا، أليس كذلك؟»

«بالطبع، ســيأتي»، أجابت بطريقة تعبير مختلفة تحمل نبرة تردد كانــت تلجأ إليها عندما كانت تأتي علــى ذكر العم أيفور. «لقد قمت بوضعها بالفعل أســفل الشجرة مع الأشياء الأخرى.

الآن ابق فقط حيث أنت، مغطى هكذا بشـــكل كلي، وافتح جورب هدايـــاك وتفقد ما بداخله، وســـأذهب أنا لارتداء ملابســـي».
وانتابتها رجفة فأسرعت عائدة إلى حجرتها.

الشـــخص الوحيد الذي كان يتعين عليه أن يشـــكره هو جده، لأنه أحضر له علبة أقلام خشـــب ألوان كانت محشـــورة في قاع الجـــورب. كانت الهدايـــا الأخرى تحمل بطاقـــات معنونة: «إلى دونالـــد من ســـانتا كلـــوز». كان الخال جريج والخـــال ويليز قد تناولا إفطارهما مبكـــرا وذهبا في عربة الجليد إلى الفندق في بورترســـفيل لإحضار العمة لويزا والعـــم أيفور. وعندما رجعوا، جـــرى دونالد إلى النافذة فرأى أن الســـيد جـــوردون قد حضر معهم. كان الجميع قد تحدثوا بغموض شديد عن السيد جوردون لدرجة جعلته في شـــوق شـــديد لأن يراه. لكـــن في تلك اللحظة نادته أمه لمســـاعدتها في ترتيب الأسرّة. «يجب علينا جميعا أن نبذل قصارى جهدنا لمســـاعدة الجدة»، أخبرتـــه أمه: «الله يعلم أنها لا تألو جهدا وتبذل أقصى ما في وسعها في المطبخ».

لكنه في النهاية ســـمع العمة لويـــزا تنادي عليهما من فوق الســـلم. فنزلا معا إلى أســـفل: كانت القبلات تغمره، وسألته العمـــة لويزا: «كيف حال ابني؟» أنت ابني، ألســـت كذلك؟» ثم قبله العم أيفور، وصافح السيد جوردون الذي كان يجلس بالفعل في كرســـي الجد، الذي لم يسبق لأحد من قبل الجلوس عليه غير الجد. كان الســـيد جوردون ممتلئ الجسم وشاحبا، وكان يرتدي خاتمين كبيرين مـــن الماس في يد وخاتما من الياقوت الأزرق في اليد الأخرى. كانت حشـــرجة بســـيطة تصدر عنه

بينمـــا كان يتنفس، ومن وقت لآخر كان يجذب منديلا حريريا أصفر من جيب صدره ويمســـح به جبينه. كان دونالد جالسا فـــي الطرف الآخر مـــن الحجرة وهو يقلـــب صفحات إحدى المجلات، وبين الفينة والأخرى كان يرفع بصره ويلاحظه. كان السيد جوردون قد أطلق على دونالد «غلامي»، الأمر الذي بدا غريبا جدا، تماما مثل شخصية تتحدث في أحد الكتب. وفي إحدى المرات جذب انتباه دونالد وأشار إليه. فذهب إليه دونالد ووقف بجوار الكرسي الخشبي بينما وضع السيد جوردن يده في جيبه وأخرج منه ساعة ضخمة لها زر وجرس صغير يدق داخل الســـاعة. وبعد عدة دقائق أشار إليه من جديد، فاتجه إليه دونالد وضغط الزر مرة ثانية. في المرة التالية، نهرته أمه وأخبرته أن يتوقف عن مضايقة السيد جوردون.

«لكنه طلب مني القيام بهذا»، قال دونالد معترضا.

«اجلس هنا في هذا المكان. ســـندخل الآن كلنا ونحصل على شجرتنا خلال فترة قصيرة. سيصبح العم أيفور سانتا كروز».

في تلـك اللحـظة حضر الخال ويليز إلى الحجرة. «حســـنا، يا سادة»، قال ذلك وهو يدلك يديه الاثنتين معا، «أعتقد أن البهو الآن قد أصبح دافئا بالقدر الكافي. ماذا عن شجرتنا؟»

«مسألة وقت»، قالت العمة إميلي. كانت ترتدي ثوبا أحمر من التفتاه، وكان دونالد قد ســـمع أمه وهي تتحدث عنه مع أبيه في وقت ســـابق. «غير ملائم إلى حد بعيـــد جدا»، قالت أمه وقتها، «يبـــدو أن الفتاة لا تدرك أنهـــا تعيـــش في مزرعـــة». اقتـربت العـمة إميـلي وأمسكت بيد دونالد. «هل ترغب في مصاحـبتي،

يا سـيدي؟» قالت. ومضيا معا إلى البهو ويداهما متشـابكتان. كانت النار في المدفأة تصدر صوتا عاليا وتطقطق.

«أيـن أيفور؟» قـال الخال جريـج. «هل جلـس الجميع في مقاعدهم؟»

«ها أنا ذا»، قال العم أيفور، قادما من مدخل البهو. كان يضع على رأسـه قبعة حمراء قديمة مخيطة ويرتـدي عباءة حمراء، وكان يضـع حول رقبته لفة من ورق أخضر غائر النقوش محزز. «هذا هو كل ما أمكن لسانتا كلوز أن يعثر عليه»، قال وهو يخاطب الجميع. بدأت العمة لويزا في الضحك. «انظر إلى عمك أيفور»، قالـت لدونالد. «إنني انظر»، قال دونالد. لكنه كان ينظر بالفعل إلى الشـجرة. كانت شجرة شـوكران طويلة تصل إلى السقف، وكانت مكوّمة تحتها أضخم تشـكيلة من اللفافات التي لم يرها في أي وقت من قبل.

«انظر إلى كل هذا!» كان الجميع يصيحون.

«ما الذي تتوقع أن يوجد فيها كلها؟» قالت العمة لويزا.

«أنا لا أعرف»، أجاب دونالد.

جلـس العم أيفـور على الأرض بحيث يكـون على مقربة من الشـجرة قدر الإمـكان ورفع صندوقا كبيرا أعطـاه إلى الخال جريج، الذي كان واقفا في وسـط الحجرة. «دعنا نفرغ من هذا أولا»، قال.

ثم العم جريج قائلا: «إلى دونالد من أهالي روتلاند».

بينما اسـتمر العم أيفـور في مناولة اللفافـات، كان دونالد يتعامـل مع صندوقه. كان مدركا بشـكل غير واضح **للصرخات**

الصغيـــرة التي كانت تنطلق من حولـــه، «كم هي رائعة! لكن هذا كثير جـــدا! آه. لم تكن مضطرا للقيام بهـــذا! لماذا فعلت هذا؟» وبينما كان الآخـــرون يفتحون هداياهم، كان دونالد على العكس منشـــغلا جدا بملاحظة أن القدر الكبير من الدهشة والإعجاب كان موجها إلى الســـيد جوردون، الذي كان جالســـا إلى النافذة ويبدو عليه السرور الشديد.

كان مـــن الصعب جـــدا التصديق: عربة إطفـــاء بطول ثلاثة أقدام، مزودة بإطارات من المطاط وجرس وصفارة إنذار وثلاثة سلالم كانت تنطلق إلى أعلى بطريقة آلية عندما تتوقف العربة. نظر إليها دونالد، وللحظة كان مرعوبا إلى حد ما من القوة التي كان يعرف أنها ستضطره إلى تغيير عالمه.

«آه... أليست ... هذه ... رائعة!» قالت أمه، التي كان انزعاجها يعطـــي حواف حادة لكل كلمة نطقتها، قالـــت «لويزا، لماذا فعلت هـــذا؟» ألقى دونالد بنظرة ســـريعة فـــرأى أن العمة لويزا كانت تومئ للسيد جوردون بهزّة من رأسها، كما لو أنها كانت تقول له: «كل شيء بسببك أنت».

تحركـــت أمه على طول الأرضية نحـــو الصندوق وبحثت عن بطاقة التحية المرفقة به، «أريد منك أن تحتفظ بكل بطاقة داخل الهدية التي جاءت بداخلها»، قالت لدونالد، «ســـيجب عليك غدا كتابة الكثير من رســـائل الشـــكر، ويجب ألاّ يختلط عليك الأمر. لكن بإمكانك الآن أن تشكر العمة لويزا والعم أيفور».

كان يكره أن يطلب منه أحد أن يشـــكر شـــخصا ما في وجود ذلك الشـــخص، كما لو أنه كان طفلا. لكنه قال كلمات الشـــكر

بشـــجاعة، وهو يتوجه إلى السيد جوردون: «أشكرك كثيرا جدا على عربة الإطفاء الجميلة».

«ثمة ما هو أكثر، يا بني»، وابتســـم الســـيد جوردون بابتهاج؛ كانت الجواهر تلمع في ضوء الشمس.

كانـــت العمة إميلـــي ترفع ذراعها أمامها، وتنظر إلى ســـاعة يدهـــا الجديدة. كان الجـــد يرتدي روبا حريريا أســـود ويدخن ســـيجارا، وقد بدا راضيا تماما بينما تحول إلى السيد جوردون قائلا: «حسنا، لقد أفسدتنا جميعا بكرمك وسخائك». لكن والدة دونالد ترجمت عبارته على أنها لوم أو توبيخ فأضافت مفســـرة: «إننا لم نعتد الحصول على مثل هذه الهدايا النفيســـة، يا سيدي جوردون».

ضحك الســـيد جوردون، والتفت إلـــى دونالد، وقال له: «أنت حتى الآن في البداية فقط، يا غلامي. قل لعمك أيفور أن يواصل تقديم الهدايا».

الآن بدا من الواضح أن كل لفافة تقريبا كانت تخص دونالد. فراح يفتحها بأســـرع ما في وسعه، وفي كل مرة كانت تبدو عليه الحيـــرة بســـبب كل أعجوبة جديدة يراهـــا. بالطبع كانت هناك المناديـــل والكتب والكوفيات المهداة مـــن العائلة، لكن كان هناك أيضا صندوق موســـيقى سويسري بأســـطوانات معدنية صغيرة بحيث يمكـــن تغييرها، وكانت هناك أحذيـــة تزحلق، ومجموعة كبيرة من جنود الاســـتطلاع، وآلة أكورديون حقيقية، ولعبة عبارة عن قرية مزودة بشبكة للترام يسير بالبطارية. بينما كان دونالد يفتح كل لفافة، كانـــت تصدر صيحات إعجاب خافتة من جانب

والديــه وكانت أقــرب إلى أن تكون تأوهــات. وأخيرا قال والده للسيد جوردون، في صوت عال بدرجة كافية لكي يسمعه فغطى الصوت على المحادثات الدائرة: «إنه لأمر ســيئ أن يحصل طفل واحد على مثل هذا الكم الكبير».

وسمعه السيد جوردون فقال في مرح وابتهاج: «لقد كنت أنت نفسك صغيرا ذات يوم».

كانت العمة إميلي تحاول قياس «الجاكيت الفرو» الذي قدمه إليهــا الخال جريــج، وكان وجهها متوردا من فــرط الإثارة؛ ولم تطبع سوى قبلة كبيرة على خد الخال جريج.

«لقد حصل طفل أســتور(*) الصغير على لعب تقدر قيمتها بخمســة آلاف دولار في عيد ميلاده الماضــي»، قالت العمة إميلــي إلى والد دونالد، وهي تحرك يدها جيئة وذهابا بطول الفراء.

فنظــر إليها والد دونالد بعينين ضيقتــين، وقال «هذا»، وهو يتلفظ بها في وضوح شديد جدا، «هو ما يجب أن نسميه علامة الجنون».

كان هناك صمت في الحجرة للحظة باستثناء النار التي كانت تطقطق. أدرك هؤلاء الذين لم يســمعوا الحديث أن شيئا ما قد حدث. نظر الخال جريج بســرعة إلى والد دونالد، ثم بعد ذلك إلى العمة إميلي. من المحتمل أن يقع شجار، فكّر دونالد، يتعارك الجميع مع والده. راقت له الفكرة وأبهجته، لكنه في الوقت نفسه أحس بالذنب، لاعتقاده أنها كانت بسببه هو.

(*) ربما يقصد حفيد رجل التجارة والرأسمالي الأمريكي، جون جاكوب أستور (١٧٦٣ - ١٨٤٨) - [المترجم].

ناولـه العم أيفور لفافـة، وبطريقة آلية قام بفك الشـريط، وأخرج منها «جاكت» كشـميري بني. «هذه هي هدية أبيك وأمك لك»، قالت أمه بهدوء. «إنه كبير عليك الآن قليلا، لكنني اشتريته كبيرا عن عمد لكي تكبر داخله». ومرّت الأزمة الصغيرة، وشرع الجميـع في التحـدث مرة ثانيـة. كان دونالد يشـعر بالارتياح والإحباط في الوقت نفسـه. «ماذا عن تدشـين زجاجة الشراب تلك؟» صاح الخال ويليز.

«أنتم يا معشـر الرجال ابقوا هنا»، قالت لهم الجدة، «فيجب علينا أن نخرج ونذهب إلى المطبخ».

«سـأحضر لك متعلقاتك هناك»، قال العـم أيفور إلى العمة لويزا بينما كانت تنهض.

في طريقها إلى خارج الحجرة انحنت والدة دونالد ولمست كتف ابنها قائلة: «أريد منك أن تقوم بإعادة كل هدية إلى داخل صندوقها بنفس الطريقة التـي كانت عليها بالضبط. وبعد ذلك تحملها كلها إلـى أعلى وتضعها فـي حجرتنا وترصها بعنايـة في الركن تحت النافذة. هل تسمعني؟» ومضت إلى الخارج. جلس دونالد لبرهة، ثم قفز إلى أعلى وجرى في أثرها ليسـألها إن كان بإمكانه الاحتفاظ بهدية واحدة فقط - ربمـا، عربة الإطفاء. كانت أمه تقول للجدة: «... لا مبرر لهذا علـى الإطلاق. بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أعرف كيف ستتسـنى لنا العودة بكل هذه الهدايا إلى نيويورك. على الأقل بإمكان أوين أن يأخذ الهدايا الكبيرة معه غدا، على ما أظن».

توقـف دونالد عن الجـري، وأحس بطمأنينـة تهبط عليه، فوالده سـيغادر المزرعة. إذن لندعه يأخذ كل شـيء معه، عربة

الإطفاء وكل الهدايا الأخرى، فالأمر لم يعد مهما. استدار وقفل عائـدا إلى البهو. حيث قام بتعبئة اللعب في صناديقها بعناية، ووضع الأغلفة فوقها، وأعاد ربطها وحزمها بقطع من الأشـرطة اللاصقة والخيوط.

«ما كل هذا الذي تفعله؟» صاح السيد جوردون فجأة متعجبا عندما لاحظ ما يقوم به. «ما الذي تفعله يا دونالد؟»

«يجب عليّ أن آخذ كل شيء إلى الطابق العلوي»، قال دونالد.

انضـم والده إلى المحادثة قائلا: «إنني لا أرغب في رؤية تلك الصناديـق ملقاة فـي جميع أرجاء المكان هنـاك، ولا حتى هنا. عليك أن تراعي رصها في ترتيب ودقة. هل تفهم؟»

واصل دونالد ما يفعله دون أن يرفع بصره إلى والده.

بعد لحظة قال السـيد جوردون هامسا: «حسنا، فسوف تحل بي اللعنة». ثم إلى والد دونالد قائلا: «لقد سبقت لي رؤية بعض الأطفال المؤدبين في زمني، لكنني لن أتردد في أن أقول لك إنني لم تسبق لي رؤية طفل مثل هذا. قط».

«إن التهذيـب يبـدأ في المهـد». قـال والد دونالد بشـكل مقتضب.

«إنه الفساد»، تمتم السيد جوردون لنفسه.

رفع دونالد بصره إلى أعلى بسرعة فرأى والده ينظر بكراهية إلى السيد جوردون.

كانت جدته وعماته وأمه مشـغولات في إعداد العشاء. جلس دونالـد قرب النافذة يهرس البطاطس. كانت زرقة السـماء قد اختفت وراء سـتار من سحب كلها، بيضاء. «سيكون لدينا المزيد

من الجليد قبل حلول الليل»، قالت الجدة، وهي تنظر من النافذة التي تعلو حوض الغسل.

«هل ترغب في استنشـــاق رائحة شــيء جيد؟» سألت والدة دونالـــد ابنها. فجرى إلى الموقـــد وفتحت له باب الفرن فانبعثت منـــه رائحة بصل مختلطة برائحة الديك الرومي المشـــوي. «إنه يحرز تقدما مذهلا وسيصبح رائعا في النهاية»، أعلنت. وأغلقت باب الفرن بصوت عال وقامت بتعليق القطع التي كانت تسـمك بها باب الفرن على علاقتها. ثم دخلت إلى حجرة خزانة الطعام وأدواته (الكرار).

تبعها دونالد. كان الجو باردا هناك، وكانت تفوح من الحجرة رائحـــة المخلـــلات والتوابل. كانت أمه تبحث عن شـــيء ما على امتداد الرف، بين البرطمانات والعلب الصفيح.

«أمي»، قال دونالد.

«همم؟» أجابت في اهتياج شديد، ومن دون أن تخفض بصرها نحوه.

«لماذا يعيش السيد جوردون في منزل العم أيفور؟»

فـــي تلك اللحظة نظرت إليه بالفعـــل، وبطريقة حادة لدرجة أنها أفزعته.

«ما هذا؟» ســـألت بحدة. ثم، قبل أن يتمكن من تكرار سؤاله، واصلـــت قائلة فجأة فـــي صوت طبيعي «حبيبـــي، ألا تعرف أن العم أيفور يمكن أن نطلق عليه مُمرّض؟ مثل الآنسة أوليفر، هل تتذكـــر، التي كانت تعتني بك عندما كنت مصابا بالأنفلونزا؟ إنه مجرد رجل، رجل مُمرّض».

«هل السيد جوردون مريض؟»

«نعم، إنه مريض»، قالت، وهي تخفض من صوتها إلى مادون الهمس.

«رجل مريض جدا، لكننا لا نتحدث عن هذا الأمر».

«ما الذي يشكو منه؟» كان على دراية بأنه قد أصبح ذا سلوك طفولي في تلك اللحظة، على أمل أن يعرف المزيد. لكن أمه كانت تقول بالفعل: «أنا لا أعرف، يا عزيزي. عد إلى المطبخ الآن، فالمكان هنا بارد جدا بالنسبة إليك! اجرِ، اجرِ، اجرِ! إني قادمة معك!»، ضحك دونالد بصوت عال، وجرى عائدا إلى المطبخ، وهو على اقتناع بأنه قد توصل بلا ريب إلى أن ثمة لغزا في الأمر.

أثناء العشاء كان والده ينظر إليه مباشرة بنوع معين من الصرامة كان يدخرها للمواقف التي كان يعرف أنها غير مرغوبة، قال: «إنك لم تذهب اليوم إلى الخارج حتى الآن أيها الشاب. سنقوم بجولة إلى نهاية الطريق في وقت لاحق اليوم».

العمة لويزا التي كانت قد أحضرت معها إلى المائدة كأسا كبيرة من الشراب، وكانت ترتشف منها أثناء تناولها للطعام، قالت معترضة: «إن الجو شديد البرودة، يا أوين، سيموت أو يصاب بنزلة برد».

كان دونالد يعلم أنها كانت تحاول مساعدته، لكنه تمنى لو بقيت صامتة. فإذا أصبح الأمر وقد تحول إلى قضية ومشكلة، فلن ينسى والده بالطبع موضوع جولة المشي.

«بارد جدا!» قال والده بسـخرية. «لدينا قواعد أساسية في عائلتنا الصغيرة، وإحدى هذه القواعد أنه يجب أن يحصل على قسط من الهواء النقي كل يوم».

«ألا يمكنك كسـر هذه القاعدة بسـبب عيد الميلاد؛ لمدة يوم واحد فقط؟» سألته العمة لويزا.

لـم يجـرؤ دونالد على رفع بصره إلى أعلـى، خوفا من رؤية التعبير المرتسم على وجه أبيه.

«اسـمعي، يا لويزا»، قال بشـكل حاد، «اقتـرح أن تبقي على الحياد، وسأبقى أنا كذلك على الحياد، وبهذه الطريقة سننسجم كثيرا وبشكل أفضل». ثم قال بحدة لاذعة كما لو أنه قد استدرك فجأة: «هل هذا مناسـب بالنسبة إليك؟» مالت العمة لويزا فوق طبـق الجدة ناحيـة دونالد وتحدثت بصوت عـال جدا، لدرجة أن الجميـع توقفوا عن الأكل، قالـت صارخة: «لا. إن هذا ليس مناسـبا بالنسبة إلي!» ثم أردفت «إن كل ما تقوم به منذ الصباح وحتى المسـاء وطوال الليل هو إزعاج الطفل. إنه لشيء مخجل! أنا لن أجلس مكتوفـة اليدين وأن أرى لحمي ودمي يتم إزعاجه بهذه الطريقة!»

شـرعت الجدة ووالد دونالد كلاهما في التحدث في الوقت نفسـه. كانت الجدة تقول، «لويزا!»، محاولة تهدئتها، وكان والد دونالـد يصـيح قائلا: «إنك لم ترزقـي بطـفل أبدا، كما أنـك لا تعرفين ألف باء تربية الأطفال».

«أعـرف متى يكون المرء أنانيا ووغدا بشـكل واضح». أعلنت العمة لويزا.

«لويـــزا!» صرخـــت الجدة بصـــوت محمل بالدهشـــة واللوم الخفيف. وواصل دونالد النظر إلى طبقه.

«هل ســـبق لي المجـــيء إلى روتلاند من قبـــل ودس أنفي في شـــؤونك والقيام بانتقـــادك؟ هل قمـــت أنا بهذا؟» ســـأل والد دونالد.

«دعونا الآن لا نفســـد عيد الميـــلاد الجميل هذا»، قال الخال ويليز بسرعة.

«هذا صحيح»، قال الجد. «إننا سعداء جميعا. دعونا لا ننطق بأي شيء نأسف على قوله في ما بعد».

لكن العمة لويزا لم تتراجع. تناولت بسرعة جرعة من الشراب وتقريبا انتابتها شرقة بســـببها وابتلعتها بصـــعوبة. ثـــم، وهـــي ما تزال منحنية ناحية دونالد، واصلت: «ما الذي تعنيه، بمجيئك إلى روتلاند وانتقادي ؟ ما الذي ستقوم بانتقاده في روتلاند؟ هل ثمة شيء خطأ هناك؟».

لـــم يجب والد دونالد للحظة. وأثناء تلك اللحظة بدا الجميع كما لو كانوا يشعرون بالرغبة في قول شيء ما من دون أن يقووا على قوله. كان الشـــخص الذي كســـر الصمت القصير هو والد دونالد، عن طريق صوت مميـــز خافت وناعم، أدرك دونالد في التو أنه كان تقليدا رديئا لصوت العم أيفور: «آه، كلا! ليس هناك شيء خطأ في روتلاند».

فجأة، في حركتين متزامنتين، ألقت والدة دونالد بفوطتها في مكانها ودفعت كرسيها إلى الخلف في عنف، ثم نهضت وأسرعت إلـــى خارج الحجرة، وصفقت الباب خلفها. لم يقل أحد شـــيئا.

وكان دونالد جالسا متجمدا، من دون أن يقدر حتى على رفع بصره، أو حتى أن يتنفس. ثم أدرك أن والده قد نهض هو الآخر، وأنه كان في طريقه إلى الخارج.

«دعها بمفردها يا أوين»، قالت الجدة.

«لا تتدخلي في هذا الموضوع»، قال والده. كانت خطواته على السلالم تحدث صوت صرير بينما كان يصعد إلى أعلى. لم ينطق أحد بكلمة، إلى أن أوشكت الجدة على النهوض، فأعلنت: «سأصعد إلى الطابق العلوي».

«بالله عليك، يا آبي، اجلسي مكانك»، قال لها الجد. تنحنحت الجدة ولم تنهض.

بدا وجه العمة لويزا شديد الحمرة، وكانت عضلات وجهها ترتعش. «بغيض». قالت بصوت مختنق، «بغيض تماما».

«أحسست برغبة في أن أصفعه على وجهه»، أفضت العمة إميلي. «هل سمعت ما قاله لي عندما كنا نحصل على هدايانا؟»

وبلمحة خاطفة من الخال جريج توقفت العمة إميلي: «لماذا، يا دونالد»، صاحت بصوت واضح، «إنك لم تلمس عشاءك تقريبا! ألست جائعا؟»

كان دونالد يرى في مخيلته حجرة النوم في الطابق العلوي حيث كان والده يلوي ذراع والدته ويهزّها بقوة ليجعلها تنظر إليه. وعندما لا تفعل، يعمد إلى لكمها، وطرحها أرضا، وركلها بأقصى ما يستطيع من قوة، في كل جزء من أجزاء جسمها. رفع دونالد بصره إلى أعلى، «ليس إلى حد كبير»، قال.

ومن دون ســابق إنذار شرع السيد جوردون في التحدث، وهو ممســك بكأســه أمامه ويتأمل فيها بينمــا كان يديرها في هذا الاتجاه أو ذاك. «شــجارات العائلة»، قال متنهدا، «نفس الشيء القــديم. إنها تذكرني بفترة صبــاي. عندما أتذكرها في الوقت الراهــن، يخيّل إليّ أننا لم نكن نتم وجبــة حتى نهايتها من دون معركــة، بل من المؤكد أنــه كانت لدينا معركة فــي أي لحظة». ووضع كأسه على المائدة، وأردف قائلا: «حسنا، إنهم الآن ميتون جميعا، شكرا لله».

نظر دونالد بســرعة إلى الســيد جوردون كأنه كان يراه لأول مرة.

«إن الثلج يتساقط!» صرخت الجدة بفخر. «انظر، إنها تمطر ثلجا مرة ثانية. كنت أعرف أننا سنحظى بمزيد من الثلج المتساقط قبل حلول الظلام». لم تكن راغبة في أن يواصل السيد جوردون حديثه. راحت العمة لويزا تنشــج فجأة، ثم نهضت، ومضت إلى داخل المطبخ. وتبعها العم أيفور.

«لمــاذا، يا دونالــد! لقد حصلت على لحــم الصدر!» صاحت العمة إميلي، «كل اللحم وسوف نقوم بتعليقها بعد ذلك فوق الموقد لتجف، وغدا سوف نتمنى عليها أمنية. ألن يكون هذا مبهجا؟»

التقطهــا بأصابعــه وبدأ فــي مضغ قطع اللحــم الأبيض الملتصقة بالصــدر. وعندما انتهى من أكلهــا بعناية، انصرف وخرج بها إلى المطبخ.

كانــت الحجرة هادئــة تماما، وكان إبريق الشــاي يغلي على الموقد. بدا البرد المتساقط خارج النافذة داكنا في مقابل البياض

فـــي الخلفية. كانت العمة لويزا جالســـة على كرســـي بلا ظهر، بشكل منحن، والمنديل في يدها، والعم أيفور مائل فوقها يتحدث معها بصوت منخفض. وضع دونالد عظم الصدر على رف حوض الغســـل وشرع ينســـل إلى الخارج على أطراف قدميه، لكن العم أيفور رآه. «هل تحـــب أن تصـعد معي إلى حظــيرة الدواجــن، يا دونالد؟» قال. «يجب عليّ أن أحصل لنا على دستة من البيض لأعود بها إلى روتلاند».

«ســـوف أحضر معطفي»، أخبـــره دونالد، وهـــو متلهف إلى الخروج قبل أن يعود والده إلى الطابق السفلي.

كان الطريـــق الصاعد إلى التل حيث توجد حظيرة الدواجــن لم يتكـــون بفعل تنظيف الثلج علـــى كلا الجانبين، بل عن طريق الثلج الذي وطئته الأقدام. وكان الثلج المتســـاقط حديثا ينجرف متراكما فوق الطريق، وفي بعض الأماكن كان الثلج قد غطاه بالفعل. عندما دخل العم أيفور إلى حظيرة الدواجن وقف دونالد ساكنا في مكانه، وهو يحني رأسه إلى الخلف ليتمكن من التقاط بعض البرد المتســـاقط إلى داخل فمه. «تعال إلى الداخل وأغلق الباب. سوف تجعل الحرارة تتسرب إلى الخارج»، قال العم أيفور.

«أنا قـــادم»، قال دونالد. ومضى عبر المدخـــل وأغلق الباب. كانـــت الرائحة بالداخل قوية جدا. بينمـــا اقترب العم أيفور من الدجاجات، راحت تطلق غمغمة منخفضة مرتابة.

«قل لي يا دونالد»، قال العم أيفور بينما كان يستكشف القش بيده.

«ماذا؟» تساءل دونالد.

«هــل تجري أمك كثيرا إلى حجرتهــا وتغلق الباب، بالطريقة التي فعلتها الآن توا؟»

«في بعض الأحيان».

«لماذا؟ هل والدك سيئ في معاملته لها؟»

«آه»، قال دونالد بغموض، «إنهما يتعاركان». كان يشــعر بعدم ارتياح.

«نعم. حســنا، إنه لضرر فادح أن يتزوج أبوك. كان من الممكن أن يكون أفضل للجميع لو ظل وحيدا».

«لكــن عندئذ لم أكن لأولد أنا علــى الإطلاق»، صاح دونالد، وهو غير متأكد إن كان العم أيفور جادا أم لا.

«على الأقل لم نكن نأمل في هذا!» قال العم أيفور، وهو يدير عينيه يمينا ويســارا وقد بدا سخيفا. أدرك دونالد الآن أن ذلك كان نوعا مــن الدعابة، فضحك. انفتح البــاب بقوة. «دونالد!» زمجر والده بصوت عال.

«ما هذا؟» قال دونالد، وكان صوته ضعيفا جدا.

«اخرج وتعال إلى هنا!»

مشــى باضطراب وارتباك نحو الباب؛ فقد كان والده يحدق في الداخل بريبة. «ما الذي تفعله عندك في الداخل؟» سأل.

«أساعد العم أيفور في البحث عن البيض».

«همف!» خطا دونالد إلى خارج الحظيرة وأغلق الباب.

راحا يسيران على امتداد الطريق باتجاه مزرعة سيمث سن. فــي الوقت الراهن كان والده يســير خلفه وهو يخزه في ظهره، قائلا: «أبق رأسك منتصبا، وصدرك إلى الخارج! هل ترغب في

أن تصبح شبه أحدب؟ قبل أن تصاب بذلك ستصاب بتقوس في العمود الفقري».

عندما أصبحا على مسافة بعيدة من البيت، في مكان ما حيث أضحت فيه كتل الأشجار الصغيرة تحف بالطريق على كلا الجانبين، توقف والده عن السير. وتطلع إلى ما حوله، ثم انحنى إلى أسفل والتقط حفنة من الثلج المتساقط حديثا، وكورها على هيئة كرة صلبة، ثم ألقى بها على شجرة كبيرة إلى حد ما، على بعد مسافة من الطريق، فتحطمت كرة الجليد، وتركت علامة بيضاء في جذع الشجرة الداكن. «دعنا نرك وأنت تصيبها»، قال لدونالد.

قد يكون هناك ذئب جاثم في هذا المكان في إحدى البقاع خلف الظلمة الساكنة للغابات. كان من المهم جدا عدم التسبب في استثارته. إذا أراد والده المجازفة باستثارة الذئب وإلقاء كرات الثلج في الغابات، فبإمكانه القيام بهذا، لكن دونالد لن يرغب في هذا. فربما يفهم الذئب عندئذ أن دونالد، على الأقل، كان صديقا له.

«هيا»، قال والده.

«لا. أنا لا أرغب في هذا».

قال والده بدهشة متصنعة: «آه، لا ترغب في هذا؟» ثم أصبح وجهه منذرا بالخطر وصوته حادا مثل لسع السوط. «هل ستفعل ما أمرتك به؟»

«لا». كانت المرة الأولى التي يتحداه فيها دونالد علانية. لدرجة أن والده صار شديد الحمرة من الخجل.

«اســتمع لي، أيها التافه الصغير!»، صرخ والده، وكان صوته مفعما بالغضب، «هل تعتقد أنك سوف تفلت بفعلتك هذه؟» قبل أن يدرك دونالد ما كان يحدث، أمسك به والده بيد واحدة بينما انحنــى وبيده الأخــرى حفن من الثلج بقدر ما أمكنه. «ســنقوم بتســوية هذه الأمر البســيط توا»، قال من بين أســنانه، وفجأة راح يمســح الثلج بعنف في وجه دونالد، وفي الوقت نفسه الذي كان فيــه دونالد يلهث وهو يتلوى مــن الألم، كان والده يدفع ما تبقى من الثلج أسفل عنقه وإلى ظهره. عندما شعر دونالد بكتلة الثلج الباردة المبتلة تنزلق على ظهره، انحنى. كانت عيناه مغلقتين بإحــكام؛ وأصبــح على يقين من أن والــده كان يحاول أن يقتله. باندفــاع يائس قفز متحررا من قبضة أبيه فشــعر بنفســه وقد سقط على الأرض ووجهه في الثلج.

«انهض»، قال والده باشــمئزاز. لكــن دونالد لم يتحرك. إذا تمكن من إمساك تنفسه لفترة طويلة قدر الإمكان فقد يموت.

جذبــه والده بعنف وأوقفــه على قدميه. «لقــد ضقت ذرعا بدعاباتك السخيفة»، قال. وأمسك به بإحكام بكلتا يديه، وأجبره على أن يسير متعثرا أمامه، عائدين في ضوء الشفق إلى البيت.

كان دونالد يتقدم في ســيره، وهو ينظر إلى الطريق الأبيض أمامــه، وعقله خال من الأفــكار. كان قد انتابه إحســاس غير مألــوف: بأنه غير آســف على نفســه لكونه قــد أصيب بالبلل والبرودة، أو حتى بالاســتياء لكونه قد أســيئت معاملته. أحس بالانفصال والاستقلالية، وقد كان إحساسا مقبولا ومثيرا حسيا تقبله من دون أن يفهمه أو يسأل عنه.

بينما كانا يتقدمان إلى أسفل الممر الطويل الذي تحفه أشجار القيقب على كلا الجانبين في ضوء الغسق قال والده: «الآن بإمكانك أن تذهب وتبكي في حجر أمك».

«أنا لا أبكي»، قال دونالد بصوت عالٍ، من دون أدنى تعبير من جانبه. ولم يرد والده.

لحسن الحظ أن المطبخ كان خاليا. كان بإمكانه أن يتبين من جلبة الأصوات في الردهة أن العمة لويزا والعم أيفور والسيد جوردون كانوا يستعدون للمغادرة. جرى دونالد إلى الطابق العلوي حيث حجرته وقام بتبديل ملابسه كلها. كان الثقب الذي صنعه بأنفاسه في الثلج المتراكم فوق زجاج النافذة قد تجمد مرة ثانية بشكل أكثر كثافة، لكن العلامة المستديرة كانت ما تزال مرئية حتى الآن. بينما كان قد انتهى لتوه من ارتداء ملابسه نادته والدته. كان الليل قد أظلم تماما في الخارج. هبط إلى الطابق الأسفل. كانت والدته واقفة في مدخل الصالة.

«آه، لقد غيرت ملابسك»، قالت. «تعال إلى الخارج وقل إلى اللقاء إلى العمة لويزا والعم أيفور، إنهما في المطبخ». نظر بسرعة في وجهها ليرى إن كانت هناك علامات خلفتها دموع حديثة. كانت عيناها محتقنتين بالدم قليلا.

مضى مع أمه إلى المطبخ. «دونالد يريد أن يقول لك إلى اللقاء»، قالت للسيد جوردون، وهي تقود دونالد إلى حيث تجلس العمة لويزا. «لقد منحته عيد ميلاد رائعا» - وقد أصبح صوتها محملا بالعتاب - «لكنه كان سعيدا جدا أكثر من اللازم».

كانت الياقة السميكة لمعطف السيد جوردون مرفوعة إلى مستوى أذنيه، وكان مرتديا قفازا من الفراء الفخم. ابتسم ثم صفق بيديه يحدوه الأمل؛ فصدر عنهما صوت خفيض. «آه، لقد كان ممتعا بدرجة كبيرة»، قال. «إنه يذكرني بنفسي قليلا. هل تعرفين، عندما كنت في مثل سنه. كنت من نوعية الصبية الخجولين الهادئين، أيضا». شعر دونالد بأن يدي والدته كانتا تشدان على كتفه بينما كانت تدفعه نحو العمة لويزا. «ممم»، قالت. «حسنا، أيتها العمة لويزا، ثمة شخص يريد أن يقول لك إلى اللقاء».

حتى في غمرة انفعاله وهو يشاهد الخال ويليز والخال جريج وهما يقلان الآخرين في عربة الجليد، لم يكن دونالد غافلا عن حقيقة أن أباه لم يظهر في المطبخ على الإطلاق. عندما تحرّكت عربة الجليد واختفت عن الأنظار في عمق الطريق، دخل الجميع إلى البهو، وعمد الجد إلى وضع كتلة خشب أخرى في النار.

«أين أوين؟» قالت الجدة بصوت منخفض إلى أم دونالد.

«لابد أنه في الطابق العلوي. إذا أردت الحقيقة، أنا لا أعبأ كثيرا أين هو».

«يا لطفلتي المسكينة»، قالت الجدة. «هل خفّ الصداع قليلا؟»

«قليلا»، قالت وهي تتنهد. «لقد تمكن بكل تأكيد من انتزاع كل المتعة من عيد الميلاد عندي».

«شيء مخجل ووضيع»، قالت الجدة.

«لم أنظر إلى وجه أيفور إلاّ الآن فقط، هذا كل ما كان بوسعي أن أفعله. صدقيني، لقد تعمدت هذا».

«أنـــا متأكدة من أنهم جميعا قد تفهموا الموقف»، قالت الجدة بطريقـــة مهدئة وملطفة. «لا تغتاظي في مـــا يتعلق بهذا الأمر. على أي حال، سيرحل أوين غدا، وسوف تنعمين بالراحة».

بعـــد رجوع الخـــال ويليز والخال جريج بوقـــت قصير، هبط والد دونالد إلى الطابق الســـفلي. كان تناول وجبة العشـــاء يتم في صمت كلي مطبق، لم يتحدث والد دونالد إليه على الإطلاق ولم يعطه أي اهتمـــام. وبمجرد انتهاء الوجبة أخذته والدته إلى السرير في الطابق العلوي.

عندما تركته، كان مستلقيا في الظلام وهو ينصت إلى صوت الثلج الرقيق بينما كانت الريح تطوح به في مقابل ألواح الزجاج. كان الذئب هناك في الخـــارج في ظلام الليل، يعدو عبر الطرق التي لم يســـبق لأحد أن رآها، إلى أســـفل التل وعبر المرعى، ثم توقف ليشـــرب من مكان عميق في الجدول حيث لم يكن الجليد قد تشـــكل بعد. كان شـــعر فروته الصلب قد علق به الثلج، فهزّ نفسه وعدا إلى أعلى الضفة حيث كان دونالد جالسا في انتظاره. ثـــم تمدد على الأرض إلى جواره، ووضع رأســـه الثقيل في حجر دونالـــد، فانحنى دونالد فوقه ودفن وجهه في فراء مؤخرة عنقه الأشـــعث. وبعد فترة نهضا كلاهما وشرعا في العدو معا، أسرع فأسرع، عبر الحقول.

تابياما

كان النهــر يقع خلف الفندق مباشــرة. لو كان يأتي من أرض بعيدة جدا لكان ســيصبح عريضا وســاكنا، لكــن لأنه كان في الحقيقة مجــرد قناة وحيدة تمتلئ بمياه الأمطــار، وكان قاعها تكثــر فيه الصخــور الضخمة، فقد كان يصــدر ضوضاء هادرة جعلــت المصور يخطئ فيظن أنها مزيد من هطول الأمطار خارج الفندق. أصابته الرحلة والحرارة بالتعب، كان قد تناول الســمك المقلي البارد وعجة البيض (الأومليت) الذي نزّ مادته الشــحمية التي قلي بهــا وكان صعب المضغ، ومعجون الفول البني مع الأرز والموز المشوي، وكانت قد استبدت به فجأة رغبة قوية في النعاس كالتــي تنجم عن تناول مخــدر. وهو يترنح إلى ســريره، تحرر بســرعة من قميصه وبنطلونه، ورفع شــبكة الناموسية المتيبسة التي بعثت برائحة الغبار، وسقط كالحجر على المرتبة، لم يلحظ عدم ليونتها إلا قبل أن يغط في النوم.

لكنه عندما استيقظ في أثناء الليل أدرك أنه كان ينام بطريقة خاطئة سببت له عسر هضم، قال لنفسه وهو يحدق في الظلام فوق رأســه إنه كان من الصعــب أن يجد طريقه إلى الراحة مرة أخرى. وفي ذاك الوقت أصبح على دراية بثبات الصوت الخلفي لليل، الذي كان يحســبه بســبب المطر. من وقت إلى آخر، على مســافة بعيدة فوق رأسه (كيف يمكن للسقف أن يكون على هذا الارتفاع؟) كان الضوء الضعيف غير المســتقر لوميض حشــرات الليل يصــدر شــيفرته غــير المفهــومــة للحــظة أو لحظــتين.

كان مســتلقيا على ظهره، شيء ما صغير كان يزحف إلى أسفل صــدره. وضع يده هنــاك، كانت قطرة عــرق تتحرك في بطء. كانت الملاءة الخشــنة القاسية مبتلة تحته. أراد أن يتحرك، لكن إذا تحرك بالفعل فلن تكون هناك نهاية للتحرك، وســيصبح كل مكان جديد يتحرك إليه غير مريح بشــكل أكثر من السابق. كان شخص ما في ظلمة الغرفة المجهولة المجاورة يسعل من وقت إلى آخــر، ولم يكن بإمكانه أن يحــدد إن كان رجلا أو امرأة. الوجبة التــي كان قد تناولها لم تزل باقية في معدته مثقلة إياها وكأنها عشر وجبات. وبشكل بطيء كانت ذكرى الوجبة تزحف في رعب غامض، بصفة خاصــة الأومليت البارد الثقيــل الذي كان يلمع بالشحم.

كان الاستلقاء هناك واستنشاق الغبار من شبكة الناموسية يشبه حبس المرء داخل جوال من الخيش. كان الخروج إلى الشارع والنزهة هو مــا أراده، لكن كانت هناك صعوبات. فقد أخبره الرجل العجوز الــذي يدير الفندق أن الكهرباء تنقطع في منتصف الليل. وبدلا من أن يضــع أعواد الثقاب تحت وســادته تركها في جيب بنطلونه، ولم ترق له فكرة ســيره على الأرضية حافــي القدمين من دون مصدر ضــوء. بالإضافة إلى ذلك، ذكّر نفســه، وهو ينصــت مرة ثانية إلى الهدير البعيد الهائل والغريب هناك في الخارج، أن الســماء تمطر. لكن الحركة على امتداد الشوارع، الصامتة والخالية تماما في الوقت نفســه، حتى لو كانت تحت المطر غير المرئي، ســتكون ممتعة... إذا بقي مســتلقيا في سكون تام، فربما يعاوده النوم. وفي النهاية اتخذ قراره، في غمرة اليأس أبعد الشبكة جانبا في قوة وقفز من السرير،

وعبر الحجرة باتجاه الكرسي الذي كان قد ألقى عليه ملابسه.

تمكــن من ارتداء قميصــه وبنطلونه مســتخدما ثلاثة أعواد ثقاب فقــط، طرق حذائه فوق الأرضية الخرســانية عدة مرات في الظلام، ليسقط منه أم أربعة وأربعين أو أي عقرب يحتمل أن يكون قد تســلل داخله. ثم أشــعل عود الثقاب الرابع وفتح الباب المؤدي إلى الفناء. لم تكن الظلمة حالكة في الفناء في ذلك الوقت. كانــت أصص النباتات الضخمة مرئية في ضوء الليل الشــاحب الرصاصي اللون، لكن الســماء، المختنقة بسحابة لا يمكن لضوء النجوم أن يخترقها، بدت غيــر موجودة هناك على الإطلاق. لم يكن هناك مطر. «لابد أن النهر قريب جدا»، فكر المصور.

ســار بطول الممر المســقوف، وهــو يحتك بأطــراف نباتات الأوركيد التي تدلت من السلال والجرار الموضوعة على الأفاريز، ويصطدم بقطع الأثــاث المصنوعة من القش المضفر، حتى وجد باب المدخل، وكان مغلقا برتاج (ترباس) مزدوج. سحب الرتاجين المعدنيين بعناية وســحب الباب فاتحا إياه، ثم أغلقه خلفه. كان ظلام الشــارع عميقــا مثل ظلام الفناء، والهواء لا يزال ســاكنا مثلمــا كان تحت الناموســية. لكن كانت له رائحــة غير محددة لنباتات خضراء، رائحة حلوة للاكتمال التام والاستنفاد.

انعطف إلى اليسار، في اتجاه الشارع الرئيس الطويل الخالي الــذي اصطفــت على جانبيه مبــان ذات طابق واحــد، والمؤدى مباشرة إلى أسفل حيث الممشى الجانبي المخصص للسير(*) على امتــداد البحر. وبينما كان يتقدم في ســيره، أصبح هواء المنازل

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

الساخن الساكن محملا بالرائحة المنعشة النقية للطحالب والأعشاب التي على الشاطئ. كان يضطر عند تقاطع كل شارع إلى النزول ست درجات إلى مستوى الطريق الرئيس، ثم يجتازه، وبعد ذلك يصعد مرة ثانية إلى المشى الجانبي على الرصيف. في موسم المطر، كما أخبره مالك الفندق(*)، يوجد هناك زورق عند كل ناصية لنقل المارة من جانب إلى آخر. مثل الامتزاج بين روائح الأرض والبحر التي كان يتنفسها، كان قد استحوذ عليه إحساسان متعارضان لكنهما متقاطعان ومتشابكان في الوقت نفسه: الراحة التي تصل حد السرور تقريبا، وإحساس خافت بالغثيان الذي قرر أن يقاومه بقوة لأنه أحس بأن عدم القدرة على ترك كل إيحاء بالمرض خلف ظهره كان يعني النقص في قوته. حاول أن يضخ المزيد من الحيوية والنشاط في سيره، لكنه اكتشف على الفور تقريبا أن الجو كان ساخنا جدا للقيام بأقل قدر ممكن من المجهود. كان غارقا تماما في عرقه أكثر مما كان عليه في سريره. أشعل سيجارة من نوع أوفالادو. كان المذاق الحلو للتبغ جزءا من الليل.

كان المشى الجانبي الذي يحد الجبهة البحرية طوله نصف ميل تقريبا. تصور أنه ستكون هناك حركة طفيفة جدا للهواء في ذلك المكان، لكنه لم يشعر بأي اختلاف. ومع ذلك، فقد كان هناك من وقت إلى آخر صوت حميم هادئ لموج يتكسر برفق فوق الرمل في الأسفل مباشرة. جلس على السور المنخفض واستراح، على أمل أن يحظى بقليل من البرودة. لم يكن من الممكن رؤية

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

البحـــر. كان بإمكانه الجلوس فوق قمة جبل مغطى بالســحب، والظلام من أمامه كان ســيصبح بلا شكل محدد ويكتنف جميع الجهــات. لم تكن لضوضاء البحر العارضة أي عمق في داخلها، مثلما كان لأصوات البحر، التي كانت تحدث كأنها في فناء مغلق شــديد الاتساع. كان البلاط الخرساني الذي يجلس عليه رطبا، وباردا قليلا بالمقارنة بحرارة جســمه هو. أشــعل سيجارتين ثم أرهف ســمعه لسماع صوت ما، صادر بطريقة غير مباشرة، عن عنصر بشري. لكن لم يكن هناك أكثر من الانزلاق المتقطع للمياه وامتصاصها الكســول في الأســفل على الشــاطئ. ألقى بنظرة سريعة في جميع أنحاء الممشى الجانبي الخالي، كان هناك ضوء بعيد على امتداد الشــاطئ في اتجاه الغرب، كان ضوءا برتقاليا، يلمع بشــكل متذبذب: هل هي نار مشتعلة؟ استأنف السير ببطء أكثر من ذي قبل، وكان اللهب البعيد أمامه مباشــرة هو النقطة الوحيدة المضيئة في المنظر كله.

كانت هناك مجموعة درجات عريضة لســلم حجري تفضي إلى الشاطئ. وبعدها مباشرة، أمكنه رؤية الهيكل الخفيف الفارغ لرصيف بحري على شــكل لســان بُني فوق المياه. وقف ثابتا في مكانه وراح ينصــت. بدا المس الرفيق المتقطع للأمواج الصغيرة حول الدعامات كما لو أنه كان يحدث في غرفة التسجيلات بصدى الصوت.

جــرى بخفة هابطا الدرجات ومر من أســفل اللســان. كان الســير على الرمل بالتأكيــد يبعث على البــرودة أكثر مما في الممشـــى الجانبي. وشعر في ذلك الوقت بأنه أكثر يقظة عن ذي قبل، فقرر أن يرى مدى الاقتراب الذي ســيصل إليه من مصدر

الضوء في العمق سـيرا على الشاطئ في غضون خمس عشرة دقيقة. كانت سـرطانات البحر الملونة بتأثير الليل تسـرع على امتداد الرمل أمامه مباشرة، في صمت تام وغير مرئية تقريبا، قبل أن يطـأ الرمل بقدميه. بينما بعد نهاية المشـى الجانبي بقليل تراجع الرمل وأفسح مكانا لسطح مرجاني صلب كان من السهل السـير فوقه. وبدافع من الحرص حافظ على قربه من حافة الماء قدر الإمكان.

كان هنـاك اختلاف كبير بين هذا السـير والنزهات الأخرى التي كان قد قام بها في منتصف الليل قبل ذلك، وشعر بميل لأن يتسـاءل عن السـبب الذي جعل هذا السير ممتعا ولطيفا جدا. ربما كان مسـتمتعا ببسـاطة لأن الجو العام هنا كان من الحرية الخالصـة، كان غيـر مُقيد بالمرة. لم يكن يبحث عن أي شـيء، وجميع الكاميرات كانت في حجرته بالفندق.

بـين الفينة والأخـرى كان يرفع عينيه عن الأشـكال الباهتة للمرجان الذي تحت قدميه، الشـبيهة إلى حد كبير بالمخ البشري وينظر نحو اليابسة، ليرى إن كان بوسعه تبين أي علامات تدل على وجود مساكن. بدا له أنه قد تكون هناك كثبان رملية على مسافة بضـع مئات من الأقدام إلى الوراء، لكن في غياب الضوء كان من المسـتحيل حتى التأكد من هذا إلى حد بعيد. كان العرق يسـيل إلى أسفل عموده الفقري حتى عصعصه، وينزلق بين ردفيه. ربما تكون فكرة التجرد تماما من ملابسـه أفضل، لكن عندئذ ستكون هناك مضايقة ناجمة عن حمله لملابسه، وهو يريد أن تبقى يداه حرتين، حتى لو كانت هناك خطورة في الإصابة بالتقرح.

كانت مســألة الحرية محكومة بقانون تناقص الغلة(*)، هكذا قال لنفسه، وهو يسير بشكل أسرع. إذا مضيت إلى نقطة معينة أبعد من شدة إحساسك بالرغبة في الحرية، فأنت بذلك تضمن عدم بلوغها. على أي حال، فكر المصور وتســاءل ما الحرية في التحليل النهائي، أكثر من كونها مسألة موجودة بشكل كلي، بدلا من وجودها بشــكل جزئي، فهي متوقفة على ســطوة الاحتمال والمصادفة؟

لم يكن ثمة شــك في أن هذا الســير كان يبدد التأثير الضار لعســر الهضم الذي ألم به. ينبغي عليه الوصــول إلى المكان أو النقطة في غضون ثلاث دقائق، كما يشير عقرب الدقائق المضيء في ساعته، وقد بدا الضوء البرتقالي في المقدمة أصغر مما كان عليه من البلدة. لماذا خمس عشرة دقيقة تحديدا؟ ابتسم للنمط المدني المحدد الــذي تحرك فيه عقله بطريقــة تلقائية، لو رفع ذراعه لأمكنه ملامسة السماء، ستكون رطبة، ودافئة وطرية على نحو حسي مثير.

والآن على مسافة إلى الأمام، في اتجاه اليابسة، سمع أصواتا تعــرف عليها من فوره حيث كانت أصــوات المئات من الضفادع الصغيــرة. كان الضوء، بعدما تفحصه جيــدا، يتحرك بطريقة غريبــة، إلى أعلى وإلى أســفل في رفق، ويمينا ويســارا أيضا، لكــن من دون أن يبدو عليه تغيير في مكانه. فجأة أصبح الضوء لهبا كبيرا يقذف بقوة إلى أعلى مجموعات متلاحقة من الشرار الأحمــر المتطاير، ففهم أنــه قد وصل. كانت النــار تحترق في

(*) قانون تناقص الغلة: قانون يقول إن زيادة العمل أو رأس المال إلى أبعد من نقطة معينة لا يترتب عليها زيادة مناسبة في الإنتاج [المترجم].

أرضيـــة زورق يتأرجح برفق أمامه، لا يبعـــد أكثر من مائة قدم. كان يقـــف فوقه رجل عار تماما، وهو يقذف فيه بأفرع أشـــجار النخيل. توقف المصور عن الســـير وأنصت لعله يســـمع أصواتا بشرية، لكن كورس الضفادع السعيدة كان يملأ الهواء.

سار إلى الأمام عدة خطوات وقرر أن ينادي عليه، بالإسبانية «مرحبا!» اســـتدار الرجل فـــي الاتجاه المعاكس، ثـــم قفز إلى الجانب القريـــب من الزورق (كان الماء ضحـــلا إلى حد بعيد) وجاء يجري إليه.

ومن دون أن يرد على تحيته، ربما اعتبرها صادرة عن شخص آخـــر غيره، قال الرجل بالإســـبانية: «تابيامـــا؟ هل تود الذهاب إلـــى تابياما؟» لم يســـبق للمصور من قبل أن ســـمع عن تابياما، لذلك تلجلج قليلا وفي النهاية قال بالإســـبانية، «نعم»، وعندئذ أمسك الآخر بذراعه وجذبه إلى حافة المياه. «الجزر على وشك الانتهاء، سنمضي في غضون دقيقة».

كان بوســـعه رؤية شـــخصين آخرين في الزورق، راقدين على الأرضيـــة، في الجانبين بجوار النـــار، وبعيدين عن حرارتها قدر الإمكان. جلس المصور القرفصاء وخلع حذاءه وجوربه، ثم خاض في المياه إلى حيث الزورق. عندما وقف في منتصفه، وكانت النار لا تزال تطقطق في تألق وســـطوع، استدار وراقب الرجل العاري وهو يفك الحبل الذي كان يمسك بالزورق في مكانه.

«إن الأمر برمته غير معقول». لم يكن بوسعه سوى الارتياب فـــي تلك الطبيعية الشـــديدة التـــي كان يحدث بهـــا كل هذا: اللامبالاة التي قوبل بها وصولـــه المفاجئ من جانب الراكبين،

وربما حتى ما هو أكثر من ذلك، هذا التوقع والاستعداد المثير للريبة إلى درجة كبيرة من جانب صاحب الزورق للتحرك في الحال عقب وصوله مباشرة. قال لنفسه، «لا تحدث الأمور بهذه الطريقة»، لكن نظرا إلى أنها من دون شك كانت تحدث بهذه الطريقة، فإن أي سؤال عن الكيفية يمكن أن يؤدي فقط إلى طريق الإصابة بالبارانويا. هبط إلى أرضية القارب وأخرج علبة الأوفالادو. المراكبي العاري، الذي كان قد لف الحبل المبتل حول ساعده الأسود مثل إسورة، قفز على متن الزورق، ودفع بمقدمة إصبع قدمه الكبير أحد الراكبين المستلقين الذي تحرك بدوره، ونهض على ركبتيه، وألقى بنظرة انزعاج وضيق خاطفة وسأل: «أين هو؟»، من دون أن يجيبه ناوله صاحب الزورق أقصر صاري في الصاريين اللذين كانا موضوعين بطول حافة الزورق. بدآ معا في دفع الزورق على امتداد السطح غير المرئي للمياه. كانت الأنشودة الصادرة عن الضفادع وضوء النار الساطع تملأ الليل.

بعد إجابته بـ «نعم» عن السؤال الخاص بتابياما، شعر المصور بأنه ليس بمقدوره تقريبا القيام بخطوة تراجعية والسؤال «ما تابياما؟» أو «أين تقع تابياما؟» ولذلك، بقدر ما كان يود أن يعرف، بقدر ما قرر الانتظار. هذا المسطح المائي الضحل تحتهم، مصب أم بحيرة ضحلة قريبة من البحر أو متصلة به؟ الاحتمال الأكبر أنه نهر، بما أن صاحب الزورق قال إن الجزر كان قد انتهى. لكنه لم يكن هو الجدول نفسه الذي كان قد سمع مرور مياهه المزعجة بين الصخور وهو في سريره.

كانوا يواصلون دفع الزورق من وقت إلى آخر. ويشقون طريقهم تحـت كتل النباتات العالية حيث كان نقيق الضفادع يغطيه لفترة وجيزة صوت آخر، غامض ووحشي، يشبه التمزيق المفاجئ لملاءة كبيـرة من الكتان القوي. بين الحين والآخر كان شـيء ما صلب وثقيل يرتطم بسـطح المياه في الجوار، كما لو أن رجلا يسـقط في المياه. وأحيانا بشـكل عرضي كان الراكب الآخر يرفع نفسه مستندا على مرفقه ومن دون مجهود كبير يتمكن من إنعاش النار التي كانت تذوي، مستعينا بألياف نخيل أخرى جافة.

ربما انقضى أقل من ساعة قبل أن يصلوا إلى منطقة التوقف والرسـو في الطين. وثب الراكبان الآخران إلى الخارج وأسرعا بعيدا في الظلام. بعدما ارتدى صاحب الزورق سـروالا قصيرا، ضـرب برفق ذراع المصور وطلب منه سـتين سـنتافو. فأعطاه خمسة وسبعين وتسلق بجهد إلى خارج الزورق في الطين الناعم، وحذاؤه في يده.

«انتظر لحظة»، قال الرجل. سآتي معك. كان المصور مسرورا. عندما انتهى المراكبي - الذي بدا ذا بشرة أكثر سمرة في سرواله الأبيض القصير - من تثبيت الزورق إلى جذع شـجرة مغروسة في الطين، تقدم كتلة من الشـجيرات، وقال بشكل عرضي: «هل سترجع غدا إلى الجانب الآخر؟»

«الجانب الآخر؟ لا».

«ألست هنا بغرض المرافقة؟». كان الصوت يوحي بأن الوجود هنا لغرض آخر غير المرافقة، ما أدى إلى ارتياب في الشـخص من جميع النواحي.

حان الوقت لكي يكون صادقا، كان خائفا، على الرغم من أنه لم يستمتع بالوضع الذي عرف أنه سيضع نفسه فيه. «لم يسبق لي أن ســمعت عــن المرافقة»، قال. «لقد وصلــت الليلة إلى ريو مارتيلو. أي نوع من المرافقة؟»

«النوع الحلو»، قال الآخر. ثم وقف ســاكنا في الظلام وتكلم ببــطء قائلا: «إذن(*) لماذا جئت إلــى تابياما؟ إنهم لا يحبون هنا أصحــاب الملايين(* *)، هل تعرف». فهــم أن هذا كان مصطلحا ســاحليا ســاخطا مخصصا للأمريكيين، فكذب المصور بسرعة قائلا: «أنا دانماركي»، لكنه أحس أن صوته كان يفتقر إلى الإقناع فأضاف على الفور: «هل ســنخوض في المزيد من الطين، أم أن بإمكاني ارتداء حذائي؟»

شرع الرجل في السير مرة ثانية وهو يقول ملتفتا إلى الخلف: «اغســل قدميك في الحانة إذا أحببــت». وخلال دقيقة كانا قد وصلا إلى هناك، كان المكان كله يلفه ظلام مفتوح، وبه مجموعة مــن الأكواخ المصنوعة من جريد وســعف النخيل في طرف منه، وفــي الطرف الآخر رصيف تحميل بحــري على الأرجح، وكانت الحانة، الواقعة بين فــراغ الليل والمياه المفتوحة من خلفها، وفي المنتصف بين الرصيف ومجموعة المساكن، مجرد كوخ كبير جدا من دون حائط أمامي.

كان هناك ضــوء خافت يأتي من الداخل، ولم يكن هناك من صوت ســوى صوت الضفــادع في جميع الجهــات، والاحتكاك الخشن المهتاج بين الفينة والأخرى في الأفرع عاليا. «لماذا المكان

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

(* *) وردت بالإسبانية [المترجم].

مفتوح حتى هذه الساعة؟» سأل المصور. توقف المراكبي في وسط المنطقة الخالية وضبط سرواله بسرعة. ثم قال: «يفتحه دون أوكتافيو من السادسة صباحا حتى السادسة مساء. ويديره أخوه من السادسة مساء حتى السادسة صباحا. فالشركة تصرف الرجال من العمل في ساعات مختلفة، وهم يأتون إلى هنا بأجورهم(*) لينفقوها. إنهم يفضلون المكان هنا عن البيت، فلا يوجد هنا الكثير من البعوض». كان خيال المصور هو الذي جعل صوت الرجل يبدو ساخرا بينما كان ينطق بالكلمات الأخيرة. واصلا سيرهما عبر الخلاء ثم خطوا إلى داخل الحانة.

لم تكن هناك أرضية، فقد كانت الأرض مغطاة بالرمل الأبيض. وركبت طاولة (كاونتر) من ألواح الخشب بشكل مائل بطول أحد الأركان البعيدة. في المكان مصباح زيتي يحترق وينفث دخانه ورجلان واقفان يتناولان الشراب. كانت صناديق التعبئة الخشبية مبعثرة هنا وهناك، بعضها مرصوص في المؤخرة وفوقها زجاجات بيرة فارغة، وهناك صناديق أخرى إلى جانبها، لاستخدامها كمقاعد. «المكان هادئ تماما وكئيب»، علق المراكبي بالإسبانية، وهو يلقي نظرة سريعة في أرجاء المكان. ثم مضى إلى خلف البار واختفى عبر باب صغير هناك في الحائط. بخلاف الرجلين الواقفين، اللذين توقفا عن التحدث ويحدقان في المصور، لم يكن ثمة أحد آخر في المكان. قال لنفسه «عندما ترتاب أو تشك في الأمر، تحدث»، ثم تقدم نحوهما، على الرغم من أنه قد خطر له أيضا أن ما ينبغي عليه فعله فقط هو،

(*) وردت بالإسبانية - [المترجم]

«عندما ترتاب أو تشك، اصمت»، حتى أنه عندما فتح فمه ليقول بالإسبانية: «ليلة طيبة»، لم تتغير تعبيراتهما بأي طريقة كان في إمكانه تبينها. استمرا في التحديق فيه ثلاث ثوان كاملة قبل أن يردا عليه، وهو ما فعلاه معا في الوقت نفسه تقريبا. لاحظ أنه لم يكن هناك شيء مشترك بين هذين الاثنين: فأحدهما جندي يرتدي زيا رسميا، صبي هندي ربما في الثامنة عشرة، والآخر الذي يبدو عليه التعب خلاسي مدني غير محدد العمر. أو ربما - خطرت إليه الفكرة بينما كان يضع مرفقه على البار بحركة تنم عن عدم الاكتراث - على الأقل تولد بينهما تنافر مشترك، بعد دخوله إلى الحانة. «آه، حسنا، إنني حافي القدمين وحذائي مغطى بالطين»، فكر «هل يوجد أحد هنا؟» قال بصوت عال بالإسبانية وهو مستند إلى الحائط المصنوع من ألياف النخيل. لم يستأنف الاثنان محادثتهما وأيضا لم يمضيا معه في الحديث أكثر من هذا، وهو لم يدر رأسه نحوهما مرة ثانية. وفي تلك اللحظة انفتح الباب الصغير واندفع عبره رجل بدين. وقف ويداه ممدودتان على البار، وحاجباه مرفوعان في توقع انتظارا لما سيطلبه. «سآخذ كمبيامبا»، قال المصور، متذكرا اسم المشروب المفضل لدى سكان المنطقة الساحلية، وهو كوكتيل من أعشاب مشهور بآثاره الغادرة.

كان المشروب كريه الطعم لكنه قوي. بدت الكأس الثانية أفضل. مشى المصور إلى الجانب المفتوح من الحانة وجلس فوق صندوق تعبئة، وتطلع إلى الليل الهلامي الذي لا شكل له. كان الاثنان عند البار يتكلمان مرة ثانية بنبرات منخفضة. لم تنقض

فترة طويلة قبل أن يظهر خمســة رجال من نهاية الرصيف في الخلاء، وانتشروا من دون نظام ووقفوا على البار، وهم يضحكون بينما كانوا ينتظرون مشــروباتهم. كانوا كلهم ذوي بشرة سوداء، ويرتدون الســراويل فقط، مثل المراكبي. حضرت الآن فتاة ذات أســنان ذهبية عبر الباب الصغير الموجود خلف البار وانضمت إليهــم. لكنها أدركت على الفور أن المصور كان جالســا بمفرده، فســلكت طريقها نحوه عبر المكان المفتــوح. عندما وصلت إليه، جلســت القرفصاء بجانبه ثم ابتســمت ابتسامة عريضة. كانت الضوضاء الناجمة عن الضحكات عند البار غير كافية للتغطية على صوتها الرفيع، الذي جاء حادا ومشحونا بالغضب: «يا لك من خشــن فظ! بينديجو!»(*). ورجعت مرة ثانية إلى البار وقدم أحد العمال البيرة لها. على الرغم من أن المصور لم يكن متعمدا ركلها، فإنه لم يشعر بأي أسف على الشكل الذي اتخذه الحادث. بدا أن كأســي الكمبيامبا قد بدأ تأثيرهما، فقد بدأ يشعر بأنه على ما يرام جدا. ظل جالسا برهة، وهو ينقر بأطراف أصابعه إيقاعــات على جانب كوبه الفارغ. بعــد فترة وجيزة حضر إلى الحانة عمال زنــوج آخرون وانضموا إلــى الآخرين عند البار. كان أحدهم يحمل جيتارا وجلس ليعزف عليه قطعة موســيقية صغيــرة من موســيقى وترية على أنغام لحن فشــل في عزفه. وعلــى الرغم مــن أن الموســيقى كانت من النوع الــرديء، فإن الجميع كانوا مســرورين بها. من المحتمل أن الصوت قد تسبب في إيقاظ كلاب القرية، فقد بدأت في إطلاق «كورس» غاضب

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

مـن النباح، وكان هذا النباح مسـموعا بصفـة خاصة للمصور الذي كان جالسـا في المدخل، وقد تسبب في إصابته بالضيق. نهض وانتقل إلى صندوق فارغ بجانب الحائط المقابل، مسـندا رأسـه إلى عمود خشبي خشن كان دعامة من دعامات السقف. على مسافة قدم أو نحو ذلك فوق رأسه مباشرة كان هناك شيء ما غريب مدلى من مسـمار. من وقت إلى آخر كان يدير عينيه إلى أعلى ويتفحصه.

فجأة قفز المصور واقفا وبدأ ينظف ظهر رقبته ورأسـه. كان العمـود من خلفه يعج بالنمـل الصغيـر، آلاف وراء آلاف: كان شـخص ما قد علق أفعى مرجانية مغضنة على المسـمار، وقد جاء النمـل لأكل لحمـها. اسـتغرق الأمر منه فـترة طويلة كـي لا يشعر بمزيد من الحشرات تجري فوق ظهره، وفي تلك الأثناء حضر شخصان آخران إلى الحانة، لم يلحظ إن كانا قد قدما من الخارج أو عبر الباب الواقع خلف الطاولة، وجلسا بينه وبين البار بطريقة جعلتهما يجلسـان في مواجهته. بدا الرجل العجوز من أبناء الشـمال الاسـكندنافي، ومن الممكن أن يكون الولد البريء الذي معه ذو السـاق الواحدة إسبانيا، كان الرجل العجوز يحكي للولـد قصة طريفة، وهـو يميل تجاهه باهتمـام كبير، كان بين الحين والآخر يوخز ذراع الولد بسبابته ليلفت انتباهه إلى إحدى النقاط، لكن الولد كان شارد الفكر تماما وكان يصنع على الرمل تصميمات بطرف عكازه.

نهض المصور، لم يسـبق له من قبـل أن انتابه مثل هذا الأثر من جراء كأسـين. «إحسـاس غريب جدا»، قال لنفسه، «غريب

جدا»، قال مكررا جهرا لكن في صوت هامس بينما كان متوجها نحو البار لطلب كأس أخرى. لم يكن إحساسه بالسكر شديدا إلى درجة أن يصبح شخصا آخر وليس هو ذاته، شخصا ما كان العيش وممارسة الحياة في نظره شيئا شديد الاختلاف عما كان يعتقد أنهما عليه، وهذا الشخص الذي ترك غريبا في منطقة إحساس بعيدة عن أي إحساس عرفه من قبل. لم تكن الحالة بغيضة: فقط كانت غير محددة وغير قابلة للتحديد. «ديسبينسيم»، قال بالإسبانية للزنجي الطويل المرتدي طاقما من ماركة «بي في دي أس» مخططا بألوان قرنفلية وبيضاء ثم أعطى كأسه الفارغة إلى عامل البار البدين. أراد أن يرى ما الذي كان يدخل في تركيب الكمبيامبا، لكن عامل البار فعل كل شيء بسرعة تحت الكاونتر وأعاد إليه الكأس ممتلئة بعض الشيء بخليط الرغوة الوفيرة. تناول منها جرعة جيدة ملء فمه ثم وضع الكأس على الكاونتر، بينما كان يستدير قليلا إلى جهة اليمين. كان الجندي الهندي واقفا إلى جواره، وفي الزاوية العلوية من قبعته وجه أمامي لأحد سكان أمريكا الأصليين. «لماذا يضع الجيش مثل هذه الحافة الأمامية الكبيرة في القبعات؟» تساءل المصور متعجبا بينه وبين نفسه.

رأى أن الجندي كان على وشك التحدث. «أيا كان ما سيقوله فسيتضح أنه إهانة»، قال لنفسه محذرا، على أمل أن يساعده هذا على تجنب الغضب المحتمل الوقوع في ما بعد.

«هل تحب هذا المكان؟» قال الجندي، وكان صوته رقيقا ناعما.

«نعم، إنه لطيف(*). نعم، أحبه».

«لمـــاذا؟» أصبحت الـــكلاب في الخارج أكثر قربـــا، وكان في إمكانه في ذلك الوقت سماع نباحها الذي غطى على الضحك.

«هـــل في مقدورك أن تخبرني لماذا يعلقون ذلك الثعبان الميت على الحائط هناك؟» وجد نفسه يسأل، وافترض أن السؤال كان بدافع منه لتغيير الموضوع.

لكن الجندي كان على وشـــك أن يصبح أكثر ضجرا مما كان يخشى هو.

«سألتك لماذا تحب هذه الحانة، واصل حديثك»، قال مُصرا.

«وأنا قلت لك إنها لطيفة، ألا يكفي هذا؟»

أمـــال الجنـــدي رأســـه إلـــى الخلف ورمقـــه بنظـــرة ازدراء واستخفاف.

«أكثـــر مما يكفي»، أجـــاب بطريقة متحذلقـــة، وبتعبير مثير للاستياء.

عاد المصور إلى شـــرابه، التقطه، وانتهى منه ببطء. ثم أخرج ســـجائره وعرض واحدة على الآخر. بتأن مبالغ فيه مد الجندي يده وأخذ السيجارة، وبدأ يطرقها على الكاونتر. الرجل الذي كان يعـــزف على الجيتار بدأ أخيرا فـــي الغناء بصوت منخفض على مقربـــة منه، لكن معظم الكلمات كانـــت باللهجة المحلية التي لم يكن في استطاعة المصور أن يفهمها. عندما أشعل السيجارتين، وجد نفسه يتساءل من الذي أشعلهما - هو أم الجندي؟

«من أين أنت بالضبط؟» سأل الجندي.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

لـــم يكن منزعجا من الرد، لكن الجندي أســـاء حتى فهم هذا الموقف، وقال «بوســـعي أن أرى أنك تختلق شـــيئا ما»، ثم أردف، «وأنا لا أرغب في سماعه».

«آاااه»، صـــاح المصور بقوة من فرط اشـــمئزازه، وطلب كأس كمبيامبا أخرى. أحدثت هذه الكأس التي تناولها الآن شـــيئا ما غير عادي فيه: فقد شعر بأنه أصبح محددا جدا، رفيعا وصلبا، شـــيئا مصنوعا من المينا أو مادة ما مشابهة لها، شيئا ما بخلاف كونه كائنا حيا، لكنه مع ذلك كان واعيا بشدة. «أربع كؤوس يجب أن تحدث الأثر المطلوب»، فكر.

كانت الكأس الفارغة في يده، وكان عامل البار البدين يحدق فيه، وفي تلك اللحظة لم تكن عنده أدنى فكرة إن كان قد شرب بالفعـــل الكأس الرابعة أو أنه كان فقط في اللحظة التي أعقبت طلبه لها. أحس بنفســـه يضحك، لكنه لم يكن قادرا على ســـماع مـــا إن كان للضحك صوت ظاهر أم لا. ضايقه الثعبان المتغضن الغاص في النمل بعض الشيء عندما لمحه، وكان المصور في تلك اللحظـــة واعيا برائحته، لم يكن متأكدا من أنها قد اختفت حتى ذلك الحين. هنا عند البار كان مصباح الكيروسين يدخّن بشدة، ودخانه القوي أصاب المصور بالاختناق. «شكرا للرب»، أسرّ إلى عامل البار بالإسبانية، وهو يناوله الكأس.

نهـــض الرجل العجوز الذي كان يجلس على الصندوق خلفهم وحضـــر إلى البـــار بطريقة مبهمة. «من أين جـــاء هذا الرجل؟» قـــال المصور، وهو يضحك معتذرا، ثم نظـــر إلى الكأس الممتلئة في يده. كانت الكلاب المســـعورة بالخارج تنبح وتعوي في الخلاء

بصوت مثير للغيظ. «لماذا لا تتخلصون من هذه الكلاب؟» سـأل بالإسبانية مستفسرا في الجندي.

كان الرجل العجوز يقف بجانبهم، وشـرع في التحدث قائلا: «مرحبا، يا صاح، أنا لا أقصد مقاطعة الحديث أو ما إلى ذلك». كان أصلع لوحت الشـمس بشـرته، وكان يرتدي قميصا شبكيا خاصـا بالصيادين. وقد ظهرت التجاعيـد بين ضلوعه كظلال متوازية، وكانت كتل الشعر الرمادي الأشعث تبرز إلى الخارج من بين فتحات القميص الشـبكية. وكان يرسم على شفتيه ابتسامة عريضـة، أظهرت لثته البيضاء العاريـة. أصبح موقف الجندي بـاردا أكثر من الـلازم، فقـد كان يحدق في الوافـد الجديد، والكراهية الواضحة في عينيه، وينفث دخان سيجارته برفق في وجه الرجل العجوز.

«أنت من ميلووكي(*)؟ تفضل بالجلوس معنا».

«دقيقة واحدة، شكرا»، قال المصور.

«دقيقة واحدة؟» ردد الرجل العجوز بطريقة متشككة، وهو يمرر يده على رأسه. ثم نادى بالإسبانية على الولد ذي الساق الواحدة. كان المصـور يفكر: «لن يمر هذا بسـلام، علـى الإطلاق. إنه لن يمر بسـلام أبدا». تمنى أن يتوقف الزنجي عـن الغناء والكلاب عن النباح. نظر إلى الكأس في يده، كانت ممتلئة بما يشـبه رغوة الصابون. خبط أحدهم على كتفه. «اسمع يا صاح، سأسدي إليك نصيحـة صغيرة». كان الرجل العجوز مـرة ثانية. وواصل قائلا: «هنـاك مال في هذا البلد إذا عرفت أين تجده. لكن الرجل الذي

(*) ميناء جنوب غرب ويسكنسن، على بحيرة ميشغان [المترجم].

يعثر عليه هو الذي يظل ملتصقا بجنسه الخاص، إذا كنت تعرف ما أعنيه». ثم قرّب وجهه وخفض صوته ولمست ثلاث أصابع هيكلة ذراع المصور. «خذها نصيحة مني، من رجل أبيض مثلك. اسمع ما أقوله لك!» ارتفعت الأصابع الثلاث، الداكنة من أثر التبغ، من تلقاء ذاتها، وارتعشت، وعادت مرة ثانية إلى وضعها السابق. «هؤلاء الرجال جميعا ينوون منذ البداية القيام بمشكلة».

التقط الولد عكازيه وتمكن من النهوض من المكان الذي كان يجلس فيه، ووصل في تلك اللحظة إلى البار. «ألق نظرة على هذا، يا صاح»، قال الرجل العجوز. «أطلعه عليه»، قال للولد بالإسبانية، وانحنى الولد مستندا على عكازه، وطوى ساق البنطلون الكاكي البالية اليمنى حتى كشف عن بقية ساقه المبتورة. كان البتر على مسافة غير بعيدة أسفل الخصر، وكانت أماكن التئام الأنسجة قد تجعدت وانثنت بغرابة على هيئة طيات صغيرة جدا وكثيرة. «هل ترى؟» صاح الرجل العجوز. «حمولة مائتين وستين طنا من الموز سقطت هنا. تحسسها».

«تحسسها أنت»، قال المصور، وهو مندهش من كيفية تمكنه من أن يظل واقفا ويتحدث معهم بالضبط كما لو كان واحدا منهم. (هل من الممكن أن يكون ما حدث له غير ظاهر؟) أدار رأسه ونظر نحو المدخل. كانت البنت الخلاسية تتقيأ في الخارج مباشرة. أسرع عامل البار في اتجاهها وهو يصرخ ودفعها بعيدا في غضب، إلى حيث الخلاء. عندما عاد إلى الداخل كان يمسك بأنفه بطريقة مسرحية. «تلك القردة القذرة!» صاح. «ستكون الكلاب في غضون دقيقة عندنا هنا في الداخل».

كان الولد لا يزال ينظر بترقب إلى الرجل العجوز، ليرى إن كان الوقت قد حان لإسداله ساق البنطلون. «هل تعتقد أنه قد حصل على سنتافو واحد منهم؟» قال الرجل العجوز بحزن. «هاه!»

بدأ المصور في الارتياب من أن شيئا ما قد سار بداخله على نحو خاطئ. فقد كان يشعر بالاعتلال، لكن نظرا إلى أنه لم يعد مخلوقا حيا فإنه لم يكن في إمكانه التعبير عنه بهذه المصطلحات. فأغلق عينيه ووضع يده على وجهه. «إنها منتشرة في كل مكان في الخلفية»، قال. كان مشروب الكمبيامبا الذي لم يشربه بعد لايزال في يده الأخرى.

تلفظه بهذه الجملة جعلها تبدو أكثر حقيقة. كانت بالتأكيد منتشرة في كل مكان في الخلف. كان الشيء المهم هو تذكره أنه كان هنا بمفرده وأن هذا المكان كان مكانا حقيقيا ويوجد به أناس حقيقيون. في إمكانه أن يشعر بأنه من السهولة الانسياق بشكل خطير وراء الرسائل المعطاة له عن طريق حواسه، واستبعد الأمر برمته مثل اعتقاد خفي أن في إمكانه الهرب بطريقة ما من الكابوس عندما تأتي اللحظة الحاسمة عن طريق إيقاظه لنفسه منه. وضع مشروبه على الطاولة وهو يترنح قليلا. الخلاف الذي كان قد تصاعد منذ فترة بين الجندي الهندي ورفيقه الحزين بلغ في ذلك الحين مرحلة مزعجة، حيث حاول الرفيق سحب الجندي بعيدا عن البار رغما عنه، والجندي كانت قدماه الاثنتان المرتديتان حذاء عاليا متباعدتين في ثبات، ويتنفس بسرعة، وبطريقة مزعجة في أثناء مقاومته له. فجأة كان هناك سكين

صغير يلمع في يده اليمنى، واكتسى وجهه بنظرة صبي صغير على وشك أن ينفجر بالبكاء. تحرك الرجل العجوز بسرعة إلى الجانب الآخر من المصور. «هذا الرجل سيئ السمعة بكل المعاني»، همهم، وهو يشير بعصبية إلى الولد ذي العكاز لكي يأمره بالتحرك بعيدا عن الطريق.

كان المصور يقول لنفسه: «لو كان في إمكاني الصمود. فقط لو كان في إمكاني!». كان المكان بأكمله ينسرب بعيدا عنه، إلى الأسفل وإلى الخارج، وكان الجيتار يعزف والكلاب تنبح، أشار الجندي بسكينه ومطّ شفتيه، تحدث الأمريكي القديم عن الكهوف الممتلئة بالزمرد المدفونة على مسافة ستة أيام فقط أعلى «تبرو»، أصبح ضوء المصباح أكثر احمرارا وراح يبعث بدخان أكثر. لم يفهم شيئا باستثناء أنه كان يجب عليه البقاء هناك والمعاناة، فمحاولة الهرب ستكون قاتلة. كان وجه الجندي في تلك اللحظة قريبا من وجهه، وينفث دخان تبغه الأسود فيه. بضعف، وبدلال طبيعي مجنون، جعل رموشه الطويلة ترتعش بينما راح يسأل: «لماذا لم تعرض عليّ كوبيتا؟ فقد كنت أنتظر طوال الليل أن تعرض عليّ واحدا». تدلت اليد الممسكة بالسكين بفتور إلى جانبه، ففكر فيه المصور كطفل نائم لايزال متشبثا بخشخيشته.

«سي كويزيز ... كي توماس؟» تمتم مفكرا في أن حذاءه كان يجب أن يكون في يده لكنه لم يكن، أين ذهب إذن؟ أحضر شخص ما قردا كبيرا من فصيلة السعدان العنكبوتي إلى الحانة وكان يحاول إجباره على الرقص على إيقاع الجيتار، وهو يجعل

القرد يقف مستقيما عن طريق الإمساك بمخلبيه الأماميين. خطا القرد بمظهر ينم عن الذهول بعض الشيء، وهو يحدق في هذا الطريق وذاك، وهو مقطب في عصبية بسبب الدوي العالي للضحك الذي كان يصدر عن هؤلاء الواقفين عند البار ويشاهدون سلوكه الطريف. أسرعت الكلاب، التي لاحظت وصوله، واقتربت جدا من مدخل الحانة، حيث هيأت نفسها للنهش والعض بغضب مبيت النية.

ابتاع الجندي الشراب ودفع ثمنه، لكنه لم يشربه. كان مستندا بعيدا إلى الخلف على البار، متكئا على مرفقيه تقريبا كما لو أنه كان في السرير، كانت عيناه بسيطتين لوزيتين وذاتي لون أسود، همس: «أنت لا تحب المكان هنا. تريد أن تنصرف، أليس هذا صحيحا؟ لكنك تخشى الانصراف».

على الرغم من أن الجلد كان ينزلق مبتعدا عنه، فإن كل شيء ظل بالضبط كما كان عليه. كان من الممكن أن يكون في حالة أفضل لو كان في وسعه الجلوس. «آه، يا إلهي»، وسأل نفسه: «هل سأظل قادرا على احتمال هذا؟»

«لماذا تخشى الذهاب؟» واصل الآخر بلطف، وهو يبتسم إلى درجة أن المصور أعجب بأسنانه الصغيرة المكتملة. ضحك المصور في صمت، ولم يجب.

كان وجه الجندي، البيضاوي بلون العسل القريب جدا منه، قد تبدل الآن إلى وجه آخر، وجه يشبه وجه جنرال. («نعم، أنا جنرال»[*]، ذو شارب صلب نابت من تحت فتحتي الأنف، وعينين

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

لوزيتين ســـوداوين تطفران برغبة مرهفة، وزي مهندم، وســـوط صلب مضفر في اليد، وســـنون المهماز تلمع على عظمة الكاحل. «حقا، أنا جنرال»، مستلقيا فوق فراش السكنة الساخن، في وقت متأخر جـــدا من بعد الظهر(*)، كان الجندي يحلم بكونه جنرالا. من أي قرية جبلية جاء كما قال هو؟ منذ متى كان يتكلم؟)

« ... وفـــي ذلك اليوم وحده قتلوا واحدا وأربعين خنزيرا أمام عيني، هناك في الحظيرة. أنا مخطئ أو مقصر بطريقة ما، لكن هم أنفسهم ...»(* *) كانت ابتسامته حميمية تدل على الاعتذار، خفض عينيه بشـــكل غير ملحوظ، وبـــذل مجهودا ورفعهما مرة ثانيـــة لينظر إلى المصـــور، بطريقة، نظرا إلـــى أنهما كانتا أكثر اتســـاعا عن ذي قبل، جعلتهما تلتمعان. «لن أنســـاهما أبدا، ولا أعرف لماذا».

جاءت الفتاة ذات الأســـنان الذهبية واندســـت في ما بينهما، ويداهـــا تتلويان فوق رأســـها، ووركاها يـــدوران، وصوتها الرفيع يصيح بالإســـبانية: «آهيي! آ هيـــي! إل فانداجو دي لا جوجيرا». كان من المؤكد أن الجندي قد دفعها، لأنها صفعته فجأة. لكن الأمر كان يحدث ببطء شـــديد. وإلاّ كيف استغرق الأمر وقتا طويلا من الجندي ليرفع سكينه، وبينما كان يهم برفع يده، كيف أمكن للفتاة الغبية الانتظار بهذه الطريقة قبل أن تصرخ أو تتحني جانبا؟ وعلى الرغم من أن المدية قد طالت ذراعها فقط، فإنها كانت راكعة على الأرض وســـط الرمل، وهـــي تتأوه: «لقد جرحني! يـــا إلهي! لقد أصابنـــي!» ولأن الرجل الذي كان يرقص مع الســـعدان العنكبوتي

(*) وردت العبارة بالإسبانية [المترجم].
(* *) وردت بالإسبانية [المترجم].

كان قد تركه لينضم بســرعة قدر الإمكان إلى الآخرين عند البار، فقد مضى الحيــوان بخطوات قصيرة إلى الفتاة، وبذهول وحيرة لفّ ذراعه الطويلة الممتلئة بالشــعر حول رقبتها. لكن المصور آنئذ كان قــد اندفع تقريبا وكانت قدمــاه العاريتان تخطوان بينما كان الجميع يحاولون الوصول إلى الجندي وانتزاع سلاحه. (كان وجه شــخص اكتسى بقناع يلمع بالغل الشديد، وله صوت يقول بنبرات خشنة مهتاجة بالإسبانية: «فلينتبه الجميع! لينتبه الجميع!»)

كان قد وقف بالضبط على بعد تسع عشرة خطوة في مكان به شــجرة بابايا صغيرة أمام المدخل. لم تكن الشجرة قوية بما فيه الكفاية، فتأرجحت عندما اســتند إليها. كانت الكلاب في ذلك الوقــت تصيح من داخل الحانة. في هذا المكان كان الهواء لطيفا وباردا بعض الشــيء، وكان هناك وميض باهت جدا للصباح في السماء وفي المياه خلف رصيف المرفأ. «يجب أن أبدأ السير»، قال لنفســه، بدا من المهم أن يصدق ما قاله لنفسه. كانت الصيحات والصرخات تتعالى داخل الحانة وتتصاعد درجتها وحدتها، فبدأ النــاس ينادي بعضهــم بعضا من أبواب أكواخهــم. كان رصيف المرفأ خاليا، مجرد ألواح خشــبية ولا يوجد درابزين. جر قدميه بعناية بالغة لأنه لم يكن معتادا على الســير حافيا، وسار متتبعا ما اعتقد أنه الطريق الذي كان قد ســلكه في وقت سابق، خلال الشــجيرات عائدا إلى حافة النهر، وكان هناك قارب في مرسى شاطئ طيني به أشجار منجروف.

كان من الســهل عليه الصعود على متنه، وكذلك فك الحبل، وســهل عليه أيضا - لأن مســتوى الماء ارتفع إلى حد كبير منذ

أن ترك القارب - تحريكه عن القاع الطيني حيث كان مستقرا. لكن بمجرد طفوه بالقارب بين الجذوع والفروع المرئية الآن تقريبا، واصطدامه بها والتفافه في أول الأمر في مواجهة ضفة النهر المضطرب المظلم ثم الفراغ الأبيض المتسع لسماء ومياه مفتوحتين، فهم بشكل غامض أنه لم يكن من الممكن أن يندفع في طريقه عائدا مرة ثانية إلى الشاطئ الذي أتى منه، نظرا إلى أن المد كان يواصل ارتفاعه. كانت فكرة مريحة، قرر ذلك، لأنها كانت تعني أن كل شيء كان يمضي قدما وليس هناك سبيل للتراجع. بعد دقيقة كان يطفو برفق قرب قاعدة رصيف المرفأ، وكان الناس يركضون هنا وهناك في الخلاء. استلقى بسرعة إلى أسفل وتمدد في قاع القارب، وظل هناك، ينظر إلى أعلى مباشرة في السماء الرمادية، متمنيا أن يبقى بهذه الطريقة بمعزل عن مجال الرؤية، حتى يصل إلى أبعد من تابياما.

كان النهار على وشك أن يصبح أحد تلك الأيام الاستوائية الضائعة، حيث لا تكون هناك شمس، ولا رياح، ولا سحب - لأن السماء بالكامل كانت محاطة بغلاف خانق شديد الاتساع عبارة عن سحابة واحدة - حيث لا يحدث شيء على الإطلاق باستثناء اشتداد الحرارة كل ساعة حتى يأتي الغروب. كان الجانب الشرقي من السماء بالفعل هو الجانب الساخن، مقوسا فوق المستنقع العريض. كان القارب يتحرك بصعوبة، واتسعت القناة في هذه البحيرة المستنقعية العريضة. لايزال المصور مستلقيا وهو يتأوه. شيئا فشيئا بدأ الخوف من احتمال رؤية أحد له يفسح المجال للأمل في أن يدفع تيار مائي القارب إلى الداخل

باتجاه الشاطئ بدلا من الخارج نحو المياه الشاسعة والجزر الصغيرة المقفرة، لأنه في بعض الأحيان - وعلى الرغم من أن بعض المعاناة مضمنة فيه - يكون الاتصال مع الآخرين أفضل من الرعب الناتج عن الوحدة والمجهول. وضع ذراعه على عينيه لحمايتهما من الضوء الرمادي المزعج الذي كان يسقط عليه من السماء. وكانت اليد الأخرى ممددة فوق الرماد المتخلف عن نار ليلة الأمس. كان وهو يطفو في الصمت التام في قلب البحيرة الهادئ، لا يشعر بالنشاط بينما كانت ساعات الصباح تنقضي، بل كان على وعي متزايد بالاضطراب الفظيع الذي تحدثه كؤوس الكمبيامبا في رأسه، الاضطراب الذي أعرب عن نفسه مثل كابوس لا معنى له أتاه من الخارج، كابوس لم يستطع إزاءه إلا أن يصبح فقط سلبيا بشكل تام. كان عبارة عن ذلك المشهد غير المرئي الذي له منطقه المؤلم والذي انغمس فيه وراح يتتبع طبيعة وجوده الكلي، لكن، من دون إعطائه ولو مرة واحدة رؤية واضحة لما كان ينطوي عليه من أقدار مؤلمة.

في وقت ما قرب منتصف الصباح احتك القارب بأحد الجذور المغمورة تحت السطح، فأخذ يتأرجح في تدويم البحيرة تحت مظلة من النباتات على مقربة من الشاطئ. في هذا المكان كان الذباب الشرس يلسعه، ومن فوقه بين أوراق النباتات في الأعلى، كان أحد الطيور من الفصيلة الناطقة يعلق بشكل عرضي بالإسبانية، مرارا وتكرارا: «إيديجاراجا. إيديجاراجا. إيديجاراجا».

لم يكن هناك عزاء بعينه بالنسبة إليه، فقد كان عن قصد وتصميم شديد في دراما مجهولة تعرض من خلاله، يمكن أن

يقدمه إليه في ذلك الوقت سـماعه لأصوات بشـرية، أو شعوره بأن القارب قد أمسـكته يد شخص ما كان يشق طريقه في الماء إلى جـواره. فقط عندما طلع عدة أشـخاص على متن القارب وجثـوا من حوله بالفعل وهم يثرثرون حتـى حرك ذراعه ونظر إليهم شـزرا. كانوا خمسـة من الشبان، يشـبه بعضهم البعض بشـكل ملحوظ، قد أحاطوا به. كانت قطرات الماء تسقط عليه من أجسـادهم العارية. أغلق عينيه مرة ثانية: كان المشـهد غير مرغـوب فيه إلى حد كبير جدا. في تلك الأثناء قفز أحدهم من القارب، وغاب فترة قصيرة، ثم عاد بثمرة جوز هند خضراء شق قمتهـا. وبدأ يترك الماء يسـقط منها على وجه المصور، وعندئذ اعتدل المصور جالسـا بشـكل جزئي وشـرب ما تبقى من الماء المتسـاقط منها. حدق فيهم مـرة ثانية لمدة دقيقة، ثم قال: «هل أنتم أشقاء؟».

«نعم. نعم»، رددوا معا في صوت واحد بالإسبانية. كان في هذا عزاء له لسبب ما. «أشقاء»، قال بالإسبانية متنهدا، ثم انزلق إلى جـوار الرماد ثانية. ثم أضاف بيـأس، متمنيا أن يكونوا ما زالوا قادرين على سماعه: «من فضلكم خذوني إلى ريو مارتيلو».

كان فاصـلا قصيـرا من صفاء الذهن. كانـوا الآن يدفعون القارب إلى الخلف نحو الخارج تحت السـماء الساخنة، تاركين إياه مسـتلقيا هناك يتأوه كما يشاء. وفي إحدى اللحظات أحس بأنه يجب عليه أن يحاول أن يشرح لهم أنه سوف يعطي كلا منهم خمسة وسبعين سنتافو على ما يتكبدونه من إزعاج بسببه، لكنهم قهقهوا من الضحك ودفعوه إلى أسفل.

«حذائــي!» صرخ. «لا توجد هنــاك أحذية»، أخبروه. لا يزال مستلقيا.

«ومتى ســنصل إلى الشاطئ»، قال وهو يلهث، ممسكا بكاحل أســمر كان بجانب وجهه، «كيف ستأخذونني إلى ريو مارتيلو؟». «لن نذهب إلى أي شــاطئ»، أجابوا. «سنمضي عبر المستنقع ثم القناة».

ظل مســتلقيا فتــرة، محاولا عزل نفســه عن الأفــكار غير المنطقية التي كانت تضطرب في رأسه. «هل هذا هو الطريق إلى ريو مارتيلو؟» تساءل، وهو يدفع نفسه إلى أعلى قليلا وهو يلهث، محــاولا أن يرى ما وراء غابة الأرجل والأذرع الســمراء المحيطة به، وشــعر بخجل عميق غير مبرر لتقبلــه الهزيمة مرة أخرى. كانوا يضحكــون، ودفعوه برفق إلى أرضية القارب، واســتمروا في دفع القارب بطريقة إيقاعية جهة الشــرق. «مدخنة المصنع»، قال بعضهم لبعض، وهم يشــيرون إلى مــكان بعيد. أعاده عقله إلــى المنطقة الهادئة عند ضفة النهر حيث تكلم الطائر الصغير، فوق أعلى الأشــجار، وســمع مرة ثانية صــوت اللهجة العامية. «إيديجاراجا»، قال المصور بصوت عال، مقلدا بشكل متقن ورائع صوت الطائر ونبرته. كان هناك جو من المرح من حوله. أمســك أحد الشــبان بذراعــه، وهزه برفق. «هل تعــرف ذلك الطائر؟» قال: «إنه طائر مضحك جدا. فهو يذهب إلى أعشــاش الطيور الأخــرى ويرغب في البقاء هناك بداخلهــا، وعندما تتقاتل معه الطيور الأخرى وتطرده بعيدا، فإنه يجلس فوق الشــجرة نفسها هناك ويقول: «إيديجاراجا». وهــذه الكلمة تعني: «إيريجاراجو،

نـــادي أناكوير، لا أحد يحبنـــي». ويرددها مرارا وتكرارا، إلى أن تجعله الطيور الأخـــرى يذهب إلى مكان أكثر بعدا حتى لا يكون في إمكانها ســـماعه ثانية. لقد قلتها بصورة صحيحة بالضبط، قلها مرة أخرى. «نعم، نعم»، وافقه الآخرون قائلين بالإســـبانية، «كررها مرة ثانية!»

لم تكن لدى المصور أي نية لقولها مرة ثانية. خجله من تقبله الهزيمة أقلقه في ذلك الحين بشكل أقل. كان الصعب في وضعه الحالـــي أن يقلد الطائر بطريقة ســـليمة تماما من حيث الأداء، لكنه كان يعرف أن عليه أن يقلد الطائر.

عندما أطلق مصنع «أزوكاريرا ريو ماريتلينس» صافرة طويلة لإعلان حلول وقت الظهر، ظل الصوت يتردد برهة فوق المستنقع الخالي مثل أثر دخان غير مرئي. «الســـاعة الآن الثانية عشرة»، قال أحد الإخوة بالإســـبانية. جاءت واحدة من فراشات التنين، كبيرة ذات لون ذهبي في أســـود وقد مرت في خفة وسرعة فوق الماء وحطت فـــوق قدم المصور العاريـــة. بعدما رفعت وخفضت جناحيهـــا مرتين كانت مرة ثانية في خط ســـيرها الملتوي، وهي تنحني وتنخفض بســـرعة فوق البحيرة، نحو تابياما. «قلها مرة ثانية»، قال الإخوة وهم يرجونه.

الضبع

كان أحد طيور اللقلق يمر فوق بلدة صحراوية في طريقه إلى الشمال. كان ظمآن، فبدأ في البحث عن الماء. وعندما وصل إلى جبـل «خنق الغار»، رأى بركة مياه في أسـفل الوادي. فهبط إلى أسفل بين الصخور وحطّ عند حافة الماء. ثم اقترب وشرب.

في تلك اللحظة تسـلق ضبع إلى أعلـى الجبل، ورأى اللقلق وهـو يقف في الماء، فقال له: «هل جئت من مسـافة بعيدة؟» لم يكـن اللقلق قـد رأى ضبعا من قبل، ففكر «هـذه إذن هي هيئة الضبع». ووقف ينظر إلى الضبع فقد قيل له إنه إذا رش الضبع بعضا من بوله على أحد، فإن هذا الشخص عليه أن يمضي وراء الضبع إلى أي مكان يريده له الضبع.

«سيحل الصيف قريبا، وأنا في طريقي إلى الشمال» قال اللقلق. وفي الوقت نفسـه، خطا مبتعدا إلى مسـافة داخل البركة، بحيث لا يكون على مقربة مـن الضبع. كان الماء هنا أعمق، ففقد توازنه تقريبـا مما اضطره إلى الرفرفة بجناحيه ليبقى منتصبا. مشـى الضبع إلى الجانب الآخر من البركة ونظر إلى اللقلق من هناك.

«أعرف ما يدور في رأسك»، قال الضبع. «إنك تصدق القصة التي تروى عني. هل تعتقد أن لديّ تلك القوة؟ ربما هذا ما كانت عليه الضباع من قبـل منذ زمن بعيد. لكنها الآن مثل أي حيوان آخر. كان في إمكاني أن أبللك ببولي من هنا لو شئت. لكن لماذا؟ إذا أردت أن تكـون عدوا لي، فاذهب إلى منتصف البركة وامكث هناك».

نظر اللقلق إلى البركة من حوله ولاحظ أنه لم يكن ثمة موضع فيها حيث يمكنه الوقوف ويكون بعيدا عن متناول الضبع.

«لقد انتهيت من الشـــرب»، قال اللقلق. وبسط جناحيه ورفرف بعيدا عن البركة. وعند حافتها جرى بسرعة إلى الأمام وارتفع في الهواء. دار محلقا فوق البركة، وهو ينظر إلى الضبع في الأسفل.

«أنـــت إذن مـــن يطلقون عليه الغـــول»، قـــال. «العالم ممتلئ بالأشياء الغريبة» أضاف.

نظر الضبع إلى أعلى. كانت عيناه ضيقتين ومعقوفتين. «لقد أحضرنا الله(*) إلى هنا»، قال. «أنت تعرف هذا. أنت الذي تعرف عن الله، ولست أنا».

خفّض اللقلق من تحليقه قليلا. وقال «هذا صحيح. غير أنني مندهش من سماعي ما تقوله أنت. إن لك سمعة سيئة، بالضبط كما قلت أنت نفسك. والسحر ضد مشيئة الله».

طأطأ الضبع رأسه، وصاح قائلا: «إذن أنت لاتزال تعتقد في الأكاذيب!».

«أنا لم يتســـن لي بعد رؤية ما بداخـــل مثانتك»، قال اللقلق. «لكن لماذا يقول الجميع إن في إمكانك أن تفعل بها سحرا؟»

«إنني أتساءل لماذا أعطاك الله عقلا؟ إنك لا تعرف بعد كيف تســـتعمله». لكن الضبع كان يتحدث بصوت منخفض إلى درجة أن اللقلق لم يكن في إمكانه سماعه.

«لم أســـمع كلماتـــك»، قال اللقلـــق، وترك نفســـه يهبط إلى أسفل.

(*) وردت بالعربية - [المترجم]

نظـــر الضبع إلى أعلى مرة ثانية. «قلت: لا تقترب مني كثيرا. لربما أرفع قدمي وأغمرك بالسحر!» ضحك، وكان اللقلق قريبا بما فيه الكفاية بحيث رأى أن أســـنان الضبـــع كانت بنية. «ومع ذلـــك يجب أن يكون هناك ســـبب ما»، بدأ اللقلـــق في التحدث ثانيـــة. ثم نظر إلى صخرة عالية فوق الضبع، فحط فوقها. رقد الضبع وراح يحدق فيه. «لماذا يسمونك غولا؟ ما الذي فعلته؟».

نظـــر الضبع إلى اللقلق شـــزرا وقال، «أنـــت محظوظ جدا، لـــن يحاول الناس قتلك أبدا، لأنهـــم يعتقدون أنك مقدس. إنهم يســـمونك القديس والحكيم. وحتـــى الآن لا تبدو مثل قديس أو حكيم».

«ما الذي تقصده؟» قال اللقلق بسرعة.

«لو كنت تفهم فعلا، لكنت قد عرفت أن السحر ذرة من غبار فـــي مهب الريـــح، وأن قوة الله فوق كل شـــيء. ولم تكن لتخاف أبدا».

وقف اللقلق فترة طويلة، وهو يفكر. رفع ساقا وأوقفها منثنية أمامه. ازداد الوادي احمرارا بينما كانت الشمس تنخفض. وكان الضبع جالسا في هدوء وهو يتطلع إلى اللقلق، وينتظر أن يواصل حديثه.

أخيرا أنزل اللقلق ســـاقه، ثم فتـــح منقاره، وقال: «تقصد أنه إذا لم يكن هناك ســـحر، فإن الذي يقترف الإثم هو الذي يعتقد في وجود السحر».

ضحك الضبع. «أنا لم أقل شـــيئا عـــن الإثم. لكن أنت الذي قلـــت، وأنت الحكيم. أنا لســـت في هذا العالـــم لأقول لأحد ما

الصواب وما الخطأ. يكفيني العيش من ليلة إلى أخرى، فالجميع يتمنون رؤيتي ميتا».

رفع اللقلق ساقه مجددا ووقف يفكر. ارتفع آخر ضوء من النهار في السماء واختفى. غرقت المنحدرات الصخرية في جانب الوادي في الظلام.

بعد فترة قال اللقلق: «لقد منحتني شيئا ما للتفكير فيه. وهذا حسن. لكن الليل قد حلّ ويجب عليّ أن أواصل طريقي». رفع جناحيه وشرع في التحليق بعيدا عن الصخرة التي كان قد حط فوقها. أصغى الضبع. فسمع جناحي اللقلق يصفقان الهواء في بطء، ثم سمع صوت جسد اللقلق بينما كان يرتطم بالمنحدر الصخري في الجانب الآخر من الوادي. تسلق الضبع الصخور فوجد اللقلق هناك. «لقد تحطم جناحاك»، قال. «كان حريا بك أن تذهب والضوء لا يزال هناك».

«نعم»، قال اللقلق. كان تعيسا وخائفا.

«تعال معي إلى البيت»، قال الضبع. «هل باستطاعتك أن تمشي؟»

«نعم»، قال اللقلق. وشرعا يسلكان معا طريقهما إلى أسفل الوادي.

سرعان ما بلغا كهفا في جانب الجبل. دخل الضبع أولا ونادى قائلا: «اخفض رأسك». وعندما أصبح كلاهما في الداخل تماما، قال: «الآن بإمكانك أن تقيم رأسك، فالكهف هنا مرتفع».

لم يكن في الداخل سوى الظلام. وقف اللقلق لا يحرك ساكنا. «أين أنت؟» تساءل.

«أنا هنا»، أجاب الضبع، وهو يضحك.

«لماذا تضحك؟» سأل اللقلق.

«كنت أفكر في أن العالم غريب»، أخبره الضبع. وأضاف «لقد جاء القديس إلى داخل كهفي لأنه يعتقد في السحر».

«أنا لا أفهم»، قال اللقلق.

«أنت مرتبك ومشوش. لكن يمكنك الآن على الأقل أن تصدق أنني مثل أي كائن آخر في العالم».

لم يجبه اللقلق على الفور. فقد شمّ رائحة العفونة الكريهة للضبع قريبة جدا منه. عندئذ قال متنهدا: «أنت على صواب، بالطبع. ليس هناك قوة فوق قوة الله».

«أنا سعيد»، قال الضبع، وهو يزفر أنفاسه في وجهه. وأردف الضبع يقول «أخيرا فهمت». وانقض بسرعة على رقبة اللقلق وأحدث فيها جرحا. خفق اللقلق وسقط على جانبه.

«أعطاني الله شيئا ما أفضل من السحر»، قال الضبع وهو يهمس. «أعطاني الله عقلا».

استلقى اللقلق ساكنا. حاول أن يقول مرة أخرى: «ليست هناك قوة فوق قوة الله». لكن منقاره انفتح فقط على اتساعه تقريبا في الظلام.

انصرف الضبع. «ستموت خلال دقائق»، قال وهو يلتفت إلى الوراء. «سأعود خلال عشرة أيام. وعندئذ ستكون جاهزا».

بعد عشرة أيام عاد الضبع إلى الكهف فوجد اللقلق حيث تركه. لم يجد للنمل من أثر. قال «حسن». والتهم ما شاء ثم غادر الكهف إلى صخرة كبيرة منبسطة في الخارج فوق مدخله.

ووقف هناك لفترة في ضوء القمر، ثم تقيأ.

أكل بعضا ممــا تقيأ وظلّ يتمرغ لفترة في ما تبقى من قيئه، وهو يدعكه بعمق في فروته. عندئذ شكر الله على العينين اللتين تستطيعان أن تريا الوادي في ضوء القمر، وعلى الأنف الذي في إمكانه أن يشــم رائحة الجيفة في الريح. ظل يتقلب أكثر ثم لعق الصخرة من تحته. وبعد ذلك اســتلقى هنــاك فترة وهو يلهث. وبعد قليل نهض ومضى في طريقه مترنحا.

زمن الصداقة

كانت الصعاب تزداد تفاقما في كل سنة، منذ أن انتهت الحرب. منــذ البداية، وعلــى الرغم من أنها كانت تعلــم بوجود الحرب، فقد قررت الآنســة ويندلينج ألا تعيرهــا انتباها. في البداية لم تكن هناك ســوى إشاعات هامسة عن الاعتقالات السرية، وكان الناس يقولون: «عدة آلاف من المســلمين قد أُرسلوا إلى السجن في فرنســا»، وبعد فترة قصيرة بدأ نفر من أصدقائها يختفون، مثل الشاب بشير وعمر بن الأخضر، وكذلك مدير مكتب البريد فــي تميمون، الــذي اختفى ذات صباح، أو هذا مــا أُخبرت به، لأنهــا عندما عادت في الشــتاء التالي لم يكونــوا موجودين ولم يكــن من أثر لهم هنــاك، ولم ترهم بعد ذلك منــذ تلك الفترة. كانت وجوه النــاس يعتريها التجهم الصامت عندما كانت تحاول التحدث عنهم في الأمر. بعدما بدأت أعمال العنف بشكل جدي، وعلــى الرغم من أن الوطنيين قد ســببوا إخراج القطارات عن قضبانها وعطلوا خدمة النقل عبر الصحراء في مناسبات عدة، إلاّ أنه لايزال بالإمكان الوصــول إلى ما وراء المنطقة المضطربة إلى حيث الواحة التي كانت تذهب إليها الآنسة ويندلينج. وهناك في الجنوب، حيث الواحة، كان القتال بعيدا جدا، وفي الصحراء الخالية التي كانت الســاعات الطويلة تنقضي فيها ببطء جعلها تبــدو أكثر امتدادا، تقريبا كما لو كانت هذه الســاعات تنقضي في البحر. إذا افترض في أي وقت من الأوقات أن أصيب رجال هذه الواحة بفيروس الســخط عن طريق الشمال البعيد - وكان

هذا غير متصـــور من وجهة نظرها - عندئـــذ وعلى الرغم من حقيقة أنها كانت على يقين من أن الحرب لن تعود عليهم بشـــيء ســـوى التعاسة، فإنها لم يكن بوســـعها إلاّ أن تتمنى لهم النصر. فقد كانت أراضيهم وحدهم هي التي يقاتلون من أجلها، وحياتهم وحدهـــم هي التي سيخســـرونها للفوز بالقتـــال. لكن الناس لم يكونوا يتكلمون عن الحرب حتى ذلك الوقت، فالحياة كانت شاقة بالنسبة إليهم لكنها كانت لاتزال هادئة. وكان كل فرد منهم يعلم بأنها مستمرة في الشمال، وكانوا سعداء جميعا لأن الحرب كانت بعيدة جدا عنهم.

في أثناء فصول الصيف، حيث كانت الآنســـة ويندلينج تعمل بالتدريس في مدرسة فرلوفر في برن، كانت تسرّي عن تلاميذها بحكايات عن الحياة التي كان يحياها الناس في الصحراء الكبرى في أفريقيا. كانت تقول لهم إنه في القرية التي كانت تعيش فيها كان كل شـــيء يُصنع بواســـطة أهالي القرية أنفسهم مما كانت توفره لهم الصحراء، وإنهم كانوا يعيشـــون في عالم من الأشياء التي كانت تصنع مما كانت تنضجه الأرض وتجود به، من ألياف العشـــب، وأشـــجار النخيل وجلود الحيوانات. لم تكن هناك أي أشـــياء مصنوعة من المعدن. على الرغم من أنها لم تعترف بهذا للأطفـــال، فلم يعد هذا حقيقيا تماما، نظرا إلى أن النســـاء في الوقت الحالي قد اعتدن استخدام صفائح الزيت الفارغة لحمل الماء، بدلا من قرب جلد الماعز، وذلك منذ ســـنوات قليلة مضت. وكانت قد حاولت ثني صديقاتها من نسوة القرية عن هذا الابتكار، وقالت لهن إن العلب الصفيح يمكن أن تسمم الماء، وكن يوافقنها

الرأي، ويستمررن في استخدامها. «كن كسولات»، قررت، «فقد كانت علب الزيت أكثر سهولة للحمل بالنسبة إليهن».

عندما كانت الشمس تميل نحو الغروب والهواء المحمل برائحة دخان الخشب يرتفع بلسعته الباردة من الواحة في الأسفل إلى مستوى الفندق، كان بإمكانها أن تستنشقه داخل غرفتها فتتوقف عن أي شيء كانت تفعله. ثم ترتدي «بُرنسها» وتصعد السلالم إلى السطح. كانت تفرش البطانية هناك حيث تقوم بأخذ حمّام شمس كل صباح، وكانت تستلقي فوقها في مواجهة سماء الجهة الغربية، وهي تشعر بأن حرارة الشمس الغاربة لاتزال تحت جلدها بقوة. وكانت إحدى متع اليوم، أن تشاهد الضوء وهو يتغير في الواحة تحتها، عندما كان الغسق والدخان المنبعث من حرائق المساء يخفيان الوادي تدريجيا. دائما ما كانت تأتي لحظة يكون فيها كل ما تبقى من هذا عبارة عن شكل غير واضح، هندسي ودقيق، الطينية التي كانت تتألف منها القرية، وكتل بعينها من أشجار النخيل العالية التي كانت تقف منتصبة خارج مداخل القرية. ثم لا تعود البيوت نفسها موجودة بعد، وفي النهاية تختفي حتى قمم أشجار النخيل نفسها، وفي حالة وجود القمر كان كل ما يصبح بالإمكان رؤيته هو السماء المحتضرة، وأطراف الصخور الحادة في صحراء الحمادة، والفراغ المتسع والممتد للضباب الذي كان ينتشر فوق الوادي، لكنه لا يصل بعيدا إلى أعلى المنحدرات الصخرية حيث يوجد الفندق.

ربما مرتين كل شتاء كانت مجموعة من نساء القرية تقوم بدعوة الآنسة ويندلينج للذهاب معهن إلى أعلى حيث الأرض

الفسيحة الممتلئة بالكثبان الرملية بحثا عن الحطب. كان الوهج قاسيا بشكل دائم في هذا المكان. ولم يكن هناك من أثر حتى لغصن شجرة أو ساق نبات في أي مكان في الرمال، وعلى الرغم من ذلك فقد كان في مقدور النساء اللائي يتجولن على امتداد القمم عاريات الأقدام أن يحددن أماكن الجذور المطمورة أسفل السطح، وعندئذ كن يتوقفن، ويكشفن الرمال عنها ويستخرجنها. كن يقلن لها، «إن الريح تترك إشارة»، إلاّ أنها لم تكن متأكدة قط من قدرتها على التعرف على الإشارة، ولم يكن باستطاعتها أن تفهم كيف يمكن أن تكون هناك علاقة بين الجذور المطمورة في الرمال والريح التي في الهواء من فوقها. «ما افتقدناه نحن، لايزالون هم محتفظين به»، كانت تفكر.

كانت رؤيتها الأولى للصحراء وأهلها بمنزلة خبرة ذات شكل مغاير، وبالطبع، بدا لها الآن أنها قبل مجيئها إلى هنا لم تكن على اتصال بالحياة. كانت تؤمن بشكل كامل وثابت أن كل يوم كانت تقضيه هنا يزيد من إجمالي محصلة قدرتها على المقاومة. كانت تحسد المواطنين على الصحة السليمة وقوة البنيان، في الوقت الذي كانت فيه صحتها قوية بالقدر نفسه، لكن لأنها كانت ذات بشرة بيضاء وعلى قدر من التعليم، فقد كانت على اقتناع بالسليقة أن جسمها كان أقل صحة.

كان عمل الفندق كله يقوم به شخص ذو وجه هادئ حزين يدعى بوفيلجا. كان موجودا هناك عندما وصلت لأول مرة منذ عدة سنوات؛ وفي نظر الآنسة ويندلينج أصبح وجوده في الفندق كأنه جزء لا يتجزأ من المكان مثله مثل المنحدرات

الممتدة عبر الوادي. كانت تجلس دائما إلى طاولتها قرب المدفأة وتتناول الغداء ثم تلعب الورق مع نفسها، حتى تتوقف كتل الخشب المشتعلة عن بعث الحرارة في المكان. كان هناك جنديان فرنسيان صغيران جدا من الحصن المقابل يأكلان في حجرة الطعام بالفندق- ويحتسيان كمية كبيرة من الشراب، وكان من المزعج لها أن ترى وجهيهما وهما يتحولان ببطء إلى اللون الأحمر بينما كانا يجلسان هناك. في البداية كان الجنديان يخفضان قبعتيهما لها بينما يهمان بالخروج، وكانا يحاولان إمساك ضحكهما لأطول فترة ممكنة حتى ينتهيا من أن يقولا لها «صباح الخير يا سيدتي»(*)، لكنهما لم يعودا يفعلان هذا في الوقت الراهن. كانت تنتابها السعادة عندما يغادران، وتستمتع باللحظة قبل أن تخبو النار، بينما كانت تتأجج بفعل هبات الريح التي كانت تهب إلى أسفل من المدخنة العريضة.

كانت الريح تهب بشكل دائم تقريبا في فترات مبكرة من بعد الظهر، وتعصف بشكل دائم وقوي حتى أنها كانت تزمجر خلال الآلاف من أفرع أشجار النخيل في الواحة في الأسفل، وتصفر أسفل أبواب الفندق كلها، وتغطي على أصوات القرية الأكثر بعدا. في هذه الساعة كانت تلعب بالأوراق لعبة السوليتير، أو تجلس فقط لمشاهدة القطع الخشبية المحترقة وهي تتفتت إلى قطع أصغر أمام عينيها. وكانت تذهب بعد ذلك إلى الشرفة، ذلك المكان المرتفع والمضيء مثل ظهر سفينة عملاقة تبحر عبر الصحراء بعد الظهر، ثم تسرع عائدة إلى

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

غرفتها للحظة لتحضر سترتها وعصاها، وتشرع في السير. في بعض الأحيان كانت تذهب باتجاه الجنوب بمحاذاة وادي النهر، على امتداد سفوح المنحدرات الصخرية الهادئة ثم خلال الأودية الملتوية، إلى قرية مهجورة شُيدت في مكان شديد الحرارة في منعطف في الوادي الضيق. كانت الجدران الصخرية العمودية خلف القرية تعمل على إعادة الحرارة ثانية، لدرجة أن الهواء كان يلهب حلقها عندما كانت تتنفسه. أو كانت تمضي إلى مكان أكثر بعدا، حيث كانت توجد الكهوف المحفورة على جدرانها رموز أشكال حيوانية.

كانت تعود من الطريق الذي يؤدي إلى القرية، والذي يتوغل عبر الظلال الخضراء في الجزء الكثيف من غابة أشجار النخيل، وكانت تدرك بشكل منتظم وجود المجموعة نفسها من الأولاد الذين كانوا يجلسون في منعطف الطريق، في مكان تمضي فيه قبل أن تصعد مباشرة إلى أعلى التل حيث توجد المحلات والقرية. كانوا يجلسون متربعين فوق الرمل تحت الأفرع الهشة لشجرة طرفاء(*) عملاقة، وهم يتكلمون في هدوء. وعندما كانت تصل إليهم كانت تلقي عليهم التحية، ودائما ما كانوا يردون، ثم يظلون صامتين حتى تمر متجاوزة إياهم، وعندئذ يستأنفون حديثهم. كان بوسعها إلى حد ما أن تتبين أنه لم يكن في حديثهم أي ذكر لها، ومع ذلك فقد بدا لها في بعض الأحيان في هذه السنة أنه بمجرد مرورها بهم، كانت درجات أصواتهم تتغير بخبث وكأنه كان يحدث تبدل في نبرات أصواتهم من مقام إلى

(*) الطرفاء: شجرة قريبة من الأثل [المترجم].

مقـــام، ومن نبرة إلـــى أخرى. هل كان موقفهـــم هذا يقترب من السخرية والاستهزاء؟ لم تكن تعرف، لكن نظرا إلى أن هذه كانت المرة الأولى على مدار الســـنوات التي قضتها في الصحراء حيث لم تطرح الفكرة نفســـها عليها من قبل، فقـــد أبعدتها بعزم عن ذهنها. «يتطلب الجيل الجديد تكنيكا جديدا إذا أراد المرء إقامة علاقة معهـــم»، فكرت. «ويجب عليّ أن أجد هذا التكنيك». ومع ذلك فقد كانت آســـفة لأنه لم تكن ثمة طريق أخرى للوصول إلى القرية إلاّ عبر هذه الطريق الرئيســـية التي كانوا يتجمعون فيها دائما، لدرجة أن التوتر الخفيف الذي كان ينجم عن اضطرارها إلى العبور من أمامهم كان يفسد عليها متعة السير.

أدركـــت في أحـــد الأيام بصدمـــة خجل خفي أنهـــا لم تكن تعرف حتى مـــا كانت عليه وجوه الأولاد. فقد كانت تراهم فقط كمجموعـــات من بعد؛ وعندما كانت تقتـــرب منهم بدرجة كافية لتحيتهـــم، كان رأســـها منكســـا دائما، تنظر إلـــى الطريق تحت قدميهـــا. حقيقة أنها كانـــت خائفة من أن تنظر إليهم كانت غير مبررة، وفي الوقت الراهن، عندما كانت تقترب منهم، كانت تحدق بعنايـــة في عيني كل منهم الواحد تلـــو الآخر. تومئ بالتحية في ارتبـــاك، ثم تواصل طريقها. نعـــم، كانت وجوههم وقحة، فكرت - لا تشبه وجوه الكبار على الإطلاق. وسمات الوقار التي ترتسم على وجوههـــم عندما يجفلون، كانت نوعـــا منحطا من التصنع والافتعال. لكن الشيء المهم بالنسبة إليها أنها قد فازت؛ ولم تعد مشـــغولة بعد الآن بمرورها اليومي بهم. وببطء تمكنت تدريجيا من التعرف على كل ولد منهم.

لاحظت أن هنـــاك واحدا أصغر من الآخريـــن، وكان يجلس دائمــا بعيدا عنهم بعض الشـــيء، وكان هـــذا الولد الخجول هو الـــذي يقف في مطلع كل صباح يتحدث مـــع بوفيلجا في مطبخ الفنـــدق عندما كانـــت تدخل. تظاهرت في ذلـــك اليوم بأنها لم تلاحظه فـــي الفندق، وقالت لبوفيلجا: «أنـــا ذاهبة لأعمل على الآلة الكاتبة مدة ســـاعة تقريبا فـــي غرفتي، وبعدئذ يمكنك أن تحضر لترتيب الغرفة». ثم استدارت لتخرج. وبينما كانت تجتاز المدخل ألقت بنظرة سريعة على وجه الولد. كان ينظر إليها، ولم يبعد وجهـــه عندما تلاقت أعينهما. «كيـــف حالك؟» قالت. بعد ذلك ربما بنصف ســـاعة، عندما كانت تكتب خطابها الثاني على الآلة الكاتبة، رفعت رأســـها، كان الولد يقف هناك في الشـــرفة ينظر إليها عبر الباب المفتوح. كان يحدق فيها، ولأن الريح قوية؛ فقد كان بوسعها أن ترى قمم أشجار النخيل وهي تتمايل وتنحني خلف رأسه.

«إذا كان يرغـــب فـــي مراقبتي، فلندعـــه يراقبني»، قالت لنفســـها، وقررت ألا تعيره انتباهها. بعـــد فترة ذهب بعيدا. بينمـــا كان بوفيلجا يقدم لها الغداء، ســـألته عن الولد. «مثل رجل عجوز»، قال بوفيلجا، «يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، لكنه شـــديد الجدية. مثل بعـــض الرجال، الرجـــال الكبار»، وابتســـم، ثم هزّ كتفيه وأضاف: «إنها الطريقة التي أراده الله أن يكون عليها».

«بالطبع»، قالت. وتذكرت الوجه التعيس واليقظ للولد. «الكلب الصغير الذي ينبذه الجميع»، فكرت، «لكنه لا يستسلم».

في الأيام التالية، كان كثيرا ما يأتي إلى الشرفة ويقف يراقبها بينما كانت تطبع على الآلة الكاتبة. في بعض الأحيان كانت تلوّح لــه، أو تقول: «صباح الخير». ومن دون أن يجيبها يتراجع خطوة إلــى الخلف، بحيث يصبح بعيدا عن مرمى بصرها. ثم يســتمر في الوقوف حيث كان. أزعجها ســلوكه، وفي أحد الأيام عندما فعل هذا، نهضت بســرعة وذهبت إلى الباب. «ماذا في الأمر؟»، سألته، محاولة الابتسام بينما كانت تتكلم.

«أنا لم أفعل شيئا»، قال، وكانت بعينيه نظرة عتاب.

«أعرف»، أجابت. «لماذا لا تأتي إلى الداخل؟»

نظر الولد بســرعة في الشــرفة من حوله كأنه كان يطلب المســاعدة، ثم خفض رأســه وخطا إلى داخــل الباب. ووقف ينتظر هناك، ورأســه إلى أســفل، وقد بدا بائســا. أحضرت مــن بين أمتعتها حقيبة بها حلوى جافة، وأعطته واحدة منها. ثم وجهت إليه بضعة أســئلة، ووجدت أن لغته الفرنسية كانت أفضــل بكثير ممــا كانت تتوقع. «هل يجيــد الأولاد الآخرون الفرنسية مثلك؟» سألته.

«كلا، يا سيدتي»، قال، وهو يهزّ رأسه ببطء. كان والدي يعمل جنديا، والجنود يتحدثون الفرنسية بشكل جيد».

حاولــت أن تبعد وجهها وتخفي تعبير الاســتكار الذي كانت تشــعر به، لأنها كانت تزدري كل ما هو عســكري. «أفهم هذا»، قالــت ببعض الحدة، ثم عادت إلى طاولتهــا وعمدت إلى تغيير الأوراق. «يجــب عليّ أن أعمل الآن»، أخبرتــه بذلك، وأضافت على الفــور في صوت أكثر دفئا، «لكن بإمكانك العودة في الغد،

إذا أحببت». ظل منتظرا لحظة، وهو ينظر إليها بلهفة شـــديدة. ثم ابتســـم ببطء، ووضع غلاف قطعة الحلــوى، وقد طواه على هيئـــة مربع صغير، فوق طـــرف طاولتها. «وداعا، يا ســـيدتي»، قال، وخرج من الباب. في الصمت المتســـع كانت تسمع بصعوبة الصوت المكتوم لقدميه العاريتين فوق أرضية الشـــرفة. «في هذا الجو البارد»، فكرت. «يا للطفل المســـكين! لو أنني ســـأقدم على شراء شيء له فسيكون صندلا».

كل يـــوم بعد ذلك، عندما كانت الشـــمس ترتفـــع بقدر كاف لإضفاء وجود على هواء الصباح الساكن، كان الشاب يأتي خلسة عبر الشـــرفة إلى بابها، ويظل واقفا عـــدة دقائق، ثم يقول بعد ذلـــك في صوت يفتقر إلى الثقة لدرجـــة أنه كان الصوت الأكثر انخفاضا وهدوءا وســـط الصمت العظيم فـــي الخارج: «صباح الخير، يا ســـيدتي»، وتدعوه هي إلـــى الدخول، ويتصافحان في ارتبـــاك، وبعد ذلك يرفع الولد ظهر أصابعه إلى شـــفتيه، دائما بالبطء نفســـه الذي في التعاملات الرسمية. في بعض الأحيان كانـــت تحاول أن تفهم تعبيره جيدا بينما كان يقوم بهذا الطقس، لتـــرى إن كان بإمكانها أن تكتشـــف عن طريق المصادفة إن كانت فيه ظلال من السخرية؛ لكنها كانت ترى تعبيرات تدل على ولاء شديد الإقناع لدرجة أنه أفزعها، وكانت تنظر بعيدا على الفور. كانـــت تحتفظ دائما بقليـــل من الخبز أو بعض البســـكويت في درج دولاب الملابـــس، وعندما كانت تُخرج الطعام ويتناوله الولد، كانت تسأله عن أخبار العائلات في حي القرية الذي يسكن فيه. وكانت لأجل ترســـيخ الانضباط تعرض عليه قطعة واحدة فقط

من الحلوى ما بين يوم وآخر. كان الولد يجلس على الأرض عند المدخل، فوق بطانية قديمة بالية من وبر الجمل، وكان يراقبها بشكل مستمر، ولا يدير رأسه أبدا بعيدا عنها.

كانت ترغب في معرفة اسمه، لكنها كانت تعرف إلى أي مدى كان سكان المنطقة كتومين في ما يتعلق بالأسماء، وأنهم نادرا ما كانوا يبوحون بأسمائهم الحقيقية للأغراب، وكانت تحترم هذه الخصوصية لأنها كانت تعرف أن لها جذورها في دينهم الخاص الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ. لذا أحجمت عن سؤاله، وهي واثقة من أنه سيأتي الوقت الذي سيثق فيه بها بدرجة كافية لأن يقوله لها بمحض إرادته. وجاءت تلك اللحظة من دون توقع ذات نهار، بالضبط عندما كان يروي لها عدة أساطير متعلقة بأحد ملوك المسلمين العظام منذ عهد بعيد، والذي كان اسمه سليمان. فجأة توقف الشاب، وأجبر نفسه على أن يحدق فيها بثبات من دون أن يطرف له جفن، ثم قال: «أنا أيضا اسمي سليمان، نفس اسم الملك».

حاولت تعليمه القراءة، لكنه لم يبد قادرا على التعلم. في أحيان كثيرة، عندما كانت تشعر بأنه على وشك أن يربط بين جزأين غير مكتملين من الأفكار والعبارات، الأمر الذي كان سيمكنه في النهاية من استيعاب القاعدة الأساسية، كانت تبدو على وجهه نظرة استسلام وسلبية، ويقطع عن عمد محاولة التدفق من منابعها، ويظل جالسا، وهو يحدق فيها فقط، ويهز رأسه من جانب إلى آخر، ليبين لها أن هذا كان غير ذي جدوى. وفي تلك اللحظات كان من الصعب ألاّ ينفد صبرها معه.

قررت في السنة التالية ألاّ تستمر في الدروس، وأن تستخدم سليمان بدلا من ذلك كمرشد، أو حمال، أو مرافق لها، أو أي دور كانـــت ترى على الفور أنه أكثر ملاءمـــة لطبيعته منه كتلميذ. لم يكن يمانع مهما كانت المسافة التي سيمشيانها أو كم التجهيزات التي كان عليه أن يحملها، بل على العكس، كانت الرحلة الطويلة بالنسبة إليه تمثل ما يفوق الحدث، وأي شيء كانت تجعله يحمله كان يحمله بمظهر الرجل الذي تم تكريمه ومنحه جائزة. ربما كان هذا الفصل من أسعد الفصول التي قضتها الآنسة ويندلينج في الصحراء، شـــتاء الصداقة حيث قاما فيه معا برحلات لا حصر لها إلى أســـفل الوادي. بينما كانت الأسابيع تمر كانت الرحلات تتزايد فرصتها، وكانت ســـاعة الرحيل تتقدم أكثر فأكثر إلى أن جاءت فعلا عقب انتهائها من تناول وجبة الإفطار مباشرة. على مدار اليوم، وبينما كانا مجهدين من السير في الشمس الساطعة المباشـــرة وفي الظل العارض لأطراف أشـــجار النخيل المتكسرة التي تتاخم مجـــرى النهر، ظلت تتحدث إليـــه بحرارة عاطفية. في بعض الأحيان كان بإمكانها أن ترى أنه كان يشـــعر وكأنه كان يطلعها في اطمئنان على ما يدور في رأسه، وكانت تسمح له بأن يتحدث ما دام حماسه مستمرا ومتواصلا، وكثيرا ما كانت تنعشه وتجدده عندما يخبو في النهاية بأســـئلة مختارة بعناية. لكن في العـــادة كانت هي التي تتحدث بالفعل في أكثر المرات بينما كانت تمشي خلفه. وهي تدق الأرض الحجرية بعصاها المصنوع طرفها مـــن الصلب مع كل مرة كانت تطأ الأرض بقدمها اليمنى، راحت تخبره بتفصيل شـــديد بقصة حياة هتلـــر، موضحة له لماذا كان

مكروها من جانب المسيحيين، وقد اعتقدت أن هذا كان ضروريا لأن سـليمان كان لديه انطباع مختلـف، وأنه كان يتصور بالطبع أن الأوروبيين كانوا يحترمون ويقدرون إلى حد بعيد هذا الزعيم الـذي اختفى نهائيا عن الأنظار، وأن سـليمان وبقية الناس من أهـل القرية كانوا يعتقدون هذا عن الأوروبيين. كما أنها تحدثت كثيرا عن سويسـرا، وكانت تؤكد في كلامها من دون قصد على النظافة والصدق والأمانة والصحة الجيدة لأهل بلدها في شكل حكايـات قصيرة من صميم الحياة اليومية. أخبرته عن السـيد المسيح، ومارتن لوثر، وغريبالدي.

كانـت قد حافظـت منذ فترة طويلة علـى الوعد الأول الذي كانت قد قطعته على نفسها بأن تشتري له صندلا، وهذا الشراء تلته عدة شـراءات أخـرى، فعلى فترات منتظمـة نوعا ما كانت تأخذه إلى محل «بن عيسى» لشراء قميص، وبنطلون قطني أسود فضفاض من النوع الذي يرتديه قائدو جمال التشـامبا، وأخيرا برنـس جديد أبيض، على الرغم مـن أنها كانت تعرف أن القرية بأكملها سـوف تتحـدث عن أمر هذه الهدايـا الثمينة جدا التي أعطته إياها. وكانت تعرف أيضا أن هذه الهدايا الممنوحة بشـكل متكـرر هي التي كانـت تجعل والد سـليمان لا يمنعه عن قضاء الوقت معها. وعلى الرغم من ذلك، وفقا لما كان يرويه سـليمان، فقـد كان والده يعترض في بعض الأحيان. لكنها كانت واثقة من أن سليمان نفسه لم يكن يرغب في شيء، ولا ينتظر شيئا منها.

كل سـنة عندمـا كان يقترب شـهر مارس مـن نهايته تبدأ الحرارة في الاشـتداد طوال النهار بشـكل مؤلـم وحتى الليالي

كانت تصبح خالية من النسـيم؛ بعد ذلـك، على الرغم من أنها دائما ما تتطلب مجهودا شـاقا من الإرادة لتجعل الآنسة نفسها قادرة على الخطوة التي سـوف توفر لهـا اتصالا من جديد مع العالم الخارجي، كانت تخصص يومين أو ثلاثة لغسـل ملابسها والاستعداد للسـفر. عندما كان يحين الأسبوع المحدد لمغادرتها، كانت تذهب إلى الحصن وتتصل بالمقهى في كيرزاز، وتطلب إلى صاحبه أن يخبر سـائق الشاحنة التالية المتجهة إلى الشمال أن يأخذ الطريـق الجانبية الفرعية التي تتيح لها أن تسـتقل هذه الشاحنة في مكان يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن القرية.

عندما عادت هي وسليمان إلى الفندق في فترة ما بعد الظهر من رحلتهما الأخيرة القصيرة إلى أسـفل الوادي، كانت الآنسـة ويندلينج واقفة في الشـرفة تتطلع إلى جبـال الرمل البرتقالية خلف الحصن. كان سـليمان قد أحضر العلب إلى داخل الغرفة ووضعها علـى الأرض. اسـتدارت وقالت: «احضـر الصندوق الصفيح الكبير». وعندما سـحب الصنـدوق وأخرجه من تحت السـرير حمله إليها، وهو يمسح عنه الغبار بكمّ قميصه، تقدمته وصعدت السلالم إلى السـطح، وجلسا معا فوق البطانية، وكان وهج الشـمس الغاربة يلهب وجهيهما. كانت عدة ذبابات لاتزال تحلق فـي الهواء، ومن وقـت إلى آخر كانت تهاجـم رقبتيهما. أعطاها سليمان علبة البسكويت الصفيح وأعطته هي حفنة من الكعك المغطى بالشيكولاتة. «الكثير ودفعة واحدة؟»

«نعم»، قالت، «أنت تعرف أنني سـأعود إلى بلدي في غضون أربعة أيام».

خفض رأسه وراح ينظر إلى البطانية لحظة قبل أن يتمتم مجيبا: «أعرف». وصمت مرة ثانية. كان يشتكي بشكل فيه إحساس بالاضطهاد قائلا: «يقول بوفيلجا إن الجو حار هنا في فصل الصيف. إنه ليس حارا! إنه لطيف في بيتنا. إنه يشبه الواحة حيث توجد البركة الكبيرة. ولن تشعري بالحر أبدا هناك».

«يجب عليّ أن أكسب بعض المال، أنت تعرف، فأنا أريد أن أعود في العام المقبل».

قال بحزن: «العام المقبل، يا سيدتي! لا يعرف ما سيحدث في العام المقبل إلاّ مولانا».

كانت بعض الجمال تزمجر بينما كانت تتمايل فوق الرمل أسفل الحصن، وكان الضوء يتراجع بسرعة. «كل بسكويتاتك»، قالت له، وأكلت هي بسكويتها «في العام المقبل سوف نذهب إلى العبادلة بصحبة القائد إن شاء الله»(*).

تنهد بعمق وقال: «آه، نعم يا سيدتي». لاحظت في البداية غصة التعاطف ثم بعد ذلك، وبعدما أعادت النظر، باستنكار، العذاب الذي أضفى على صوته حدة غير معتادة. كانت سجيته المتألمة هي أقل ما كانت تحبه فيه، هذا الإشفاق المسرحي الباهت على الذات. «سوف تصبح رجلا في العام المقبل»، قالت بثبات وحزم. كان صوتها قد أضحى أقل يقينا، وكان محملا بنبرة افتراض متفائلة: «هل ستتذكر كل الأشياء التي تحدثنا عنها؟»

أرسلت له بطاقة بريدية من مارسيليا، وأطلعت تلاميذ فصلها

(*) وردت بالعربية [المترجم].

على الصور الفوتوغرافية التي التقطها أحدهما للآخر، والصور الخاصة بالقائد. كان الأطفال منبهرين بعمامة القائد الضخمة، «هل هو بدوي؟» سأل أحدهم.

عندما غادرت مكتب السفارة الفرنسية كانت تعرف أن هذه كانت السنة الأخيرة التي ستعود فيها إلى الصحراء. لم يكن فقط العداء الرسمي من جانب الموظف المسؤول أو الارتياب المعبر عنه بشكل سافر: بل كانت هذه هي المرة الوحيدة التي جعلها فيها تجيب عن قائمة من الأسئلة التي وجدتها مفزعة. فقد أراد أن يعرف أي موضوعات تدرِّسها في مدرسة فرلوفر، وإن كانت قد عملت من قبل كصحافية، وعلى وجه التحديد في أي مكان من المفترض أن تقضي يومها بعد وصولها إلى الصحراء. ردت عليه بشكل استفزازي حاسم وسريع قائلة: «أذهب إلى حيث أشعر بالرغبة في الذهاب. لا أضع خططا». لكنها أتت بالكاد على ذكر اسم الواحة. كانت تعرف أن الرجال الفرنسيين لم يكونوا يكنون أي احترام للسيدات السويسريات الكبار في السن اللائي يلبسن الجوارب الصوفية؛ فكان هذا يجعلهم ببساطة أكثر خسة في نظرها. ومع ذلك، فقد كانوا هم من يتحكمون في الصحراء.

كان اليوم الذي دخلت فيه السفينة إلى الميناء الغربي لأفريقيا يوما ماطرا. كانت تعرف أن طرقات المدينة الرمادية المنحدرة المزودة بشرفات كانت هناك في الظلام في المقدمة، إلاّ أنها كانت غير مرئية. كانت الملابس الأوروبية البالية لعمال رصيف الميناء مشبعة بمياه الأمطار. في ما بعد، بدت لها المدينة المبتلة عن آخرها بمياه المطر غريبة ومزعجة، وبدا الناس الذين يمرون

على امتداد الشوارع غير سعداء. كان التغيير، حتى عن السنة الماضية، ضخما، وقد جعلها الذهاب والجلوس في مقهى كبير واسع وبارد، حيث كانت ترغب في تناول القهوة عقب العشاء، تشعر بالحزن، ولذا عادت إلى الفندق الذي كانت تنزل فيه ونامت. في اليوم التالي استقلت القطار إلى «بريجوكس». ظل المطر يسقط معظم اليوم. وفي بريجوكس استأجرت غرفة في أحد الفنادق قرب المحطة، ولم تبرحها، وهي تنصت إلى صوت قعقعة المطر في أحد المزاريب أسفل نافذتها. «سيكون هذا المكان نموذجا مثاليا للجحيم»، هذا ما كتبته في تلك الليلة إلى صديقة لها في بازل قبل أن تذهب لتنام. «مثال كامل للتفسخ الاجتماعي تم تحقيقه عن طريق فرض التهجين الثقافي. تم إفساد العامة والحط من قدرتهم وخلق عداوات عن طريق استغلال الأجيال بطريقة لا رحمة فيها. سأستقل قطار السكة الحديد الضيقة الصغير المتجه إلى الجنوب غدا صباحا إلى حيث الأرض الأكثر سعادة، وأنا واثقة من أن صديقتي الشمس ستطلع في بعض الأوقات أثناء اليوم، تحياتي القلبية وسلامي إلى العزيزة ماريا».

بينما كان القطار يزحف متقدمًا صوب الجنوب، إلى أعلى أرض الهضبة الواسعة المرتفعة، كانت السحب تختص وقد بسطت الشمس سطوتها على الريف. كانت الآنسة ويندلينج تجلس بانتباه بجانب نافذة متسخة، وهي تشعر بالحزن المتزايد يغلفها. طوال الفترة التي كان المطر يسقط فيها، كانت تتصور أن المطر من بين أسباب اكتئابها، فقد كان ضوء السحاب الرمادي

يضفي معنى غير مألوف على المنظر عن طريق تغييره للأشكال والمسافات. وقد استوعبت الآن أن معالم وتضاريس الصحراء الأكثر ألفة وتمييزا كانت على وشك ألا تصبح أكثر إدراكا ووعيا من جانبها؛ لا لسبب سوى أن هذه كانت آخر زيارة لها.

بعد يومين، عندما توقفت الشاحنة لإنزالها، كان بوفيلجا واقفا في الشمس بجانب إحدى الصخور وهو يلوّح لها، وكان معه أحد الرجال من القرية لمساعدته في حمل الأمتعة. بمجرد انطلاق الشاحنة وتلاشي سحابة الغبار الأصفر التي خلفتها عبر صحراء الحمادة، كان هناك صمت، ولم يبد أن ثمة صوتا بإمكانه أن يغطي على صوت أحذيتهم وهي تسحق الأرض.

«كيف حال سليمان؟» سألته. كان بوفيلجا غير محدد وغير واضح في إجابته. «إنه بخير»، قال، وأضاف، «يقولون إنه حاول الهرب. لكنه لم يصل إلى مكان بعيد جدا». قد تكون الإشاعة حقيقية، وربما تكون غير صحيحة؛ على أي حال فقد قررت ألاّ تأتي على ذكرها إلاّ إذا ذكرها سليمان بنفسه أولا.

كانت تشعر براحة غير عادية عندما اقتربوا من حافة المنحدرات الصخرية وتمكنت من رؤية القرية عبر الوادي، لكن ليس قبل أن قامت بجولات في البيوت حيث يعيش أصدقاؤها، لتناقش معهم مشكلاتهم وتترك بعض الحبوب وأقراص الدواء الدوائية هنا وبعض والحلوى هناك، حتى اقتنعت بأنه لم يحدث تغيير مهم في الواحة في أثناء غيابها. ذهبت إلى بيت عائلة سليمان، ولم يكن سليمان موجودا هناك. «قل له أن يأتي ليراني»، قالت لوالده، بينما كانت تغادر البيت.

في صبــاح اليوم الثالث لوصولها ظهر ســليمان، وظلّ واقفا هناك في المدخل وهو يبتســم. وبمجرد أن حيته أجلسته وجعلته يتناول القهوة معها، وأخذت تمطره بوابل من الأسئلة عن الحياة فــي القرية في أثناء فترة وجودها في أوروبا. أخبرها ســليمان أن بعضــا من أصدقائه قد ذهبوا ليصبحوا من الوطنيين، وأنهم يقتلون الفرنســيين مثل الذباب. تحطم قلبها لما سمعته لكنها لم تقل شــيئا. بينما كانت تراقبه وهو يبتســم، كانت مبتهجة بشدة لفكرة أن سليمان كان منفتحا ويسهل الوصول إلى أعماقه، وعلى الرغم من كل شــيء، كان بإمكانها أن تثبــت أن بالإمكان تكوين أصدقاء حقيقيين صادقين ممن هم أصغر سنا. لكن بينما كانت تقول له: «كم أنا ســعيدة لرؤيتك، يا سليمان»، تذكرت أن وقتهما معا أصبح محدودا، فاعتــرى وجهها تعبير من الألم بينما كانت تختم عبارتها. «يجب عليّ ألاّ أنطق له بكلمة عن هذا الموضوع»، قررت. فإذا ظل سليمان، على الأقل، يعيش في الوهم غير المحدد عن الزمن الممتد في المســتقبل، فسوف يحتفظ بطريقة ما بهالة البراءة والنقاء التي له، وســوف تشــعر هي بعذاب أقل في أثناء الوقت الذي يقضيانه معا.

نزلا معا في أحد الأيام إلى الوادي لرؤية القائد، ومناقشــته فــي مخطط الرحلة الطويلة إلى العبادلة. وفي اليوم التالي عند الفجــر انطلقا لزيارة ضريح مولاي «علي بن ســعيد». حيث كان هناك ينبوع ماء ســاخن. كان المكان عبارة عن واحة صغيرة على مشارف قمة كثيب من الكثبان الرملية، وكان هناك ما يقرب من خمســين نخلة حول المقام المتهدم. وهناك فــي ظلال الصخور

أسفل الحوائط الصخرية كان هناك صهريج متهدم يتدفق الماء الفائر فيه. فرشا البطاطين فوق الرمل في مكان مجاور للضريح، أسفل شجرة طرفاء صغيرة، وتناولا غداءهما. وقبل أن يشرعا في الأكل، شربا حفنات قليلة من الماء، الذي قال عنه سليمان إنه معروف بقداسته. كان سعف النخيل يصدر أصوات خشخشة وهسيس في الريح فوق رأسيهما.

«أرسل الله الريح لأجلنا كي تجعلنا نشعر بالبرودة بينما نأكل»، قال سليمان عندما انتهى من تناول تمراته.

«كانت الريح هنا بشكل دائم»، ردت هي بلا مبالاة، «وستكون هنا دائما».

وهي تراقب سليمان وهو يقف في الجانب من الصهريج الخرب ويتخذ المظهر التقليدي لشخص على وشك أن تلتقط له صورة، خطرت في رأسها فكرة. سوف تقوم لأجل ليلة عيد الميلاد المجيد، والتي ستحل في غضون الأسبوعين القادمين، بعمل منظر لميلاد المسيح. وسوف تدعو سليمان ليأكل معها وهما جالسان بجانب المدفأة، وعندما ينتصف الليل سوف تأخذه وتريها له.

بعدما انتهت من تصوير سليمان، لملما أغراضهما ورحلا في الاتجاه المعاكس لريح بعد الظهيرة الساخنة صوب القرية. في بعض الأحيان كان الرمل يندفع بقوة، ويلسع وجهيهما بأهدابه الدقيقة غير المرئية. كانت الآنسة ويندلينج تتقدم المسيرة في هذه المرة، وكانا يسيران بسرعة. كانت صورة منظر لميلاد المسيح، المضاءة بواسطة الشموع، قد خطرت لها عدة مرات

وهــي في طريــق عودتها فوق الصخور المتراميــة في الصحراء الرملية الواسعة، وجعلتها تشــعر بحزن يفوق الوصف، لأنها لن تتمكــن من ربــط هذا بحقيقة أن كل شـــيء كان في طريقه إلى الانتهاء. وصلا إلى بقعة في شــمال القرية حيث كانت الصحراء الصخريــة المترامية الأطراف يقطعها من طــرف إلى آخر نهر الوادي المتدفق. عندما تسلقا ببطء إلى أعلى قمة الرمل الناعم، وجدت نفســها تهمس: «إن هذا هو الشيء الصائب الذي يتعين القيام به». وفكرت، «صائب، ليست الكلمة المناسبة»، ولم تستطع أن تجد كلمة أحســـن منها. كانت ستقدم على عمل لوحة ميلاد المســيح لأنها كانت تحب ليلة الميلاد، ولأنها أرادت أن يشـــاركها سليمان هذه الليلة. وصلا إلى الفندق بعد الغروب بوقت قصير، وقامت بإرســـال سليمان إلى بيته لكي تجلس لتخطط مشروعها على الورق.

أدركت فقط عندما شـــرعت بالفعل في وضع تصميم منظر الميلاد مقدار العمل الذي ســوف يتعين بذله. في وقت مبكر من صباح اليوم التالـــي طلبت من بوفيلجا أن يعثر لها على صندوق خشبي قديم. وقبل أن يمر نصف ساعة على انهماكها في العمل، ســمعت صوت ســليمان يتحدث في المطبخ، فدفعت بسرعة كل شيء تحت السرير وخرجت إلى الشرفة.

«ســليمان، أنا مشــغولة جدا، تعال بعد الظهر»، قالت، وبعد ظهر ذلك اليوم قالت له إنه نظرا إلى أنها ســتصبح مشغولة في كل صبـــاح حتى إلـــى ما بعد يوم الاحتفال بميلاد يســـوع الابن، فإنهما لـــن يتمكنا من القيام بأي مشـــاوير طويلة في أثناء تلك

الفترة. تلقى سليمان الخبر بتجهم، وقال: «أعرف. أنت تستعدين لليوم المقدس. أنا أفهم هذا».

«عندما يجيء اليوم المقدس، سنعمل وليمة».

«إذا أراد الله»، قال.

«أنا آسفة»، قالت وهي تبتسم.

هزّ سليمان كتفيه وقال لها «إلى اللقاء إذن».

كانا لا يزالان يسيران بعد كل ظهيرة في الواحة أو يتناولان الشاي على السطح، لكن فترات الصباح كانت تقضيها في غرفتها تقوم بأعمال الخياطة، والدق والنحت. بمجرد انتهائها من بناء المنصة الخشبية، كان عليها أن تعمد إلى تشكيل الشخصيات. أحضرت كتلة كبيرة من طمي النهر إلى غرفتها. وتمكنت في غضون يومين من تنفيذ تمثال العذراء الذي سرها شكله النهائي. ومن قطعة قماش صغيرة من الموسلين شكلت خيمة متقنة لإيواء الأم والطفل في عش من ريش الدجاج الأبيض الصغير، وشقت بشكل طولي بعض أوراق إبرية من شجرة طرفاء مهملة وصنعت منها سجادة جيدة لتضعها داخل الخيمة. ثم سكبت الرمل خارج الخيمة وغرست فيه بعمق أرجل الجمال الطويلة، كان أحد الجمال يسير خلف الآخر فوق أحد الكثبان، وكان يجلس فوق كل واحد منها بشكل مستقيم رجل ماجوس يرتدي جلبابا أبيض تتدلى أطرافه الطويلة المدببة على جانبي الجمل. سيأتي الرجال الماجوس(*) محملين بأجولة اللوز وشيكولاتة الليكوير الصغيرة جدا والملفوفة في الورق الفضي الملون. عندما انتهت من تنفيذ

(*) إشارة إلى الماجوس الثلاثة الذين قادتهم النجمة التي ظهرت في الشرق إلى مهد يسوع في بيت لحم [المترجم].

لوحة الميلاد، وضعتها علـى الأرض في منتصف الغرفة ورصت أكوام اليوسـفي والتمر أمامها، بالإضافة إلى صف من الشموع خلفها، وشـمعة واحدة على كل جانب في المقدمة منها، سـوف تبدو مثل لوحة دينية إسلامية ملونة مطبوعة حجريا. كانت تأمل أن يكون المنظر مميزا بالنسـبة إلى سليمان، فعندئذ من الممكن أن يقتنع بسهولة أكثر بالحقيقة الشاعرية للمشهد. أرادت فقط أن توحـي له بأن الله الذي كان سـليمان مرتبطـا معه بعلاقة حميمة هو نفسـه الإله الذي يعبده النصـارى. ولم تكن لتحاول أبدا أن تعبر له عن هذه الفكرة عن طريق الكلمات.

ستكون هناك مفاجأة إضافية في هذه الأمسية وهي الفلاش الجديـد الملحق بكاميرتها، والذي لم يكن سـليمان قد رآه حتى تلـك اللحظة. اعتزمت أن تلتقط الكثير من الصور لمنظر الميلاد ولسـليمان وهـو ينظر إليها، وسـوف تكبِّر هذه الصـور لتريها لتلاميذها. كما ذهبت واشـترت عمامة جديدة لسـليمان، لأنه حتـى الوقت الراهن ولما يزيد على سـنة لم يكن يرتدي عمامة. وكانت هذه العمامة لرجل بالغ، وكانت رائعة جدا: عشـرة أمتار من أنعم الأقطان المصرية.

في اليوم الذي سـبق يوم عيد الميلاد ظلت الآنسـة ويندلينج مستغرقة في النوم، فقد خدعتها السماء الملبدة بالغيوم. في كل شتاء كانت تمر على الواحة بضعة أيام مظلمة، وكانت تلك الأيام نادرة، لكن هذا اليوم كان أحدها. بينما كانت لاتزال مستلقية في السرير، سمعت هدير الريح، وعندما نهضت لتطل من النافذة لم تجد أثرا للعالم في الخارج - لا يوجد سوى ضباب وردي رمادي

خافت كان يخفي أو يطمس معالم كل شـــيء. وكان الرمل المدوم يترذذ في موجات بلا توقف أمام الزجاج، وقد اتخذ شــكل كتل رملية على أرضية الشرفة. عندما ذهبت لتناول إفطارها، كانت ترتدي برنســـها وتضع قلنســـوته حول وجهها. كان صوت الريح العاصف عندما خرجت إلى الشــرفة قد أصابها بأثر اصطدام ناتج عن شـــيء صلب، وكان الرمـــل يصدر صريرا على الأرضية الخرسانية تحت حذائها. كان بوفيلجا قد أحكم إغلاق الضلفات الخشـــبية في حجرة الطعام، قام بتحيتها بطريقة حماســـية من داخل الحجرة المظلمة، وكان سعيدا بوجودها هناك.

«يوم سيئ جدا لاحتفالك، للأسف، يا آنسة»، أبدى ملاحظته بينما كان يضع إبريق القهوة على المائدة.

«الاحتفال غدا»، قالت، «إنه يبدأ الليلة».

«أعـــرف. أعـــرف». كان نافد الصبـــر في ما يتعلـــق بولائم واحتفالات النصارى لأن الســـاعات التي تبدأ فيها وتنتهي كانت تؤدى مراســـمها بطريقة غير متقنة بالمرة. أعيـاد المسلمين تبدأ في وقت محدد، إمّا في وقت الغروب أو قبل الشـــروق بســـاعة، أو عندما يظهر الهلال لأول مرة بشكل واضح في الجهة الغربية من الســـماء في الشـــفق. لكن النصارى يبـــدأون أعيادهم متى شعروا بأنه يجب عليهم بدؤها.

قضت فترة الصباح في غرفتها تكتب خطابات. وعند الظهر كان الجو في الخارج أكثر قتامة ولا يزال محملا بالرمال، وكانت الريح تهزّ قمم الفندق فوق صخرته المقام عليها كما لو أنها سوف تطـــوح به من فوق قمم أشـــجار النخيل التي تحته إلى حيث قاع

النهر. نهضت عدة مرات وذهبت إلى النافذة لتحدق في الخارج حيث الفراغ القرنفلي خلف الشرفة. كانت العواصف تجعلها تشعر بالسعادة، وعلى الرغم من ذلك تمنت لو أن هذه العاصفة كان بإمكانها المجيء بعد عيد الميلاد. كانت قد تخيلت ليلة صحراوية صافية - باردة، تسطع فيها النجوم، وتنبح الكلاب من الواحة. حتى الآن قد تكون هذه هي تلك الليلة الجميلة، فلايزال هناك متسع من الوقت، فكرت، بينما كانت ترتدي برنسها من فوق رأسها لتذهب لتناول الغداء.

كانت المدفأة، بسبب الرياح، نعمة غير أكيدة، فإضافة إلى الحرارة التي كانت تبعثها، وإلى أنها كانت المصدر الوحيد للضوء في حجرة الطعام، إلاّ أن الدخان الذي كانت تبعثه بقوة كان يلسع عيني الآنسة وحلقها. كانت الضلفات الخشبية تقعقع وهي ترتطم بالنوافذ وتقرعها بعنف مرارا وتكرارا، وقد غطى صوتها على صوت الريح نفسها.

خرجت الآنسة ويندلينج على الفور من حجرة الطعام بمجرد انتهائها من الأكل، وأسرعت عائدة إلى غرفتها وجلست في ظلمة بعد الظهر التي كانت تنقضي ببطء، بينما كانت مستمرة في كتابة خطاباتها وهي تنتظر أن يخبو ضوء النهار تماما، كان سليمان سيأتي في تمام الساعة الثامنة. سيكون هناك متسع من الوقت يكفي لحمل كل شيء إلى حجرة الطعام قبل أن يحضر، وكذلك لإنارة لوحة الميلاد في الجزء البعيد المظلم غير المستغل فيها والذي كان من المستبعد أن يذهب إليه بوفيلجا، لكن عندما همت بأن تفعل هذا، وجدت أن الريح كانت أقوى بكثير مما

تخيلت. كررت الرحلة بين الغرفة وحجرة الطعام مرارا وتكرارا، وهي تحمل كل قطعة من اللوحة ملفوفة بعناية في برنسها. وفي كل مرة كانت تمر أمام المطبخ كانت تتوقع أن يفتح بوفيلجا الباب ويكتشف أمرها. ولم تكن راغبة في أن يكون بوفيلجا موجودا هناك عندما تطلع سليمان على لوحة الميلاد، بإمكانه أن يراها في صباح اليوم التالي عند الإفطار.

نجحت الآنسة ويندلينج، محتمية بضوضاء العاصفة، في نقل جميع القطع إلى الركن البعيد المظلم في حجرة الطعام من دون أن ينتبه بوفيلجا. قبل العشاء بفترة طويلة كانت لوحة الميلاد على أتم الاستعداد، لا ينقصها سوى إشعال الشموع كي تصبح حية ومتوهجة تماما. تركت علبة أعواد الثقاب على المائدة بجانب اللوحة، وأسرعت عائدة إلى غرفتها لترتيب شعرها وتغيير ملابسها. كان الرمل قد تسلل مخترقا ملابسها وأصبح الآن في كل مكان، بل وتسلل إلى أسفل ملابسها الداخلية مباشرة والتصق بجلدها مثل السكر. كانت ساعتها تشير إلى ما بعد الثامنة بعدة دقائق عندما مضت إلى خارج غرفتها.

لم يكن هناك سوى مكان مخصص لشخص واحد على المائدة. انتظرت، بينما كانت الضلفات الخشبية ترتج وتلتصق بالجدار، حتى ظهر بوفيلجا حاملا سلطانية الحساء.

«يا لها من ليلة سيئة»، قال.

«لقد نسيت أن تجهز مكانا لسليمان»، قالت له. إلاّ أنه لم يعرها انتباهه، وصاح بصوت عال «إنه غبي!» وبدأ في صب الحساء.

«انتظـــر!» صاحت، «ســـليمان آت، ويجب علـــيّ ألا آكل حتى يجيء».

لايزال بوفيلجا غير متفهم. «أراد أن يدخل إلى حجرة الطعام، وهو يعرف أن هذا ممنوع في وقت تناول العشاء»، قال.

«لكنني دعوته!»، قالت وهي تنظر إلى طبق الحســـاء الوحيد الموضوع على المائدة، ثم أكملت قائلة: «قل له أن يدخل، وأعد له طبقا آخر».

كان بوفيلجا صامتا. وقام بوضع المغرفة في السلطانية، «أين هو؟» ســـألته، ومن دون أن تنتظر منه إجابة واصلت قائلة: «ألم أخبرك أنه كان سيتناول عشاءه معي الليلة؟» ثم ارتابت فجأة في أن تكون رغبتها الســـرية قد جعلتها تهمل إخبار بوفيلجا بدعوة سليمان.

«إنك لم تخبريني بأي شـــيء»، قال لهـــا وأردف: «ليس لدي علم، لقد أرسلته إلى بيته، لكنه سيعود بعد العشاء».

«آه، بوفيلجا!» صاحت، «أنت تعرف أن سليمان لا يكذب أبدا».

خفض بصره ونظـــر إلى وجهها بنوع من اللوم. «أنا لا أعرف شـــيئا عن خطط الآنســـة»، قال في حزن. وجعلهـــا هذا تعتقد، لحظة خاطفة، أنه قد اكتشف أمر لوحة الميلاد، لكنها قررت أنه لو كان يعرف شيئا لكان قد تكلم من دون ريب.

«نعـــم. نعم. أعـــرف. كان يجب عليّ أن أخبـــرك، إنه خطئي أنا».

«هذا صحيح، يا آنســـة»، قال. لاحظت الآنسة ويندلينج وهو يقـــدم لها بقية أصناف الطعام الصمـــت الوقور الذي كان عليه،

إلاّ أنها وهي لاتزال تشعر ببعض الاستياء منه، لم تحثه على أن يقطع هذا الصمت. فقط عند نهاية الوجبة، عندما دفعت كرسيها إلى الخلف بعيدا عن المائدة وجلست تتعم النظر في أشكال اللهب في المدفأة، قرر بوفيلجا أن يتكلم، «هل ستتناول الآنسة القهوة؟».

«أرغب في تناول القليل»، قالت، وهي تحاول أن تجعل صوتها محملا بنبرة حماسية، «حسنا»(*)، تمتم بوفيلجا، وتركها في الحجرة بمفردها. وعندما عاد بوفيلجا حاملا القهوة، كان سليمان في صحبته، ولاحظت الآنسة أنهما كانا يضحكان، وكأنه ليس هناك سوء تفاهم بشأن موضوع العشاء. وقف سليمان لحظة عند الباب، وهو يدق الأرض بقدميه وينفض الرمل عن برنسه. وعندما تقدم كي يأخذ يدها، صرخت قائلة: «آه، يا سليمان، إنه خطئي أنا، لقد نسيت أن أخبر بوفيلجا. إن هذا فظيع!»

«ليس هناك خطأ، يا سيدتي، فهذا احتفال»، قال سليمان في رصانة ووقار.

«نعم، هذا احتفال»، قالت مرددة، «ولا تزال الريح تعصف. انصت!»

لم يشرب سليمان القهوة، ولكن بوفيلجا شرب بناء على ضغط منها، تركها تصب له فنجانا، وشربه وهو واقف قرب المدفأة. شكت الآنسة ويندلينج في أن يكون مسرورا بشكل خفي لأن سليمان لم يتمكن من تناول العشاء معها. عندما انتهى من تناول

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

قهوته، تمنى لهما ليلة سعيدة وذهب إلى السرير في حجرته الصغيرة المجاورة للمطبخ.

ظلا جالسين فترة يشاهدان النار، دون أن يتحدثا. كانت الريح تسرع وهي تمر في الخلاء بالخارج، وكانت تصفق الضلفات الخشبية التي ما انفكت تصدر طرقاتها. كانت الآنسة ويندلينج مرتاحة البال، فحتى لو كان الجزء الأول من الاحتفالية قد سار على نحو خاطئ، فلايزال بالإمكان أن تكون بقية الليلة مبهجة مرضية.

انتظرت الآنسة ويندلينج حتى تأكدت من أن بوفيلجا قد ذهب إلى السرير فعلا، ثم تناولت حقيبتها وأخرجت منها كيسا بلاستيكيا صغيرا ممتلئا بشيكولاتة الكريمة، حيث وضعته على المائدة.

«كل»، قالت من دون اهتمام، وأخذت منه قطعة لنفسها. مد سليمان يده بقليل من التردد وأخذ الكيس. عندما كانت الشيكولاتة في فمه، شرعت الآنسة في التحدث. كانت تعتزم أن تخبره بقصة ميلاد السيد المسيح، وهي موضوع كانت قد تطرقت إليه بالفعل مرات كثيرة في أثناء رحلاتهما، لكن بشكل عابر فقط. أحست هذه المرة أنه ينبغي عليها أن تخبره بالقصة كاملة. وتوقعت منه أن يقاطعها عندما يكتشف أنها قصة دينية، لكنه فقط أبقى عينيه الخاليتين من المعنى مسلطتين عليها وهو يمضغ بطريقة آلية، مبينا لها بين الحين والآخر أنه يتابعها عن طريق إيماءات من رأسه. بدأت تستغرق في ما كانت تقوله، وأخذت في استخدام ذراعيها

لتصدر بهما إشـــارات كبيرة. تناول سليمان قطعة أخرى من الشيكولاتة وواصل الاستماع.

ظلت الآنســة تتكلم ســاعة أو أكثر، وهي مدركة، كما لو من بُعــد فصاحتها الخاصــة. عندما أخبرته عــن بيت لحم كانت تصــف بالفعل قرية ســليمان، وكان بيت يوســف النجار ومريم هو البيت الموجود في الأسفل عند القصر(*) حيث ولد سليمان. تقوس ســماء الليل فوق «أويد زوســفانا»، وسطعت نجومه على صحراء الحمــادة الباردة. وعبر الصحــراء المترامية الأطراف جاء الماجوس الثلاثة فوق جمالهم يرتدون البرانس والعمامات، وتوقفوا فــوق قمة آخر كثيب رملي كبيــر ليتطلعوا إلى الوادي حيث كانت تمتد القرية المظلمة. وعندما انتهت الآنسة ويندلينج من قصتها، تمخطت.

بدا سليمان في حالة تقترب من الغيبوبة. ألقت بنظرة سريعة عليه، وتوقعت منه أن يتكلم، لكن لأنه لم يفعل شيئا، فقد نظرت إليه بعناية أكثر. كانت عينــاه تبعثان على القلق، عينان خاليتان من التعبيــر، وعلى الرغم من أنهما كانتــا مثبتتين على وجهها، فقــد كان بإمكانهــا أن تقول إنــه كان ينظر إلى شــيء ما أبعد كثيرا منها. تنهدت، لم تكــن تريد اتخاذ قرار يؤدي إلى إفاقته. فرضيــة أنها كانت ترغــب في إمتاعه، إن لــم تكن مدركة جدا لاســتحالتها، كانت تعني أن الولد بطريقة ما قد أسرته وجذبته القصة الشــعرية، وأنه كــان يستعــرضها في خيــاله. «بالتأكــيد لا يمكــن أن يكون هــذا هو الأمر»، قــررت، كان الأكثر ترجيحا

(*) وردت بالعربية [المترجم].

أنـــه قد توقف منذ بعض الوقت عن الإنصات لكلماتها، وأنه كان جالســا هناك وحســب، وأنه قد أدرك بطريقة غامضة أنها قد وصلت إلى نهاية القصة.

بعد ذلك تحدث ســليمان: «أنت محقة، كان ملك الماجوس». التقطت الآنسة ويندلينج أنفاسها وانحنت إلى الأمام، لكنه واصل قائلا: «وبعد ذلك أرســل الشيطان حية ذات رأسين، وقام يسوع بقتلها. كان الشيطان غاضبا من يسوع. وقال له الشيطان: «لماذا قتلت صديقتي؟ هل كان من المحتمل أنها أرادت أن تؤذيك؟» وقال له يســوع: «لقد عرفت من أين جاءت». وكان الشــيطان مرتديا برنسا أسود. هذا صحيح»، أضاف، بينما رأى على وجهها تعبيرا اعتبره دلالة على عدم التصديق.

اعتدلت الآنسة، جلست مستقيمة وقالت: «سليمان، ما الذي تتحدث عنه؟ ليســت هناك قصص مثل هذه عن يسوع. ولا عن سيدنا عيســـى أيضا». لم تكن متأكدة من دقة تصريحها الأخير عن ســيدنا عيســـى، كان من الممكن، هكذا افترضت، أن توجَد مثل هذه الأســـاطير بين هؤلاء الناس. «أنت تعرف أن تلك مجرد قصص وأنها لا تمت إلى الحقيقة بصلة».

لم يتمكن ســليمان من ســماعها لأنه كان قد شــرع بالفعل في التحــدث قائلا: «أنا لا أتحدث عن ســيدنا عيســـى»، قـــال بثبات وصرامة. أنا أتحدث عن يســوع، نبي النصارى. الجميع يعرفون أن الشيطان أرسل له حية ذات رأسين».

أنصتت الآنســـة لصوت الريح للحظـــة، «آه»، قالت، وتناولت قطعة أخرى من الشــيكولاتة، وهي لا تعتزم التطرق في النقاش

إلى حدود أبعد من هذا. بعد ذلك بفترة قصيرة فتشت في حقيبتها مرة ثانية وأخرجت منها العمامة، التي كانت ملفوفة في منديل ورق كبير من نسيج رقيق أحمر في أبيض.

«هذه هدية لك»، قالت وهي تناولها له. أمسك بها سليمان بطريقة آلية، ووضعها على حجره وظل يحدق فيها. «ألن تقوم بفتحها؟» سألته.

أومأ برأسه مرتين ومزّق الورق الخفيف فاتحا إياه. عندما رأى لفة من القطن الأبيض ابتسم. بعدما رأت الحياة تدب أخيرا في وجهه، رفعت نفسها إلى أعلى، وصرخت بقوة «دعنا نضعها على رأسك!». أعطاها سليمان طرفا من طرفيها، شدته بإحكام عن آخره بعدما سارت حتى وصلت إلى باب الحجرة. بعد ذلك رفع سليمان الطرف الآخر بيده إلى جبهته، وظل يدور ببطء مرارا وتكرارا، وهو يقترب منها في أثناء دورانه، وهو يرتب ويسوي هيئة العمامة وهو يلفها حول رأسه. «رائع!» صاحت. اقترب سليمان من صف النوافذ المظلمة لكي يتطلع إلى نفسه والعمامة في زجاجها.

«هل بوسعك أن ترى؟» سألته.

«نعم. بإمكاني أن أرى جانبيها»، قال لها، وأضاف، «إنها جميلة جدا».

تقدمت إلى الأمام نحو منتصف الحجرة. «أريد أن ألتقط صورة لك، يا سليمان»، قالت، فرأت نظرة حيرة فورية بدت على وجهه. «هل بإمكانك أن تسدي لي صنيعا؟ اذهب إلى غرفتي وأحضر لي الكاميرا».

«في الليل؟ هل بإمكانك أن تلتقطي صورة في الليل؟»

أومــأت بالموافقة، وهي تبتســم بشــكل غامــض، وأضافت «وأحضر لي الصندوق الأصفر من فوق السرير».

أبقى ســليمان العمامة فوق رأســه، وارتدى برنسه، وأخذ كشافها الضوئي ومضى إلى الخارج، تاركا الريح تصفق الباب خلفه. تمنت الآنســة ويندلينــج ألاّ يكون الصــوت قد أيقظ بوفيلجــا، لأنها راحت تنصت للحظة فــي حين لم يكن هناك من صوت ســوى هزيم الهواء المندفع عبــر الممر في الخارج. ثــم جرت إلى الركن البعيد في الحجرة وأشــعلت عود ثقاب، وراحت بســرعة تشــعل جميع الشــموع المحيطة حول منظر الميــلاد، وعدّلت من وضع أحد الجمال فــي الرمل ثم عادت مرة ثانيــة إلى الركن قرب المدفأة. لم يكــن في مقدورها أن تتصور أن الشــموع يمكن أن تبعث بالكثيــر جدا من الضوء. وفــي الوقت الحالي صــار الطرف الآخر مــن الحجرة أكثر إضــاءة من الطرف الــذي كانت تقف فيه. علــى الفور انفتح الباب فجأة ورجع ســليمان وهو يحمــل الكاميرا وقد علقها علــى كتفه. وضع الكاميرا بعناية فوق المائدة، وقال لها: «ليس هناك صندوق أصفر على السرير». ثم التقطت عيناه بسرعة خاطفة الخفقان الإضافي غيــر المألوف للضوء المرتمي على الجــدران البعيدة، فتقدم إلى منتصف الحجرة. رأت الآنســة ويندلينج أن هذه هي اللحظة المناسبة، «تعال»، قالت وأمسكت ذراع ســليمان وجذبته برقة قرب الركن إلى حيث كانت لوحة الميلاد مرئية في شكلها النهائي، وهي تلمع وتتوهج بفعل ضوء

الشموع المرتعش الساقط عليها. لم يقل سليمان شيئا، توقف عن السير ووقف ساكنا تماما. وبعد لحظة من الصمت، جذبت ذراعه بتردد، وشجعته قائلة: «تعال وانظر». واصلا السير نحو لوحة الميلاد، وعندما وصلا تولد لدى الآنسة ويندلينج انطباع بأنها لو لم تكن موجودة هناك لكان سليمان قد قام بمد يده ولمس المنظر، وربما كان سيهم برفع الطفل يسوع المكسو باللون الذهبي من سريره المصنوع من ريش الدجاج. لكنه كان واقفا بشكل هادئ، وهو ينظر إليها. وفي النهاية قال: «هل أحضرت كل هذا من سويسرا؟».

«بالطبع لا!»، كان الأمر محبطا لها بعض الشيء فقد كان من الواجب عليه أن يتعرف على الصحراء في الصورة، وأنه كان يجب عليه أيضا أن يحس بأن تلك الأشياء كانت من بيئته، وأنها ليست مستوردة. «لقد نفذتها هنا»، قالت. ثم انتظرت لحظة وسألته: «هل أعجبتك؟».

«آه، نعم»، قال بانفعال. «إنها جميلة. اعتقدت أنها جاءت من سويسرا».

ولكي تتأكد من أنه قد تسنى له فهم الموضوع، بدأت في التعريف بالشخصيات الواحدة تلو الآخرى، واتخذ صوتها مثل هذه التغير في التعبير غير المعتاد النابع عن الاحترام لدرجة أنه رفع بصره إليها بدهشة في إحدى المرات. كان الأمر كما لو أنها كانت تراها هي أيضا للمرة الأولى. «ووصل الماجوس الثلاثة إلى مكان بعيد خارج الصحراء الصخرية المترامية الأطراف لرؤية الطفل».

«لماذا وضعت كل هذا اللوز هناك؟»، سأل سليمان، وهو يلمس بعضه بسبابته.

«إنها هدايا ليسوع الصغير».

«لكن ما الذي ستفعلينه بها بعد ذلك؟»، تابع.

«نأكلها، ربما، في ما بعد»، قالت بشكل مقتضب. «خذ واحدة إذا أحببت. تقول إنه لم يكن هناك صندوق أصفر على السرير؟» كانت ترغب في التقاط بعض الصور بينما كانت الشموع لاتزال على القدر نفسه من الارتفاع المتساوي.

«لم يكن هناك سوى السترة وبعض الأوراق، يا سيدتي».

تركته عند اللوحة، ثم اجتازت الحجرة وارتدت برنسها. كان الظلام في الممر كاملا، ولم تكن هناك علامة على أن بوفيلجا كان مستيقظا. كانت تعرف أن غرفتها في حالة كبيرة من الفوضى، فأطلقت شعاع الكشاف هنا وهناك فوق الأرضية قبل أن تدلف إليها. في خضم مزيج الأشياء المبعثرة في كل مكان فوق أرضية الغرفة الصغيرة بدا أن هناك فرصة صغيرة للعثور على أي شيء. كان البصيص الضعيف يضيء، بشكل متتابع، الأشكال الخالية من المعنى الناجمة عن تكويم الأشياء المختلفة الواحد فوق الآخر، تحرك الضوء على امتداد السرير، وخلف الستار الرقيق المهلهل لخزانة الملابس. توقفت فجأة ووجهت الشعاع إلى أسفل السرير. كان الصندوق أمام وجهها، كانت قد وضعته بجانب لوحة الميلاد.

«لا بد أنني قد أخطأت»، فكرت، وهي تجري خلال الممر. أجبرت نفسها على أن تبطئ من خطوتها السريعة إلى سير

عادي، دخلت إلى حجـرة الطعام وأغلقت الباب خلفها بحرص. كان سـليمان راكعا على ركبتيه في منتصـف الحجرة، وفي يده شـيء صغير. لاحظت بارتياح أنه كان يسـلي نفسه. «أنا آسفة فقد اسـتغرق ذلك مني وقتا طويلا جدا»، أعلنت في قوة. «لقد نسـيت المكان الـذي وضعته فيه». كانت تنـزع البرنس من فوق رأسها، وقامت بتعليقه الآن على مسمار قرب المدفأة، ثم التقطت الكاميرا والصندوق الأصفر، ومشت بخطى واسعة لتنضم إليه.

ربما كان وميض إحساس بذنب غير واضح في تعبيرات وجهه، عندمـا رفع بصره إلى أعلى، هو الذي جعل عينيها تشـردان على امتداد الأرضية نحو شـيء آخر كان موجودا على مسـافة قريبة، شيء ما شبيه بذلك الذي كان ممسكا به في يده. كان هذا الشيء الملقى في الجوار أحد الرجال الماجوس، وقد تمزق من عند مفصل وركيـه عن مطيته. وكان الرجل الماجوسـي الذي في يد سـليمان سليما، إلاّ أن الجمل كان قد فقد رأسه وجزءا كبيرا من رقبته.

«سـليمان! ما الذي تفعله؟» صرخت بغضب واضح. «ما الذي فعلتـه بلوحة الميلاد؟» تقدمت مقتربة مـن الركن وألقت بنظرة نحوهـا. لم يكن هناك في الواقع ما هو أكثر من صف الشـموع وكومة من الرمال المبعثرة وقد اختلط بها قشـر اليوسفي ونوى البلـح، وكانت مربعات الـورق المفضض ذات اللـون الأرجواني والبرتقالي مطوية بعناية ومغروسـة هنا وهناك في الرمل. وكان الرجال المجوس الثلاثة قد جُندوا في معركة سليمان التي أقامها فوق الأرضية، وتم تدمير الخيمة في الحملة العسـكرية لانتزاع اللوز المكوم داخلها، وتم نهب شيكولاتة «الليكوز من الأجولة التي

كانت تحتــوي عليها. لم تكــن هناك علامة فــي أي مكان تدل على أثر ليســوع الطفل أو ملابسه المصنوعة من قماش اللاميه الذهبي. شعرت بالدموع تطفر من عينيها. ثم ضحكت باقتضاب، وقالت: «حسنا، لقد انتهيت، أليس كذلك؟».

«نعم، يا سيدتي»، قال بهدوء. «هل ستلتقطين الصورة الآن؟» ثــم نهض على قدميــه ووضع الجمل الممزق علــى الأرضية في الرمل إلى جوار الأنقاض والأطلال الأخرى.

تكلمت الآنســة ويندلينج بهدوء واتزان قائلة: «كنت أرغب في التقاط صورة لمنظر الميلاد».

انتظر سليمان للحظة، كما لو كان يستمع إلى صوت بعيد. ثم قال: «هل يجب عليّ أن أرتدي برنسي؟».

«لا!»، وبدأت تخرج الفلاش الملحق بالكاميرا. وعندما انتهت مــن تجهيزه، التقطت الصورة قبــل أن يتاح له وقت كافٍ لاتخاذ الوضع المناســب للتصوير. رأت أن دهشته نفســها إزاء الضوء الســاطع المفاجئ قــد طالت وامتدت وتحولــت إلى مفاجأة من أن الأمر قــد تم بالفعل، ثم تحولت إلى نوع من الاســتياء لكون التصويــر قد تم فــي غفلة منه، غير أنها تظاهــرت بأنها لم تر شــيئا، وراحت تحكم غلق غطاء الكاميرا. كان ســليمان يراقبها وهي تجمع أشــياءها وترتبها. «هل انتهى الأمر؟»، قال بإحباط. «نعم»، أجابت. «ستكون صورة جيدة جدا!».

«إن شاء الله»، قال سليمان بالعربية.

لم تعمد هذه المرة إلى ترديد عبارته الأخيرة بعده. «أتمنى أن تكون قد استمتعت بالاحتفال»، قالت له.

ابتسم سليمان ابتسامة عريضة. «آه، نعم، يا سيدتي. استمتعت أيما استمتاع. شكرا لك».

جعلته يخرج بعيدا إلى ساحة الجمال وأغلقت مزلاج الباب. وعادت بسرعة إلى غرفتها، وتمنت لو كانت هذه الليلة صافية مثل الليالي الأخرى، حيث كان بإمكانها الوقوف في التراس والتطلع إلى الكثبان الرملية والنجوم، أو الجلوس فوق السطح وسماع نباح الكلاب، لأنها على الرغم من تأخر الوقت، لم تكن بها رغبة في النعاس. أخلت سريرها من كل الأشياء التي كانت ملقاة عليه، واستلقت فوقه، وهي على يقين من أنها ستظل مستلقية لفترة طويلة من دون نوم، بسبب الصدمة التي ألمت بها نتيجة للفوضى التي أحدثها سليمان في أثناء الدقائق القليلة التي غابت فيها عنه. على مدار الفصول التي مرت على صداقتهما اعتبرت أن تفكيرها فيه كان باعتباره مثلها أو قريبا جدا إلى نفسها، على الرغم من أنها كانت تعرف أن سليمان لم يكن قريبا إلى نفسها في المرة الأولى التي التقته فيها. وهي الآن ترى كيف أنها خدعت نفسها وسقطت في ذلك الغرور الخطير الباطل والزائف في قلب ذلك الوهم: فقد افترضت بطريقة ما أن مرافقته وصداقته لها، بطريقة تلقائية، كانت شيئا جيدا إلى أقصى حد بالنسبة إليه، لدرجة أنه كان سيمر بعملية تحسن وتطور لا يمكن التغاضي عنها، نتيجة لمعرفته بها. وفي غمرة رغبتها في رؤيتها له وهو يتغير، كانت قد بدأت تنسى ما كان عليه سليمان بالفعل في الأصل. «لن أتمكن من فهمه أبدا». فكرت بشكل يائس، وهي واثقة من هذا كل الثقة لأنها أحست

بأن اقترابها الشديد منه لم يتح لها الفرصة أبدا لأن تكون قادرة على ملاحظته من دون تحيز.

«هذه هي الصحراء»، قالت لنفسها. الطعام هنا ليس للزينة؛ فالغرض منه هو الأكل. لقد قمت بتقديم الطعام، وقام هو بتناوله. وأي نقاش سيلقي باللوم على هذا ويدين الولد يمكن أن يكون خاطئا في النهاية. ولذا كانت ممددة هناك وهي تتهم نفسها، «لقد كان الأمر مثاليا بدرجة متقدمة وراقيا إلى حد كبير جدا»، فكرت بإمعان، «وليس مجرد رغبة أو ميل إلى الشفقة». وفي النهاية غرقت في النوم على صوت الريح.

عندما استيقظت في الفجر رأت أن اليوم سيصبح يوما آخر مظلما. كانت الريح قد هدأت. نهضت وأغلقت النافذة. كانت سماء الصباح الباكر ملبدة بالغيوم. فعادت إلى سريرها وراحت في النوم. كان الوقت متأخرا عن المعتاد عندما نهضت عن سريرها، وارتدت ثيابها ودخلت إلى حجرة الطعام. كان وجه بوفيلجا خاليا من التعبير بشكل غريب عندما ألقى عليها تحية الصباح. فافترضت أن هذا كان بسبب ذكرى سوء التفاهم الذي وقع في الليلة الماضية والتي لم تفارقه بعد، أو من المحتمل أنه كان متضايقا للاضطرار إلى تنظيف بقايا منظر الميلاد. بمجرد أن جلست وبسطت فوطتها فوق حجرها، اعتدل بشكل كاف ليقول لها: «احتفال سعيد».

«شكرا لك، قل لي يا بوفيلجا»، واصلت وقد تغيرت نبرة صوتها، «عندما أحضرت سليمان إلى هنا في الليلة الماضية بعد تناولي العشاء، هل كنت تعرف أين كان؟ هل أخبرك بمكانه؟».

«إنـــه ولد غبي»، قال بوفيلجا، «قلـــت له أن يذهب إلى البيت ويتنـــاول طعامه ويعود في وقـــت لاحق. هل تعتقدين أنه قد فعل ذلك؟ أبدا. فقد ظل طوال الوقت يتجول في أرجاء الفناء، خارج باب المطبخ، في الظلام».

«لقد فهمت!» صاحت الآنسة ويندلينج في فرح، «وبالتالي لم يتناول أي عشاء على الإطلاق».

«لم يكن لديّ شيء لأقدمه له»، بدأ بوفيلجا، وقد تحفز للدفاع عن نفسه.

«لم يكن عليك بالطبع»، قالت بصرامة. «فقد كان ينبغي عليه أن يذهب إلى البيت ويتناول طعامه».

«آه، أترين؟» ابتسم بوفيلجا ابتسامة عريضة، وأضاف: «هذا هو ما قلت له أن يفعله!».

راحت القصة كلها تتجسد في ذهنها على النحو التالي: ليس من المســـتبعد أن يكون سليمان قد أخبره والده وهو واقف بعيدا عنه أنه ســـيتناول طعامه في الفندق مع الســـيدة السويســـرية، وأغلب الظن أن الرجل العجوز قد أتى ببعض الإشـــارات الدالة على الاحتقار لها، ثم غادر سليمان البيت. ولم يكن هناك مجال للتفكيـــر فـــي العودة إلى البيـــت ومواجهة الســـخرية من جانب عائلتـــه، عندما تم منعه من الدخول إلى حجرة الطعام، «يا للولد المسكين»، تمتمت.

«قائد الشـــرطة يرغب في رؤيتك»، قال بوفيلجا، بطريقة من طرقـــه الفجة في الكلام والتي يلجأ فيها إلى اســـتخدام عنصر المفاجأة. أصابتها الدهشة، نظرا إلى أن القائد، العام تلو الآخر،

تم تصدر عنه أي بادرة تدل على أنه كان على دراية بوجودها، فالفندق والحصن كانا مثل مدينتين منفصلتين. «ربما بسبب الاحتفال»، قال بوفيلجا مقترحا، ووجهه يخفي حقيقة ما يخبئه. «ربما»، قالت بارتباك.

وعندما فرغت من تناول إفطارها، سارت إلى الجهة المقابلة حيث بوابات الحصن. بدا أن الحارس كان في انتظارها، وكان أحد الجنديين الفرنسيين الشابين يطلي أحد الكراسي في الفناء الداخلي للحصن. ألقى الجندي الشاب عليها التحية، وقال لها إن القائد في مكتبه. صعدت درجات السلم الطويلة وتوقفت لحظة في أعلاها، وألقت بنظرة إلى أسفل على الوادي ولاحظت، في الضوء الرمادي غير المعتاد، إلى أي مدى كان الوادي مختلفا تماما عما هو عليه في العادة، في هذا اليوم المعتم.

جاءها صوت من الداخل يناديها: «تفضلي بالدخول إذا سمحت!»(*) ففتحت الباب ودخلت إلى الحجرة. كان القائد جالسا خلف مكتبه، تولد لديها شعور قوي غير محبب لأنه سبق لها الوقوف في موقف مشابه لهذا في مناسبة أخرى، وفي مكان آخر. واقتنعت فجأة أنها كانت تعرف ما كان على وشك أن يقوله. أمسكت الآنسة ويندلينج بظهر الكرسي الخالي المواجه للمكتب. «تفضلي بالجلوس، يا آنسة ويندلينج»، قال، وهو ينهض عن مقعده بشكل جزئي، وأشار بذراعه ثم جلس بسرعة مرة ثانية.

كانت هناك عدة خرائط طبوجرافية معلقة على الحائط خلفه، وعليها علامات بالطباشير الأرجواني والأخضر. نظر

(*) وردت العبارة بالفرنسية [المترجم].

القائد إلى مكتبه ثم إليها، وقال في صوت واضح: «إنه لمن سوء الحظ أن أضطر إلى استدعائك إلى هنا في هذه الإجازة». جلست الآنسة ويندلينج على الكرسي، ومالت إلى الأمام، وقد بدا أنها على وشك أن تسند مرفقها إلى مكتبه، لكنها بدلا من ذلك وضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى وعقدت ذراعيها إلى صدرها بإحكام. «نعم؟» قالت، في توتر، وهي تنتظر الرسالة. وعلى الفور جاءتها الرسالة التي كانت على دراية مسبقة بها، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت ممتنة له. قال لها بوضوح إن المنطقة بأكملها قد أُغلقت بالنسبة إلى المدنيين، وأن هذا الأمر ينطبق على المواطنين الفرنسيين بالإضافة إلى الأجانب، ولذلك يجب ألاّ تشعر بتحامل تجاهها. وقد قيلت الجملة الأخيرة مصحوبة بمحاولة رسم ابتسامة تدل على الاستياء والتسليم بالأمر الواقع. «هذا يعني أنه يجب عليك أن تستقلي الشاحنة غدا في الصباح»، وقال القائد مواصلا كلامه: «لقد تم إخطار السائق بالفعل برحلتك. ربما في عام آخر عندما ينتهي الاضطراب... «(لماذا يقول ذلك؟» فكرت، في حين أنه يعرف أن هذه هي النهاية، وأن وقت الصداقة قد انتهى؟») نهض القائد ومدّ يده إليها.

لم يكن بوسعها أن تتذكر خروجها من حجرة المكتب وهبوطها السلم الطويل إلى الفناء الداخلي، إلاّ أنها كانت تقف الآن خارج البوابة التي يقف عليها الحارس بجوار سور الحصن، ويدها على جبينها. «بالفعل، لقد جاء سريعا جدا»، فكرت. وخطر لها أنه لن يتاح لها وقت كاف للقيام بالإصلاح من شأن سليمان

وتحســـينه لذلك فقد كان حقيقيا فعلا أنها لن تتمكن من فهمه أبدا. تقدمت إلى حاجز الشــرفة المنخفــض لتنظر للحظة إلى أســفل حيث حافة الواحة، ثم عادت إلى غرفتها لتشرع في حزم أمتعتهــا. ظلت طوال اليوم تعمل فــي غرفتها، تخرج الصناديق، وهي تجبر نفســها على أن تعمل تركيزهــا فقط على القرارات التــي كانت تتخذها في مــا يتعلق بما كان يتعين عليها أن تأخذه معها أو تتركه بصفة نهائية.

في وقــت الغداء أخذ بوفيلجا يتلكأ قرب كرســيها، ثم قال: «آه، يا آنسة، كم من الأعوام قضيناها معا، وانتهت الآن!». «نعم»، فكرت، لكن لم يكن ثمة شيء للقيام به في ما يتعلق بهذا الشأن. أزعجها رثاؤه أو تفجعه وجعلها عصبية وجافة معه. ثم أحســت بالذنب على نحو كامل، فقالت ببطء وهي تنظر إليه مباشرة: «أنا حزينة جدا، يا بوفيلجا». تنهد قائلا: «نعم، يا آنسة، أعرف!».

وعند مغيب الشــمس زحفت الســحب الكثيفة القاتمة بعيدا عبــر الصحراء، وكانت الســماء الغربية صافية بشــكل جزئي. كانت الآنسة ويندلينج قد انتهت من حزم جميع أمتعتها. خرجت إلى الشرفة، وشــاهدت الكثبان الرملية القرنفلية المتوهجة، ثم صعدت الســلالم إلى الســطح لتشــاهد الغروب. كانت السماء مخططة بمجموعات كبيرة من الســحب شديدة الاحمرار بلون النار. تركت نظرتها المحدقة تتبع بطريقة آلية التواءات وتعرجات وادي النهر الذي راح يضيع نفســه في صحراء الحمادة المظلمة فــي اتجاه الجنــوب. «إن هذا في الماضي»، ذكّرت نفســها، كان هــذا عهدا جديدا بالفعل. بدت الصحراء هناك في الخارج كما

كانت تبدو عليه دائما. لكن السماء، المفتقرة للتناسق، بين اللونين الأحمر والأسود، كانت مثل الإعلانات اليدوية التي انتشرت فوقها مباشرة، تعلن قدوم الحرب.

كانت خيانة، هكذا فكرت، وراحت تهبط السلالم العالية شديدة الانحدار، وتنقل يدها على امتداد الحائط الطيني الخشن المألوف لتحافظ على ثباتها وتوازنها. كان الفرنسيون بالطبع هم المتهمين. لكن بعيدا عن هذا كانت هي على اقتناع غير مقبول بأن الريف ذاته قد تآمر في الخيانة، بما أنه كان ينتظر ليتحول إلى ساحة للصراع. دخلت إلى غرفتها وأنارت المصباح الزيتي الصغير، وجلست، وأبقت يديها فوق المصباح لتدفئتهما. من ناحية أخرى كان هناك تغيير، فلم يعد الناس راغبين في الاستمرار في العيش في العالم الذي عرفوه. وضغط الماضي أصبح عظيما جدا، وتحطمت محارته الواقية.

بعد الظهر قامت بإرسال بوفيلجا لينقل الخبر إلى سليمان، ويطلب منه أن يحضر إلى الفندق في الفجر. في أثناء وجبة العشاء راحت تناقش بشكل دقيق تفاصيل المغادرة والسفر. وعندما حاول بوفيلجا التطرق في المحادثة إلى اتجاهات عاطفية، لم ترد عليه. كانت مواساته لا تطاق، وكانت هي غير معتادة على التعبير عن قنوطها. عندما وصلت إلى غرفتها ذهبت من فورها إلى السرير. وظلت الكلاب تنبح حتى منتصف الليل.

كان الطقس باردا في الصباح. كانت يدها تؤلمها عندما راحت تجمع أغراضها المبتلة من حوض الغسل فوق المنضدة، وبطريقة ما دفعت شظية على نحو عميق تحت ظفر إبهامها. أخرجت

جزءا منها بواسـطة إبرة، لكن تبقى الجـزء الأكبر منها. مضت إلى الخارج قبل الإفطار.

ووقفـت في أرض قاحلة بين الفنـدق والحصن، ونظرت إلى أسـفل إلى وجـه الريف البـريء. ومضخة الجازولـين المقفلة بالقفل، والمبهجة في طلائها الجديد باللونين الأحمر والبرتقالي، واللافتـة للانتباه في ضوء الشـمس المبكر النقي. وقد بدت لها لبرهة الشيء الوحيد الحقيقي في المشهد. استدارت إلى الوراء. فوق الكتلة المظلمة غير المتناسقة لأشجار النخيل ارتفعت القرية بشـرفاتها، هادئة في الصباح تحت ستار دخان الخشب. أغلقت عينيها للحظة، ثم دخلت إلى الفندق.

كان في مقدورها أن تشـعر بنفسـها وهي جالسة ساكنة فوق كرسيها بينما كانت تشرب قهوتها، وكانت تعرف أنها كانت متحفظة ورسمية في تعاملها مع بوفيلجا لكنها كانت متأكدة من أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي كانت تجعلها قادرة على الاستمرار. وبمجرد أن جاء لإخبارها أن سليمان قد وصل جالبا معه الحمار وصاحبه لحمل أمتعتها، شكرته ووضعت فنجان قهوتها على المنضدة. «هل ترغبين في المزيد؟»، قال بوفيلجا. «كلا»، أجابت. «تناولي فنجانا آخر يا آنسة»، حثها. «إنه جيد في الصباح البارد». وصب فنجانا آخر لها فشـربت بعضا منه. كان هناك صوت طرق على البوابة. كان أحد الجنديين الشابين قد أُرسل بعربة جيب ليقوم بتوصيلها إلى نقطة توقف الشاحنة على الطريق.

«لن أستطيع!» صاحت، وهي تفكر في سليمان والحمار. أوضح الجنـدي أنه لا يقوم بعمل تطوعي، وأنه قد صدر إليه أمر بهذا.

كان سـليمان واقفا بجوار الحمار خارج البوابة. وعندما شرعت في التحدث مع سـليمان صاح الجنـدي: «هل يريد هذا الصبي المجـيء معنا؟ بإمكانه أن يأتي أيضا، إذا أحب». جرى سـليمان ليحضر الأمتعة وأسرعت الآنسـة ويندليـج لتسوي حسابها. «لا تتعجلي»، صاح الجندي إليها، «هناك فسحة من الوقت».

كان بوفيلجـا واقفا في مدخل المطبخ. خطر لها للمرة الأولى أن تتساءل عما سـيحـدث له، فعنـد إغـلاق الفنـدق سيـصبح بلا عمل. عندما انتهت من تسوية حسابها وأعطته «بقشيشا» كان أكبر بكثير مما بوسـعها أن تمنحه، أمسكت بكلتا يديه في يدها وقالت: «عزيزي بوفيلجا، سوف يرى أحدنا الآخر قريبا جدا».

«آه، نعم»، صرخ بوفيلجا وهو يحاول أن يبتسـم. «قريبا جدا، يا آنسة».

أعطت سائق الحمار بعض المال، وصعدت إلى العربة الجيب بجوار الجندي، وكان سـليمان قد انتهى من وضع الأمتعة ووقف خلف العربة، يركل الإطارات. «هل أحضرت كل شـيء؟»، نادت عليه. «كل شـيء؟» كانت ترغب في رؤية كل شيء بنفسها، لكنها كرهـت الرجوع إلى الغرفـة. كان بوفيلجا قد اختفى، وعاد الآن مسـرعا وهو يلهث حاملا كومة من المجلات القديمة. «حسـنا، لا، لا! أنا لا أريدها»، قالت. كانت العربة قد تحركت بالفعل إلى الأمام باتجاه أسـفل التل. وفي غضون وقت كان بالنسـبة إليها قصيرا جدا كانوا قد وصلوا إلى منطقة الصخور. عندما حاولت الآنسة ويندلينج رفع حقيبة يدها بدأت الدموع تطفر من عينيها بسبب الألم الذي سببته بقية الشظية تحت ظفر إبهامها، فتركت

نفسها تنفجر في البكاء. لمحها سليمان فأصابته الدهشة، «لقد أصبت يدي»، قالت له مفسرة، «ليس الأمر خطيرا».

تم رص الحقائب في الظل. كان الجندي الفرنسي جالسا فوق صخرة قرب العربة في مواجهة الآنسة ويندلينج، ومن وقت إلى آخر كان ينعم النظر في الأفق من خلفها بحثا عن أثر للشاحنة. كان سـليمان يتفحـص العربة الجيب من جميـع الجهات، وفي النهايـة جلس على مقربة منها. لـم يقل أحدهما للآخر الكثير. لـم تكن متأكدة إن كان هذا بسـبب الجندي، أو لأن إبهامها كان يؤلمها جدا بشكل مسـتمر، لكنها كانت جالسة في هدوء تنتظر، ولا ترغب في التحدث.

كان قـد مـر وقت طويـل قبل أن يتم سـماع صـوت موتور الشـاحنة. وعندما كانت الشـاحنة لاتزال بعيدة ولا تعدو كونها سـحابة من الغبار بين السـماء والأرض، كان الجندي قد نهض على قدميه وراح يراقبها، وبعد فترة قصيرة نهض سليمان وقال: «لقد وصلت، يا سـيدتي». ثم انحنى واقترب بوجهه بشـدة من وجهها وهمس إليها «أريد أن أذهب معك إلى» كولون - بشار»(*). وعندما لم ترد عليه، لأنهـا كانت ترى بالكامل قصة صداقتهما تتري أمامها رويدا رويدا، بدءا من نهايتها وحتى بدايتها، قال لها في صوت أعلى، وبإلحاح كبير: «من فضلك، يا سيدتي».

ترددت الآنسـة ويندلينج لحظة فقط. رفعت رأسها ونظرت بتفرس في وجه سـليمان الأسـمر الأملس الذي كان قريبا جدا منها، وقالت «بالطبع، يا سـليمان». كان من الواضح أنه لم يكن

(*) مدينة في غرب الجزائر [المترجم].

يتوقع أن يسمع هذا، وانتقلت البهجة التي غمرته إليها، فابتسمت بينما كانت تشاهده وهو يجري إلى كومة الحقائب وراح ينقلها من الظل إلى حيث ضوء الشمس ليضعها على هيئة صف في الغبار بجانب الطريق الوعرة.

في ما بعد، عندما كانوا ينطلقون بسرعة على امتداد الحمادة، هي في المقدمة إلى جوار السائق وسليمان مقرفصا في الخلف مع دستة من الرجال والغنم، راحت تنظر بعين الاعتبار إلى ما قامت به من عمل غير مسؤول بسماحها له بالقيام بهذه الرحلة العبثية بصحبتها على طول الطريق إلى كولون - بشار. ومع ذلك، كانت تعرف أنها تريد أن تعطي قصتهما نهاية كهذه. كانت بين الحين والآخر تلتفت بشكل جزئي في مقعدها لتنظر بسرعة عبر الزجاج المتسخ، وكان سليمان جالسا هناك في الغبار والدخان، يضحك مثل الآخرين، وقلنسوة برنسه تغطي معظم وجهه.

كانت الدنيا تمطر في كولون - بشار، وكانت الشوارع عبارة عن برك كبيرة تنعكس على صفحتها السماء الملبدة بالغيوم. في الجراج تمكنا من العثور على ولد زنجي فظ ليساعدهما على نقل الأمتعة إلى محطة السكة الحديد. كان إبهامها يؤلمها بدرجة أقل قليلا.

«إنها بلدة باردة»، قال لها سليمان بينما كانا يهبطان إلى الشارع الرئيسي. في المحطة أودعا الحقائب في الأمانات، ثم ذهبا إلى الخارج ووقفا يشاهدان إحدى السيارات التي كان يجري إنزالها من قطار بضائع مفتوح: كان سقف السيارة لايزال مغطى بالثلج الأبيض الذي تساقط فوقه من السهول المرتفعة.

كان النهار داكنا، وكانت الريح تحدث أمواجا في أسطح الماء في الأراضي الجرداء المغمورة به. ولأنه لم يكن بإمكان قطار الآنسة ويندلينج أن يغادر حتى وقت متأخر من بعد الظهر، فقد ذهبا معا إلى المطعم وجلسا فترة طويلة يتناولان الغداء.

«هل ستعود بالفعل إلى بيتك غدا؟»، سألته في قلق في إحدى المرات، بينما كانا يتناولان الفاكهة. «أنت تعرف أننا قمنا بعمل مزعج جدا لأبيك وأمك. وأنهما لن يسامحاني أبدا». بدا وكأن ستارا قد سقط على وجه سليمان. «لا يهم»، قال باقتضاب.

بعد الغداء سارا في الحديقة وشاهدا النسور في أقفاصها. بدأت الريح تجلب مطرا خفيفا. وأصبح طين الطريق أكثر عمقا. عادا إلى وسط البلدة وجلسا في شرفة مقهى حديث واسع ورديء. كانت الطاولة الموضوعة في مؤخرة الشرفة محمية بشكل جزئي من الريح المحملة بالمياه، كانا في مواجهة بقعة فارغة تناثرت بها قمامة ملقاة. وكان في الجوار، ممددا مثل عظام أحد الجمال التي تسقط على الطريق، بقايا حافلة قديمة صدئة. وكانت نخلة طويلة مقطوعة حديثا ملقاة بشكل قطري بطول رقعة الأرض الكبيرة. التفتت الآنسة ويندلينج لتنظر إلى الألياف البرتقالية المبتلة في جذع النخلة المقطوعة، وشعرت بشفقة كاملة لا جدوى منها نحو الشجرة. «سأطلب كوكا كولا»، قالت معلنة. وقال سليمان إنه يرغب هو أيضا في واحدة.

ظلا جالسين هناك فترة طويلة. مال المطر الخفيف خلال الهواء إلى خارج الأروقة المقنطرة، وراح يرتطم بالأرض في صمت. كانت قد توقعت أن يقترب منها الشحاذون، لكن لم

يصل أحد منهم، ونظــرا إلى أن الوقت قد حان لمغادرة المقهى والذهـــاب إلى المحطة فقــد كانت ممتنة لرؤيـــة أن اليوم قد انصرم بسهولة شديدة. فتحت محفظتها، وأخرجت منها ثلاثة آلاف فرنك، وأعطتها لسليمان وهي تقول: «سيكون هذا المبلغ كافيا لكل شـــيء. لكن يجب عليك أن تشتري تذكرة العودة إلى قريتك اليوم، عندما تغادر محطة الســكة الحديد. كن شديد الحرص عليها».

وضع ســليمان المال في ملابســـه، وأعاد تســـويه برنسه، ثم شـــكرها. «هل فهمت يا ســـليمان»، قالت، ثــم احتجزته بيدها لتتمهله، لأنه بدا على وشـــك أن ينهض عن الطاولة. «لن أعطيك أي نقـــود أخرى الآن، لأنني في حاجة إلى ما معي لرحلتي. لكن عندما أصل إلى سويسرا سأرسل لك القليل، من وقت إلى آخر. ليس كثيرا، القليل».

كان وجهه قد ســيطرت عليه علامات الذعر، وكانت هي في حيرة من أمرها.

«إنك لم تأخذي عنواني»، قال لها.

«لا. لكنني سأرسلها على عنوان بيت بوفيلجا»، قالت، ظنا منها أن هذا ســـوف يرضيه. مال نحوها، وعيناه تشعان قوة وتركيزا، وقال في حسم: «لا، يا سيدتي. لا، لديّ عنوانك، وسأرسل إليك عنواني. وعندما يصلك، يمكنك أن تكتبي لي عليه».

لم يبد أن هذا الأمر يســـتحق الجدال بشأنه. طوال فترة بعد الظهر لم يؤلمهـــا إبهامها كثيرا جدا، لكن الآن، وبينما كان النهار على وشك الانتهاء، بدأ يؤلمها بشدة، مرة ثانية. أرادت أن تنهض،

وتبحث عن النادل لتعطيه حســابه. لايزال المطر الخفيف يهب، وكانت المحطة بعيدة نوعا ما، إلاّ أنها رأت أن ســليمان كان لديه شــيء ما أكثر ليقوله. مال ســليمان في كرسيه إلى الأمام ونظر إلى الأرض، «سيدتي»، بدأ. «نعم؟» قالت.

«عندما تكونين في بلدك وتفكرين فيّ لن تكوني سعيدة. هذا صحيح، أليس كذلك؟».

«سأكون حزينة جدا»، أجابت وهي تنهض.

نهض ســليمان ببــطء، وصمت برهة قبــل أن يواصل كلامه قائــلا: «حزينة لأننــي أكلت الطعام من اللوحة. كان هذا ســيئا جدا. سامحيني».

صاحت صارخة في نبرة قوية أفزعتها «لا! لا!». صرخت مرة ثانية: «كان هذا شيئا جيدا!» وأحست بعضلات وجهها وشفتيها تتقلص إلى تكشيرات توحي بالبكاء، فأمسكت بذراع سليمان بقوة ونظرت إلى وجهه: «آه، يا صغيري المســكين!» وراحت تنشج، ثم غطت وجهها بكلتا يديها. وشعرت بسليمان وهو يلمس كمّها في رقة ورفق. مرت شاحنة في الشارع الرئيسي، فهزّت الأرض.

وبصعوبة بالغة ابتعدت وراحت تفتش في حقيبتها عن منديل. «تعال»، قالت، ثم تنحنحت، وأضافت: «ناد على النادل».

وصلا إلى المحطة مبتلين وهما يشــعران بالبرد. كان القطار يجري ترتيب عرباته وتجهيزه، ولم يكن مسموحا للركاب بالاتجاه إلى الرصيف فجلســوا على الأرضية فــي الداخل. بينما كانت الآنسة ويندلينج تشتري تذكرتها ذهب سليمان ليحضر الحقائب من الأمانات. كانت قد مضت علــى ذهابه فترة طويلة. وعندما

عاد كان برنســه مطروحا على ظهره فوق كتفيه، وابتسامة فخر وانتصار عريضة على شفتيه، والحقائب الثلاثة مرصوصة فوق رأســه. وكان رجل يرتدي ســترة وبنطلونا أوروبيين باليين يسير خلفه حاملا بقية الأمتعــة. عندما اقترب منها أكثر رأت الرجل يحمل قصاصة ورقية بين أسنانه.

كانت مقصــورة القطار القديمة تبعــث برائحة ورنيش. كان بوســعها أن تــرى عبر النافــذة، فوق بعض الأراضــي الجرداء البعيــدة في اتجاه الغــرب، بضعة خيوط من الســماء البيضاء الممتلئــة بالمياه. أراد ســليمان أن يغطي المقاعــد بالأمتعة، حتى لا يجــيء أحد ويجلس في المقصــورة. «لا»، قالت. «ضعها على الأرفــف». كان هناك ركاب قليلون جدا في عربة القطار. عندما تم الانتهاء من وضع كل شيء في موضعه الصحيح، وقف الحمال خارج المقصورة في الممر، ولاحظت أنه لايزال ممسكا بقصاصة الورق بين أســنانه. عمد إلى عد العمــلات المعدنية التي أعطته إياها ووضعها في جيبه. ثم بســرعة أعطى الورقة إلى سليمان، وانصرف.

مالت الآنسة ويندلينج إلى أمام قليلا، وراحت تتفحص وتنظر إلى وجهها فــي المرآة الصغيرة التي كانــت ممتدة بالطول على ظهر المقعــد المقابل لها. لم يكن هناك ضوء كاف، وكان المصباح الزيتي فوقها يضيء الســقف فقط، وكانــت قاعدته تلقي بظل واهن على كل ما تحتها. فجأة اهتز القطار وصدرت عنه سلسلة مــن الأصوات الصاخبة. أخذت رأس ســليمان بين يديها وقبلته فــي منتصف جبينــه. «من فضلك انزل من القطــار»، قالت له.

«بإمكاننا التحدث من هنا»، وأشـــارت إلى النافذة وبدأت تجذب الحزام الجلدي الذي في أسفل النافذة لتفتح زجاجها.

بدا ســـليمان صغيرا في ظلمة الرصيف، وهو يحدق فيها إلى أعلى بينما مالت هي إلى الخـــارج. ثم بدأ القطار في التحرك. اعتقدت في ثقة أن القطار سيتحرك عدة أقدام فقط ثم يتوقف بعـــد ذلك، لكنه واصل تقدمه ببطء. راح ســـليمان يســـير معه، محافظا علـــى محاذاته للنافذة التي تقف فيها. وفي يده الورقة التـــي أعطاه إياها الحمال. رفعهـــا إلى أعلى ليناولها إليها، وهو يصيح: «هذا هو عنواني! أرسليه على هذا العنوان!».

أخـــذت الورقة، وظلـــت تلوح لـــه بينما كان القطار يســـرع، وواصلت الصياح: «إلى اللقاء!» استمر سليمان في المشي بسرعة بمحاذاة النافـــذة، وظل يزيد من خطوته حتـــى صار يجري، ثم انتهـــى الرصيف فجأة ولم يعد هناك المزيد منه. انحنت هي إلى الخارج أكثر، وهي تنظر إلى خلف القطار، وتلوح لسليمان، حتى اختفى في الظلام والمطر. التمع لســـان برتقالي من اللهب عند القضيب، ولسع الدخان فتحتي أنفها. سحبت النافذة إلى أعلى، ونظرت بســـرعة إلى قصاصة الورق التي في يدها، ثم جلست. ظل القطار يهزّها يمنة ويسرة، وهي تواصل التحديق في الورقة، علـــى الرغم من أنها أصبحت الآن فـــي الظل والعتمة. وتذكرت اليـــوم الأول، منذ فترة طويلة، عندما كان الطفل ســـليمان يقف خارج الباب يراقبها، ويتراجع عن مجال رؤيتها في كل مرة كانت تحاول فيها أن تنظر إليـــه. كانت الكلمات المكتوبة له على عجل بواســـطة الحمال على قصاصة الورق هي عنوانه من دون شك،

غير أن العنوان كان في كولون - بشــار. «قالوا إنه حاول الهرب. لكنه لم يذهب بعيدا جدا». كانت كل جزئية من تفصيلات سلوكه عندما اســترجعتها بوضوح تبين طبيعته ونمط سلوكه لها. «إنه صغيــر جدا لكي يكون جنديا»، قالت لنفســها. «لن يأخذوه إلى الجندية»، لكنها كانت تعرف أنهم سوف يفعلون.

كان إبهامها ساخنا ومتورما، وبدا في بعض الأحيان أن خفقان إبهامها كان متزامنا تقريبا مع اهتزاز العربة من جانب إلى آخر. نظرت إلى البقع القليلة الباقية من الضوء في السماء، كانت هذه البقع بلا لون. «كان سيقدم على فعلته هذه إن آجلا أو عاجلا»، قالت محاولة أن تقنع نفسها.

«ربمــا في عام آخر»، قال القائد. رأت ابتســامتها اليائســة الملتوية في زجــاج النافذة المعتم المجاور لوجهها. ربما ســيكون ســليمان من بين المحظوظين، أول الجنود الذين يســقطون في المعركة. «لو كان الموت هو الشــيء الوحيد المؤكد تماما في زمن الحــرب»، فكرت بامتعــاض، «فلن يكون الحــزن والنحيب مؤلما جدا». بدأ القطار، رحلة الصعود الطويلة إلى أعلى قمة الهضبة، وهو يتمايل ويصدر صوتا كالأنين.

بعد الظهيرة مع أنتيوس

أنــت أردت رؤيتي؟ ما قالــوه لك صحيح. اســمي. «نتيوز». وينادونني بالعملاق الأفريقي منذ بدأت القتال. ما الذي أستطيع أن أفعله لك؟ هل رأيت البلدة؟ إنها ليســت بالمكان الســيئ. أنت محظوظ فالرياح لا تهب هذه الأيام. لدينا رياح ســيئة، تعبر من هنا، لكن من دونها تكون الشــمس شديدة الحرارة. أرجوس؟ لم أسمع هذا الاسم من قبل. لم يسبق لي أبدا الذهاب إلى الجانب الآخر.

رجــل يدعى إيراكلي؟ نعم، نعــم، كان موجودا هنا. كان هذا منذ زمن بعيد. إنني أتذكره. حتى أننا قمنا بالتعارك معا.

قتلني! هل هــذا هو ما قاله لهم عني عند عودته إلى هناك؟ فهمت. وعندما جئت أنت إلى هناك سمعت أنني مازلت على قيد الحياة، ولذلك أردت مقابلتي؟ نعم.

لِمَ لا نجلس في هذا المكان؟ يوجد ينبوع في الســاحة به أبرد مياه في البلدة. أنت تســأل عن إيراكلي. لا، لم يواجه مشكلات هنا، ماعدا خســارته معركته. لماذا يرغبُ أحــد في مضايقته؟ رجل بمفرده. أنت لم تره من قبل. سوف تدعه يمضي في سبيله. لــن تضايقه. فقط الهمجيون هم الذين يهاجمون غريبا يمشــي بمفرده. يقتلونه ثم يتقاتلون على مئزره الذي يســتر عورته. نحن نــدع الناس يمضون في طريقهــم من دون كلمة من جانبنا. إنهم يجيئون من جانب ويعبرون إلى الآخر في حال سبيلهم. هذه هي الطريقة التي نفضلها. مســالمة وصداقة مع كل شــخص. لدينا

قول سائر: لا تؤذِ إنسانا إلا إذا عرفت أن بإمكانك قتله، وعندئذ اقتله بسرعة. في الجزء العلوي حيث موطني الأصلي نحن قساة وخشـــنون أكثر من هؤلاء الموجودين هنا في الجزء السفلي على الساحل. لدينا حياة أكثر مشقة وقسوة، لكننا أصحاء بدنيا أكثر. انظر إليّ، ستجدني تقريبا من سن والدك. لو أنني عشت حياتي كلها تحت هنا في الساحل لما كانت حالتي العامة مثلما هي عليه الآن. ومع ذلك فأنا لا شـــيء بالمقارنة بما كنت عليه منذ عشرين عامـــا. في تلك الأيام كنت أذهب إلى كل احتفال وأقدم العروض للناس. فأرفع ثورا بيد واحدة وأضربه بين قرنيه باليد الأخرى، ليسقط صريعا. الناس يحبون رؤية هذا. في بعض الأحيان كنت أكسر عوارض خشبية برأسي، وكان هذا أمرا مألوفا جدا وشائعا أيضا، لكن الثور كان من الطقوس الدينية، وبالطبع، كان الثور هو مـــا يود الناس رؤيته أكثر من غيره من العروض. لم يوجد هناك أحد لم يسمع عني.

هل تأخذ بعضا من حبات الجوز؟ أنا آكلها طوال اليوم. أحصل عليها من العمق من داخل الغابة. هناك أشجار فوق، أكبر من أي أشجار رأيتها أنت من قبل.

كان هذا على الأقل منذ عشرين عاما مضت حين جاء مارا من هنـــا، لكنني أتذكره، أتذكره جيدا. ليس لأنه كان جيدا إلى درجة مـــا كمقاتل، لكن لأنه كان مجنونـــا جدا. ليس بإمكانك الحيلولة دون تذكرك رجلا مجنونا مثل إيراكلي.

لـــديَّ المزيد من حبات الجوز. لديَّ مـــلء جوال، جوال مملوء عن آخره. هذا صحيح، النكهة المميزة ليست بالمرة مثل أي شيء

آخر. أنا أفترض أنكـم ليس لديكم مثل هذه النكهة في الجانب الآخر.

لن أكون ســعيدا إلاّ إذا اصطحبتك إلى فوق حيث الغابة، إذا رغبـت في رؤيتها. إنها ليسـت بعيدة. ألا تمانـع في القليل من التسلق إلى أعلى؟

بالطبع لم ينشـئ أي صداقـات هنا، غير أن رجلا مثله ليس فـي اسـتطاعته تكوين صداقـات؛ كان ممتلئا جـدا بكثير من الأفكار العظيمة عن نفسـه حتى أنه لم يكن يرانا على الإطلاق. كان يعتقد أننا جميعا همجيون، وعلى اسـتعداد لازدراد قصصه بسـذاجة. حتى قبل القتال كان كل فرد يضحك منه. قوي، نعم، لكنـه ليس مقاتلا جيدا. مفرط بشـناعة فـي تفاخره، وكذاب فظيع. وجاهل.

سـوف نسـتدير هنا ونصعد هذا الطريق. إنه يتحدث طوال الوقـت. إذا صدقته، فلن تجد هناك شـيئا لا يمكنه القيام به، ويقوم به أفضل من أي شخص آخر.

سـوف ترى مشـاهد ممتعة في الطريق. حافـة العالم. أي أحاسيس ستخلقها فيك، هنا في نهاية المطاف أنت الذي تعودت على أن تكون في الوسط نهاية المطاف؟ لا بد من أنها إحساسات مختلفة.

جاء إيراكلي إلى المدينة من دون أن يلحظه أحد. لا بد من أنه كان معـه القليل من النقود، لأنه كان قد بدأ في مصاحبة رجلين أو ثلاثـة، كنت على معرفة بهم، وكان يقابلهم كل يوم ويدفع لهم ثمن مشـروباتهم. لقد حدثوني عنـه، وذهبت برفقتهم ذات يوم

فقـط لأرى كيف يبدو، وليس لمقابلتـه. أدركت على الفور أنه لم يكن جيدا. ليس جيدا كمقاتل، وكرجل. حتى أنني لم آخذه بجدية كافية كغريم للتحدي. كيف لك أن تأخذ رجلا على محمل الجد عندما تكون له لحية تبدو مثل الصوف الذي يغطي الخراف؟

ظـل بالقرب مـن البلدة لفتـرة ورآني وأنا أقتـل القليل من الثيران. وقد قاتلت لمباراة أو مباراتين أيضا في أثناء وجوده هنا، وبدا أنه قد جاء كل مرة لمراقبتي. الشيء الثاني الذي عرفته هو أنه دعاني إلى مصارعته. كان هو من رغب في المباراة. كان هذا صعب التصديق. وماذا أيضـا، قالوا لي إنه كان يريد أن تأجيل هذه المباراة لأنني لم أكن بعد في مستوى الشخص الذي يعرض عليـه التحدي للنـزال. وكان من المسـتحيل أن يقبل عقلي ذلك البتة.

كل هـذه الأرض التي تراها فوق هنا في الأعلى هي ملك لي. هـذه الأرض وأيضا الغابـة الموجودة إلى أعلـى. أنا أتجنب أي شـخص. أحب السـير والتجوال، ولا أرغب في رؤية الناس في أثناء سيري، رؤيتي لهم تجعلني عصبيا. كنت قد اعتدت قتال أي شخص أقابله. على الأقل كان ذلك في البداية.

عندمـا كنـت صبيا صغيرا فـي قريتي كنت أحـب الذهاب متأخرا بعـد الظهيرة إلى صخرة كبيـرة، وأجلس عليها وأنظر إلى أسـفل الوادي وأتظاهر بأن الأعداء قادمون. أدعهم يصلون إلى نقطة محددة، وعندئذ أبدأ في دحرجة الصخور إلى أسـفل الجبل لأتمكن من إصابتهم. كنت أقتلهم في كل مرة. وقد أمسك بـي والدي ذات مرة ونلت عقابي. مـن المحتمل أنني قد أصبت

بعض الخراف أو الماعز، أو حتى بعض الرجال هناك في أسفل. لكنني لم أمت على يد إيراكلي، كما يمكنك أن ترى، لا يهم ما يقوله إيراكلي. أريدك أن تنظر إلى أشجاري. انظر إلى حجم جذع هذه الشجرة. تتبعه إلى أعلى، أعلى، أعلى، إلى حيث تبدأ الأفرع الأولى. هل سبق لك أن رأيت أشجارا بهذه الضخامة في أي مكان؟

عندما تقدمت في العمر قليلا تعلمت كيف أصرع العجل الصغير، وفي ما بعد الثور. في ذلك الوقت كنت قد بدأت ممارسة القتال. لم أخسر حتى الآن بعد. لقد نسوا أن اسمي كان «نتيوز» وبدأوا ينادونني بـ «العملاق». ليس بسبب حجمي، بالطبع. أنا لست شديد الضخامة. لكن لأن أحدا لم يهزمني في أي مباراة. جاءوا من كل الأماكن المحيطة بنا، وبعد ذلك من أماكن بعيدة. أنت تعرف ما يفعلونه عندما يسمعون عن مقاتل لم يخسر أبدا. إنهم لا يصدقون بطريقة أو بأخرى أنهم سوف يفشلون في التمكن من هزيمته. وهو ما كان عليه الأمر مع إيراكلي. لم أقابله حتى موعد المصارعة، لكنني سمعت كل شيء عنه من أصدقائي. قال لهم إنه قد درسني، وإنه يعرف كيف يهزمني. لم يقل كيف كان سيفعل هذا. حتى أنني لم أفلح على الإطلاق في أن أعرف ما الذي اعتقد أن في مقدوره القيام به حتى بعد انتهاء المصارعة.

لا، أنا لست ميتا. أنا مازلت البطل. في إمكان أي شخص هنا أن يخبرك. إنه لمن السيئ جدا أنك لم تقابل إيراكلي بنفسك. لن تندهش كثيرا. ستدرك أن كل ما قاله عندما عاد إلى وطنه لا

يعدو أن يكون ما أراد هو أن يحكيه، ولا شـــيء أكثر من هذا. إنه لا يستطيع قول الحقيقة إن أراد أن يقولها.

هــل أنت متعب؟ إنه تســلق مرهق، إن لم تكــن معتادا عليه. المصارعة نفســها؟ تلك المعركة لم تدم طويلا. كان مشغولا جدا محاولا تطبيــق النظام الذي تدرب عليه جيــدا. كان نظامه أن يرجــع القهقــرى أولا، ثم يقتــرب مني وفقط يضــع يديه عليَّ ويتوقف عن فعل أي شـــيء. لم أقو على فهم ما الذي كان يحاول فعله. كان الحشد من العامة يســخرون. فكرت لدقيقة: إنه من النوع الذي يجد متعته بهذه الطريقة، يمرر يده فوق صدر غريمه ويعتصر خصــره. إنه الآن لا يحبها لأنني ضحكت وصرخت في الحشــد. كان غاية في الجدية طوال الوقــت. وأنا كنت مخطئا على كل حال. هل نسير بسرعة أكبر من اللازم؟ وأنت تحمل هذا الجراب الثقيل على خصرك. بإمكاننا المضي ببطء مثلما تريد. ليس هناك وجه للاستعجال.

هذه فكرة جيدة. لِمَ لا نجلس لدقيقة ونســتريح؟ هل تشــعر بأنك على ما يرام؟ لا. لا شيء. اعتقدت أنك تبدو شاحبا قليلا. ربما يكون الضوء. الشمس لا تصل إلى هنا في الأسفل أبدا.

كان هذا فقــط بعد المصارعة حيــث أخبرني أصدقائي بما أراد إيراكلــي أن يفعلــه. بدلا من محاولــة طرحي، كان الأحمق المخبول يحاول أن يرفعني عن الأرض ويحملني في الهواء! ليس إلى الحد الذي يُمكِّنه من إلقائي بطريقة جيدة، لكن فقط لمجرد رفعي إلى فوق. إنه من الصعب التصديق، أليس كذلك؟ لكن هذا هــو ما كان يدور في عقله. كان هذا هو نظامه العظيم. لماذا؟ لا

تســـألني «لماذا». أنا أفريقـــي. لا أعرف ما الذي يدور في عقول أهل بلدك.

خذ المزيد من الجوز. لا، لا. إنها لن تؤذيك. إنه الهواء. إقليمنا لا يناسب أناسا من الجانب الآخر. بينما كان يحاول التفكير كيف يرفعني أجهزت عليه، وسحبوه بعيدا.

هل ســـنمضي قدما أم أنك ترغب في الانتظار قليلا في هذا المـــكان؟ هل مازلت غير قـــادر على التنفس؟ هنـــا في الغابة لا يتوافر هواء.

ألا تعتقـــد أنه يجب علينا الانتظـــار قليلا؟ بالطبع، إذا أردت المضي، يمكننا الســـير ببطء. دعني أساعدك على النهوض. إنه مؤسف جدا عدم قدرتنا على بلوغ مسافة أبعد، الأشجار الكبيرة توجد في أعلى هذا الاتجاه.

نعم، سَـــحَبوه بعيدا، وظل ثلاثة أيام راقدا على حصيرة قبل أن يغـــادر المكان هنا. فـــي النهاية ترنح وهو يعـــرج بقدميه إلى خارج البلدة مثل الكلـــب، مصحوبا بضحكات الجميع عليه على امتـــداد الطريق. تســـتطيع أن تعلق بي. لن أدعك تســـقط. أنت تســـير بصورة جيـــدة. فقط حافظ على تقدمـــك. لم ينظر إلى اليمين أو اليســـار فـــي طريقه إلى خارج البلـــدة. لا بد من أنك سعيد لاعتلائك الجبال.

اهـــدأ. أولا القدم الأولى، ثم القدم الأخرى. أنا لا أدري إلى أين أذهب. أخشى ألاّ يكون هناك ماء في المكان. سوف نحصل على قليل منه بمجرد وصولنا إلى البلدة. سوف تكون على ما يرام. أعتقد أنه قفل عائدا من حيث جاء. لم نره هنا ثانية على أي حال.

هل يبدو أننا ســـرنا مســـافة طويلة؟ إنها دقائق قليلة فقط. تستطيع أن تميز الطريق لكنك لا تعرف أين أنت؟ لِمَ يجب عليك أن تعـــرف أين أنت؟ إنها ليســـت غابتك. اهـــدأ. خذ خطوة، ثم خطوة، ثم خطوة.

أنت على صواب. إنها الصخرة حيث كنا جالســـين منذ دقائق قليلة مضت. كنت أتســـاءل إن كنت ستتمكن أنت من ملاحظتها. بالطبـــع أنـــا أعرف طريقـــي! اعتقدت أنه مـــن الأفضل لك أن تســـتريح مرة ثانية قبل أن نبدأ سيرنا إلى البلدة. هذا صحيح، فقط اســـتلق هناك، في ذلك المكان. ستكون بحالة جيدة بمجرد أن تنال قسطا قليلا من النوم. المكان هادئ تماما هنا.

لا، إنك لم تنم لفترة طويلة. بمَ تشعر الآن؟ جيد. كنت أعرف أن قليـــلا من النوم ســـوف يجعلك في حالة جيدة. أنت لســـت معتادا على الهواء هنا. أنا لا أعتقد أنك كنت تحمل شيئا.

ليـــس هناك داعٍ لتقطب بين عينيك هكذا. أنت لا تعتقد أنني أخذته، أتعتقد هذا؟

كنـــت أظن أننا كنا أصدقاء. لقد عاملتك كصديق. والآن أنت ترد إلي صنيعي.

أنا لـــن أصحبك إلى أي مكان. انزل إلـــى البلدة وحدك. أنا ذاهب في الاتجاه المضاد.

عد إلى بلدتك واحكِ لهم عني. يمكنك السير بصورة جيدة.

فقط استمر في تقدمك.

واخرج من الغابة بسرعة!

مجذوب(*)

الرجــل الــذي كان يقضي لياليه نائما فــي المقاهي أو تحت الأشجار أو حيثما اتفق أن يشعر بالنوم، تجول ذات صباح خلال شوارع البلدة. وقد وصل في تجواله إلى ساحة السوق، حيث كان مجذوب عجوز يرتدي أســمالا باليــة يتقافز مرحا أمام العامة، وهو يصرخ ويطلق النبوءات في الهواء. وقف الرجل يراقبه حتى انتهــى العجوز من جمــع المال الذي أعطاه لــه الناس. فأذهلته رؤيته لمقدار المال الذي جمعه المجنون، ولأنه لم يكن لديه شــيء آخر ليفعله، قرر أن يتبعه.

قبل أن يخرج من الســوق تقريبا تنبه إلى أن هناك مجموعة من الأولاد الصغار كانوا يسرعون من تحت الأقواس للسير بحذاء المجذوب، الذي واصل السير في طريقه إلى الأمام، ينشد ويرتل وهو يلــوح بصولجانه، وبين الفينة والأخــرى كان يهدد الأطفال الذين كانوا يقتربون منه بشــدة. كان يســير خلف المجذوب على مبعــدة منه، ورأى العجوز وهو يدخــل إلى عدة محلات، ويخرج في كل مــرة بأوراق نقدية في يــده، كان يعطيها على الفور إلى أحد الأولاد الصغار.

عندئذ خطر له أنه كان هناك الكثير ليتعلمه من هذا المجذوب. كل ما كان عليه عمله هو دراسة سلوك العجوز والإنصات بعناية إلى الكلمات التي كان يتلفظ بها. ثم مع الممارســة ســيصبح في إمكانه القيام بنفس الإشــارات والإيمــاءات والصياح بالكلمات

(*) وردت بالعربية [المترجم].

نفسها. بدأ يبحث عن المجذوب كل يوم ويتعقبه حيثما ذهب في البلدة. بعد شهر من تعقبه له قرر أنه قد أصبح على أتم الاستعداد لوضع معرفته موضع التطبيق.

سافر إلى الجنوب إلى مدينة أخرى لم يكن قد ذهب إليها من قبل. وهناك استأجر حجرة رخيصة جدا عند المجزر وبعيدة من وسط المدينة. ومن سوق الأشياء المستعملة اشترى جلبابا(*) قديما باليا، ثم مضى إلى الحدادين ووقف يشاهدهم بينما كانوا يصنعون له صولجانا طويلا مثل الذي كان يحمله المجذوب.

في اليوم التالي، بعد أن تمرن لفترة من الوقت، ذهب إلى البلدة وجلس في الطريق عند الساحة الخارجية لأكبر مسجد فيها. لبرهة فقط كان ينظر إلى الناس الذي يمرون بعيدا. ببطء بدأ في رفع ذراعيه إلى السماء، ثم اصطنع إشارات بهما. لم يلتفت إليه أحد من المارة. طمأنه هذا، لأنه كان يعني أن تنكره كان ناجحا. عندما شرع في إطلاق الكلمات نظر المارة تجاهه، لكنهم بدوا كأنهم عاجزون عن رؤيته، وكانوا ينتظرون فقط للاستماع لما كان يقوله. كان يصيح لبعض الوقت بعبارات قصيرة من القرآن الكريم. وهو يحرك عينيه في حركة دائرية وقد ترك العمامة تسقط على وجهه. بعدما صرخ متوعدا بكلمتي النار والدم عدة مرات خفض ذراعيه ثم أحنى رأسه، ولم ينبس بكلمة. كان الناس ينصرفون، لكن ليس قبل أن يقذف إليه الكثير منهم بعملات معدنية أمامه على الأرض.

(*) وردت بالعربية [المترجم].

جرّب في الأيام التالية أجزاء أخرى من المدينة. لم يكن مكان جلوســـه مهما. فقد كان الناس كرماء معه بنفس الدرجة في كل مكان آخر. لم يكن يريد المخاطرة بالدخول إلى المحلات والمقاهي حتى أصبح على يقين من أن المدينة اعتادت على وجوده. في يوم من الأيام اندفع بشـــكل هائج عبر الشوارع، وهو يرفع صولجانه إلى الســـماء ويصرخ: «سيدي رحال هنا! يقول لكم سيدي رحال تهيأوا لعذاب النار!» كان الهدف من هذا إطلاق اسم على نفسه ليتذكره أهل البلدة.

بدأ في الوقوف في مداخل المحلات. إذا ســـمع شـــخصا ما يشير إليه على أنه سيدي رحال، يخطو إلى الداخل، وينظر بحدة إلى صاحب المحل، ومـــن دون أن ينطق بكلمة، يمد يده، ليعطيه الرجل مالا، فيستدير وينصرف خارجا.

لســـبب ما لم يكن الأطفال يتبعونه. كان ســـيغدو ســـعيدا لو أن مجموعة منهم كانوا برفقته، مثل المجذوب العجوز، لكنه بمجرد أن يتحدث معهم، كانوا يخافون ويفرون مبتعدين. إن الأمر هكذا أكثر هدوءا، قال لنفســـه، لكنه في قرارة نفســـه كان منزعجا جدا. ومع ذلك، فقد جنى نقودا أكثر مما اعتقد أن في مقدوره كسبه. بمرور الوقت هطلت الأمطار الأولى، وكان قد جمع مقدارا كبيرا من المال، فتـــرك صولجانه وجلبابه البالي في حجرته عند المجزر، ودفع إلى المالك إيجار عدة أشـــهر مقدما. وانتظر حتـــى حلّ الليل، ثم أغلق الباب خلفه واستقل إحدى الحافلات عائدا إلى مدينته الأصلية.

في البداية اشترى تشكيلة متنوعة من الملابس. عندما أصبح حسن الهندام خرج وبحث عن منزل مناسب، وسرعان ما وجده.

كان صغيرا وكان ما تبقى لديه من مال كافيا لتسديد ثمن المنزل. أثث حجرتين واستعد لقضاء الشتاء وهو يأكل ويدخن مع جميع أصدقائه القدامى.

عندما سألوه أين كان طوال الصيف الماضي، تحدث عن حفاوة وكرم أخيه الثري الذي يسكن في «تازة»(*). كان صبره قد نفد بالفعل انتظارا لتوقف الأمطار. عندئذ تأكد بما لا يدع مجالا للشك من أنه قد استمتع بالفعل بمهنته الجديدة.

انتهى فصل الشتاء أخيرا. فحزم حقيبته وأخبر أصدقاءه بأنه ذاهب في رحلة عمل. ومضى إلى حجرته في تلك البلدة الأخرى. كان جلبابه وصولجانه هناك حيث تركهما.

تعرف عليه في تلك السنة عدد أكبر من الناس. وأصبح أكثر جرأة فصار يدخل المحلات من دون أن يتوقف عند المداخل. كان أصحاب المحلات متلهفين إلى إظهار تقواهم أمام الزبائن، فكانوا يعطونه دائما المزيد من المال أكثر مما كان يعطيه المارة.

وفي أحد الأيام قرر إجراء اختبار. أوقف سيارة أجرة، وعندما ركب جأر: «يجب عليّ الذهاب إلى ضريح سيدي العربي! بسرعة!» السائق الذي كان يعلم أنه لن يحصل على أجرته، وافق رغم ذلك، وانطلق صوب الطريق إلى بستان أشجار زيتون يقع فوق تل بعيد عن البلدة.

أخبر سائق السيارة الأجرة بأن ينتظر وقفز إلى الخارج. ثم بدأ في التسلق لمسافة طويلة إلى أعلى التل في اتجاه الضريح. نفد صبر السائق فانصرف. في طريق عودته إلى البلدة أخطأ

(*) مدينة في شمال المغرب [المترجم].

منعطفا واصطدم بإحدى الأشجار. وعندما سمحوا له بالخروج من المستشفى أذاع بين الناس أن سيدي رحال هو السبب في انحراف السيارة عن الطريق. تحدث بعض الرجال في هذا الأمر لفترة من الوقت، وتذكروا المجاذيب الآخرين الربانيين الذين كانوا يصبون لعناتهم أو يضعون سحرهم في محركات وفرامل السيارات. غدا اسم سيدي رحال على ألسنة كل الناس، وأنصت الناس باحترام لثرثرته ولغوه.

جمع في ذلك الصيف مالا أكثر من السنة الماضية. فعاد إلى مدينته واشترى منزلا أكبر ليقيم فيه، بينما أجَّر منزله القديم. وفي كل سنة كان يشتري المزيد من المنازل والأراضي، حتى غدا واضحا في النهاية أنه قد أصبح بالفعل غنيا جدا.

عندما بدأت الأمطار الأولى في الهطول كان يخبر أصدقاءه بعزمه على السفر إلى الخارج. ثم يرحل سرا، ولا يدع أحدا يودعه. كان مسرورا بنمط حياته، وبالحظ السعيد الذي حالفه في أن يكون قادرا على الاستمرار في هذا النمط. كان يفترض أن الله لا يمانع إذا هو تظاهر بكونه واحدا من مجاذيبه المتدينين. كان المال فقط هو المكافأة التي يحصل عليها من جراء منح الناس فرصة ممارسة إحسانهم.

في أحد فصول الشتاء وصلت حكومة جديدة إلى السلطة وأعلنت أنه سيتم إخلاء الشوارع من جميع الشحاذين. تحدث عن هذا الموضوع مع أصدقائه، واعتبر الجميع أن هذا شيء ممتاز. ووافقهم على رأيهم، لكن الأخبار حرمته من النوم في الليل. أن يخاطر بفقدان كل شيء عند عودته، وهذا بالضبط

هو ما كان يريد أن يفعله، كان أمرا مســتحيلا. فاستسلم بحزن لقضاء الصيف في بلدته.

لم تكد الأسابيع الأولى من فصل الربيع تمضي حتى أدرك كم كان قريبا إلى قلبه، الخروج في الليل واستقلال الحافلة في ليلة رائعة مرصعة بالنجــوم والمضي إلى المدينة الأخرى، وراح يتأمل مدى الارتياح الذي كان يغمره في كل مرة لكونه قادرا على نسيان كل شــيء والعيش كما لو كان ســيدي رحال. لقد بدأ يفهم الآن أن حياته كانت ممتعــة فقط لأنه كان على دراية بأنه في لحظة معينة سيتركها ليحيا حياته الأخرى.

عندمـا أصبح الطقــس حارا بدأ يشــعر بالتوتر بشــكل متزايد. وراح يشعر بالملل وفقد شهيته للطعام. وعندما لاحظ أصدقاؤه التغيير الذي طرأ عليه، نصحوه بالســفر، مثلما كان يفعل دائما. قالوا له إن الناس يعرفون أنهم ســوف يموتون لو توقفوا عن ممارســة ما اعتادوا عليه. كان يســتلقي في أثناء الليل وهو يشــعر بالقلق، وحينئذ عقد العزم بينه وبين نفســه على العودة سرا. وبمجرد اتخاذه القرار أحس بأنه عاد أفضل حالا بكثير. كان كما لو أنه حتى ذلك الحين في سبات عميق، واستيقظ منه فجأة: فأعلن لأصدقائه أنه سيسافر إلى خارج البلدة.

في تلك الليلة أغلق منزله واستقل الحافلة. وفي اليوم التالي مضــى يهرول في فرح خلال الشــوارع ليجلس في مكانه الأثير بالقرب من المســجد. نظر إليــه بعض المارة وعلقوا في ما بينهم قائلين: «لقد عاد مرة ثانية، برغم كل شيء، ألا ترى؟».

قضى النهار كله جالسا هناك في هدوء، يجمع المال. عند نهاية عصر ذلك اليوم، ونظرا إلى أن الطقس كان شديد الحرارة، انحدر إلى نهر خارج بوابات البلدة، للاستحمام. لمح بينما كان يخلع ملابسه، خلف بعض شجيرات الدفلى، ثلاثة من رجال الشرطة ورآهم يهبطون نحوه باتجاه ضفة النهر. ومن دون انتظار أمسك بخفيه، وطرح جلبابه على كتفه، وبدأ يعدو.

كان بين الحين والآخر يتخبط في المياه، وفي أحيان أخرى ينزلق في الطين فيسقط. كان باستطاعته سماع الرجال وهم يصيحون في أثره. لم يطاردوه لمسافة بعيدة جدا، لأنهم كانوا قد انفجروا في فاصل من الضحك. ولأنه لم يكن على دراية بهذا، فقد واصل عدوه، على امتداد النهر، حتى تقطعت أنفاسه فكان عليه أن يتوقف. ارتدى جلبابه وانتعل خفيه، وراح يفكر: لا يمكنني أن أرجع إلى البلدة، أو إلى أي بلدة أخرى، بهذه الملابس.

واصل سيره بخطوات أبطأ. عندما حلّ المساء شعر بالجوع، لكن لم يكن هناك أناس أو بيوت على مرمى البصر. فنام تحت شجرة، يغطيه فقط جلبابه البالي.

كان جوعه قد ازداد في صباح اليوم التالي. نهض، واستحم في النهر، ومضى في طريقه ثانية. سار طوال ذلك اليوم تحت الشمس الحارقة. في وقت متأخر من بعد الظهر جلس ليستريح. شرب القليل من ماء النهر ونظر من حوله إلى الخلاء. فرأى فوق التل من خلفه ضريحا محطّما على نحو جزئي.

عندما استراح، تسلق نحو المبنى. كان هناك قبر بالداخل، في وسط حجرة ذات قبة كبيرة. جلس وراح ينصت. كانت

الديكة تتصايح، وسمع النباح العارض للكلاب. تخيل نفسه يجري إلى القرية، ويصرخ في أول رجل يقابله قائلا: «أعطني كسرة خبز، إكراما لمولاي عبدالقادر!» أغلق عينيه.

عندما استيقظ كان في وقت الشفق تقريبا. خارج باب الحجرة وقفت مجموعة من الأولاد الصغار، يراقبونه. عندما رأوه يستيقظ، ضحكوا ووكز بعضهم بعضا. قذف إليه أحد الأولاد بقطعة خبز جافة، فسقطت بجواره. وسرعان ما صاحوا قائلين: «إنه يأكل الخبز! إنه يأكل الخبز!».

راحوا يلهون بهذه الطريقة لفترة من الوقت، يقذفون إليه بحفنات من التراب وحتى نباتات مجتثة من الأرض وقطع من الخبز. كان بوسعه أن يقرأ في عيونهم الدهشة، والخبث، والاحتقار، ووميضا ثابتا من لذة التملك عبر هذه العواطف المتباينة والمتبدلة. فكر في المجذوب العجوز، فسرت رعشة خلال جسده. فجأة انصرف الأولاد. سمع صرخات صاخبة على بعد مسافة بينما كانوا يتسابقون عائدين إلى القرية.

منحه الخبز بعض العافية. فنام حيث كان، وقبل أن ينبلج ضوء الصباح رحل ثانية على امتداد النهر، وهو يشكر الله على أن سمح له باجتياز القرية من دون أن يُمكّن أحدا من رؤيته. فهم أن الأطفال قد انصرفوا عنه فقط لأنهم تبينوا أنه لم يكن مستعدا لهم، حتى يمكن أن يجعلوا منه لعبة في أيديهم. فكر في هذا بشكل متزايد، وتمنى بشكل أكثر حرارة ألاّ يعرف ما الذي يكون عليه المجذوب الحقيقي.

بينمـــا كان ينعطف بعـــد الظهر مع مجـــرى النهر، أصبح فجأة إزاء بلدة. قادته حاجته اليائسة إلى الطعام إلى السوق مباشـــرة. ولم يلتفت إلى تحديق النـــاس إليه، دخل إلى دكان صغير وطلب سلطانية حساء. وعندما انتهى منها دفع الثمن، ودخـــل إلى دكان آخر لتناول طبق يخنة. في المكان الثالث أكل لحما مشويا على الفحم. ثم قصد سوق الخبز لشراء رغيفين ليحملهمـــا معه. وبينما كان يدفع ثمنهما، ربت شـــرطي على كتفه وســـأله عن أوراق إثبات شخصيته. لم تكن معه أوراق. ولم يكن هناك ما يقال. ســـجنوه في قسم الشرطة في حجرة صغيـــرة كريهة الرائحة في ســـرداب المبنـــى. قضى في ذلك المكان عدة أيام وليال من العذاب. عندما أخرجوه بعد انقضاء تلك المدة واســـتجوبوه، لم يقو على إخبارهم بالحقيقة وبدلا من ذلك تجهم قائلا: «أنا سيدي رحال».

أوثقوا يديه ودفعوه في مؤخرة شاحنة. بعد ذلك في المستشفى اقتادوه إلى زنزانة رطبة حيث يوجد بها رجال يحدقون ويرتعدون ويصرخـــون. تحمل ذلك الوضع لمدة أســـبوع، ثم قـــرر أن يطلع المسؤولين على اسمه الحقيقي. لكن عندما كان يطلب أن يأخذوه إليهـــم، كان الحراس يضحكون فقط، وكانـــوا يقولون في بعض الأحيان: «في الأســـبوع القادم»، لكنهم في العادة، لم يردوا على الإطلاق.

مرت الشـــهور. كان يعيش خلالها مـــع المجانين، إلى أن جاء وقت لم يعد يخطر في باله على الإطلاق، الذهاب إلى المسؤولين لإخبارهم بحقيقته. وفي النهاية توقف عن التفكير في الأمر.

علال(*)

كان قــد ولِدَ في الفندق الذي كانت أمه تعمل به. كان الفندق يضــم ثلاث غرف مظلمة تطل علــى فناء خلف البار. في الوراء كانــت هناك باحة أخرى أصغر فيها العديد من الأبواب. وهناك حيث كان الخدم يعيشون، أمضى علال طفولته.

كان اليونانــي الذي يمتلك الفندق قد طــرد أم علال. حيث كان مســتاء منها لأنها، كانت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وجرؤت على إنجاب طفل بينما كانت تعمل عنده. لم تقل من كان الأب، وأغضبه تفكيره في أنه لم يجن أي فائدة من الوضع بينما كانت الفرصة متاحة لديه. أعطى الفتاة أجر ثلاثة أشهر وطلب منها أن تذهب إلى بيت أسرتها في مراكش. ونظرا إلى أن الطباخ وزوجته قد أحبــا الفتاة وعرضا عليها أن تبقى معهما لفترة من الوقت، فقد وافق اليوناني حتى يكبر الطفل بدرجة كافية تسمح بتحمل مشــاق الســفر. بقيت الفتاة في الباحــة الخلفية بضعة أشهر مع الطباخ وزوجته، ثم اختفت في أحد الأيام تاركة الطفل وراءها. ولم يسمع أحد عنها بعد ذلك.

بمجرد أن صار علال كبيرا بدرجة تمكنه من حمل الأشــياء دفع به الزوجان إلى العمل. ولم تمض فترة طويلة قبل أن يتمكن من إحضار دلو من مياه البئر التي تقع خلف الفندق. لم يكن لدى الطباخ وزوجته أولاد، لذلك فقد كان علال يلعب بمفرده.

عندما أصبح أكبر بعض الشــيء بدأ في التجول فوق الهضبة

(*) وردت بالعربية [المترجم].

العارية في الخارج. ولم يكن هناك شيء في الأعالي سوى الثكنات، وكانت محاطة بســور عال مصمت مــن الطوب الأحمر. وكل ما عدا ذلك كان موجودا تحت في الوادي: البلدة، والحدائق، والنهر الذي يخترق في اتجاه الجنوب الآلاف من أشــجار النخيل. كان بمقدوره أن يجلس في بقعة أو على صخرة عالية بعيدة فتتسنى له رؤية الناس في الأسفل وهم يسيرون في أزقة البلدة. لم تسبق له زيارة المكان إلاّ في ما بعد فرأى ما كان عليه أهلها. ولأن أمه كانت قد تركته ورحلت فقد أطلق عليه الناس ابن الحرام، وكانوا يســخرون عندما ينظرون إليه. وبدا له بهذه الطريقة أنهم كانوا يأملــون في تحويله إلى خيال، كــي لا يضطروا إلى التفكير فيه ككائــن موجود وواقعي ينبض بالحيــاة. هكذا كان ينتظر بخوف وترقــب الوقت الذي ســيضطر فيه إلى الذهــاب في كل صباح إلى البلدة لكي يعمل. فقد كان حتى الوقت الراهن يســاعد في أعمال المطبخ ويقوم بتقديم الخدمات للضباط في الثكنات، كما كان يخدم بعض السائقين العابرين الذين كانوا يمرون بالمنطقة، وفي المقابل كان يحصل على بعض البقشيش في المطعم، وطعام وسكن مجاني في حجرة صغيرة بمسكن الخدم، لكن اليوناني لم يكن يعطيه راتبا. في النهاية عندما بلغ سنا أصبح فيها مثل هذا الوضع مخزيا، ذهب من تلقاء نفســه إلى البلدة في الأسفل وبدأ يعمل، بصحبة أولاد آخرين من مثل سنه، في مساعدة الناس في صنع قوالب الطوب اللبن لاستخدامها في بناء منازلهم.

كان العيش في البلدة يشــبه إلى حد كبيــر ما كان قد تخيل أنه ســيكون عليه. أقام لمدة سنتين في حجرة خلف محل حدادة،

يعيش حياة خالية من الشجار ويدّخر أي مال لم يكن مضطرا إلى إنفاقه على نفسه ليبقى على قيد الحياة. وظل حتى ذلك الوقت بعيدا عن عقد أي صداقات، فضلا عن أنه وطّد داخله كراهية كاملة لأهل البلدة، الذين لم يسمحوا له أبدا أن ينسى أنه كان ابن خطيئة، وبالتالي فهو ليس كالآخرين، بل مجرد «مسخوط»(*) - ملعون. ثم وجد بيتا صغيرا، ليس أكثر من كوخ، في بساتين النخيل خارج البلدة. كان الإيجار زهيدا ولم يكن هناك من يقطن في الجوار. فذهب للعيش هناك، حيث كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الريح خلال الأشجار، وكان يتجنب أهل البلدة بقدر المستطاع.

ذات مساء في فصل الصيف الحار، وبعد الغروب بوقت قصير، كان علال يمشي تحت الأقواس التي كانت تواجه الميدان الرئيسي للبلدة. وعلى بعد خطوات قليلة أمامه كان هناك رجل عجوز يرتدي عمامة بيضاء يحاول أن ينقل جوالا ثقيلا من إحدى كتفيه إلى كتفه الآخر. وفجأة سقط الجوال على الأرض، وراح علال يحدق بينما كان شكلان داكنان ينسلان من خارج الجوال واختفيا في الظلال. انقض الرجل العجوز على الجوال وأغلق طرفه الأعلى، وفي الوقت نفسه بدأ يصيح قائلا: «فتشوا عن الثعابين! ساعدوني في العثور على الثعابين!»

التفت أناس كثيرون بسرعة إلى المكان ثم قفلوا عائدين من حيث أتوا. ووقف آخرون عن بعد، وهم يراقبون. وصرخت قلة منهم في الرجل العجوز: «اعثر بسرعة على ثعابينك وأبعدها

(*) وردت بالعربية [المترجم].

عـن هذا المكان! لماذا جئت بها إلـى هنا؟ إننا لا نريد ثعابين في هذه البلدة!»

كان الرجل العجـوز يقفز هنا وهناك جيئة وذهابا، ثم التفت إلى علال قائلا: «راقب هذا من أجلي لدقيقة، يا بني». وأشـار إلى الجوال الملقى على الأرض عند قدمه، والتقط الرجل العجوز سلة كان يحملها، وذهب بسرعة إلى ركن قريب في الزقاق. وقف علال في مكانه حيث كان. ولم يمر أحد.

لـم تمض فترة طويلـة حتى عاد الرجل العجـوز، وهو يلهث ظافرا. وعندما رآه المـارة الواقفون في الميدان مرة ثانية، بدأوا يصيحـون، لكن هـذه المرة كانوا يصيحون فـي علال: «دل ذلك «البرّانـي» على الطريق إلى خارج البلدة! فليس لديه أي حق في حمل تلك الأشياء هنا. إلى الخارج! إلى الخارج!»

التقط علال الجوال الكبير وقال للرجل العجوز، «اتبعني».

غادرا الميدان ومضيا عبر الأزقة حتى أصبحا على مشـارف البلدة. عندئذ رفع الرجل العجوز بصره إلى أعلى، فرأى أشجار النخيل الداكنة في مقابل منظر السـماء الشـاحبة في الأمام، فالتفت إلى الولد بجانبه.

فقال لـه علال مرة ثانيـة، «اتبعني»، وانعطف إلى اليسـار علـى امتداد طريق وعر أفضى إلـى بيته. فوقف الرجل العجوز متحيرا.

«بإمكانك أن تبقى معي الليلة»، قال له علال.

«وهذان؟» قال الرجل العجوز وهو يشير إلى الجوال في بادئ الأمر ثم إلى السلة بعد ذلك. «يجب ألاّ يفارقاني».

ابتسم علال ابتسامة عريضة وقال: «بإمكانك أخذهما معك».

وبينما كانا يجلسان في البيت نظر علال إلى الجوال والسلة، وقال: «أنا لست مثل بقية الناس هنا».

عندما سـمع الرجل العجوز الكلمات التي نطق بها شعر بأنه على ما يرام. وصدرت عنه إيماءة ساخطة، وقال: «إنهم يخشون السير عبر الميدان بسبب الثعابين. لقد رأيتهم».

حكّ الشيخ العجوز ذقنه، ثم قال: «إن الثعابين مثل البشر».

«عليـك أن تحاول التعـرف عليها وعندئـذ يمكنك أن تكون صديقا لها».

تردد علال قبل أن يسأل: «هل سبق لك أن أخرجتها؟»

«بشـكل دائم»، قـال الرجل العجـوز بحمـاس. «فليس من المستحسن أن تظل في الداخل بهذه الطريقة. يتعين أن تكون في صحـة جيدة عندما أصل بها إلى تارودانـت(*)، وإلاّ فإن الرجل هناك لن يشتريها مني».

وبدأ يحكي قصة طويلة عن حياته كصياد للثعابين، ويشـرح أنـه في كل عام يسـافر إلى تارودانت لرؤيـة ذلك الرجل الذي يشـتريها منه لصالح «العيسـاويين» حواة الثعابين في مراكش. أعـدّ علال الشـاي بينما كان يسـتمع إلى قصتـه، ثم أحضر سـلطانية بها معجـون الكيف لتناولها مع الشـاي. في ما بعد، عندما كانا يجلسـان من دون تكلف وسط دخان الغليون، ضحك الرجل العجوز ضحكة خافتة، فالتفت علال ونظر إليه.

«هل من الممكن أن أخرج الثعابين؟»

(*) مدينة في جنوب غرب المغرب [المترجم].

«حسنا».

«لكــن يجب عليك أن تجلس وتبقى هادئــا في مكانك. قرّب المصباح».

فك الرجل العجــوز الجوال، وهزه قليلا، ثــم عاد إلى حيث كان جالســا. عندئذ أخذ علال يراقب في صمت تلك الأجسام الطويلــة وهي تتحرك إلى الخارج بحذر في اتجاه الضوء. كانت هناك ثعابين أخرى بين ثعابين الكوبرا منقوشة بزخارف شديدة الدقة والبراعة بحيث بدت كأن فنانا رسمها ولونها. كانت هناك حية حمراء ذهبية، تتلوى بكســل في منتصف الأرضية، وجدها علال جميلة بشكل استثنائي. وبينما كان يحدق فيها، شعر برغبة قوية في امتلاكها لنفسه وأن يحتفظ بها بشكل دائم.

بــدأ الرجل العجوز يواصل حديثه قائلا، «لقد قضيت حياتي كلها مع الثعابين. بإمكاني أن أخبرك ببعض الأشــياء عنها. هل تعرف أنك إذا أعطيتها المعجون فإن بإمكانك أن تجعلها تفعل كل ما تريد أنت، ومن دون أن تنطق لها بكلمة؟ أقسم بالله!»

ارتســمت ملامح الشــك على وجه علال. إنه لم يشكك في مــدى صحة عبــارة الرجل، بل في مدى قدرته على الاســتفادة منها، ولأن فكرة الاحتفــاظ بالثعبان في ذلك الوقت هي بالفعل التي كانت تجول في رأسه، فقد رأى أن كل ما عليه أن يفعله أن ينفذها على وجه الســرعة، نظرا إلى أن الرجل العجوز ســوف يرحل في الصباح. وشعر فجأة بضجر عظيم يستبد به.

«أبعدها حتى أتمكن من طهو العشاء»، قال هامسا. ثم جلس متعجبــا من الســهولة التي التقط بها الرجــل العجوز كل ثعبان

منها من رأســه لإعادته إلى الجوال. وللمرة الثانية أسقط اثنين من الثعابين في الســلة، وكان أحد هذيــن الثعبانين، كما لاحظ عــلال، الثعبان ذو اللون الأحمر. وتخيل أن بإمكانه أن يرى لمعان حراشفه من خلال غطاء السلة.

بينما كان جالســا يعكف على إعــداد الوجبة حاول علال أن يفكر في أمور أخرى. لكن، نظرا إلى أن مشهد الثعبان ظل عالقا في ذهنه على الرغم من كل شيء، بدأ في تدبر طريقة للحصول عليــه. وبينمــا كان مقرفصا عند النار في أحــد الأركان، خلط بعض معجون الكيف في سلطانية اللبن ووضعها جانبا.

واصــل الرجل العجــوز حديثه، «كان من حســن الحظ أنني تمكنــت مــن العثور على الثعبانــين بهذه الطريقة، وفي وســط البلدة. لا يمكن أن تكون على يقين أبدا من الكيفية التي يتصرف بها الناس عندما يكتشفون أنك تحمل ثعابين. في أحد الأيام في القلعة أخذوها مني كلها وقتلوها، الواحد تلو الآخر، أمام عيني. حصيلة سنة من العمل. كنت مضطرا إلى العودة إلى بلدتي وبدء كل شيء مرة أخرى».

عندما كانا يتنــاولان طعامهما، لاحظ علال أن ضيفه ينتابه النوم. «كيف ستسير الأمور؟» تساءل علال. لم تكن هناك طريقة مســبقة لأن يعرف على وجــه التحديد، ما الذي يجب أن يفعله، كما أن مشــهد قيامه بالإمساك بالثعبان كان يفزعه. «بوسعه أن يقتلني»، فكّر.

بمجرد انتهائهما من الطعام، واحتســائهما الشــاي وتدخين بضع سباســي من الكيف، اســتلقى الرجل العجوز فوق الأرض

وقـــال لعلال إنه كان يرغب في أن ينـــام. فنهض علال وقال له، «مـــن هنا!»، وقاده إلى حصيرته الخاصة في حجرة النوم. تمدد الرجل العجوز وراح في النوم بسرعة.

خلال نصف الساعة التي أعقبت نومه ذهب علال عدة مرات إلى حجرة النوم وتفرس في ما بداخلها، لكن لا الجسد في برنسه ولا الرأس المغطى بالعمامة صدرت عنهما أي حركة تذكر.

أخـــرج أولا بطانيتـــه، وبعدما عقد ثلاثة مـــن أطرافها معا، بســـطها علـــى الأرض وجعل الطـــرف الرابع منهـــا في مواجهة الســـلة. ثم وضع ســـلطانية اللبن ومعجون الكيف فوق البطانية. بينما كان يفك الرباط عن غطاء الســـلة ســـعل الرجل العجوز. وقف علال ثابتا، منتظرا ســـماع الصوت الأجش مرة ثانية. هبّ نسيم خفيف، فجعل أفرع أشـــجار النخيل يحتك بعضها ببعض محدثا صوتا خشـــنا، لكن لم يكن هنـــاك صوت آخر من حجرة النوم. تسلل إلى الجانب البعيد من الحجرة وجلس مقرفصا عند الحائط، ونظره مثبت على السلة من دون أن يحيد عنها.

خُيّـــل إليه أكثر من مـــرة أن الغطاء قد تحرك قليلا، لكن في كل مرة كان يعترف بأنه كان مخطئا. ثم أمسك أنفاسه. فقد كان هناك ظل يتحرك عند قاعدة الســـلة. لقد تســـلل أحد الثعابين إلى الخارج من الطرف الآخر. وظل منتظرا فترة قبل أن يواصل تقدمه نحو مصدر الضوء، لكن حينما كان يفعل هذا، نطق علال بالشكر والحمد؛ فقد كان هو الثعبان الأحمر الذهبي.

عندما قـــرر الثعبان في النهاية التوجه إلى الســـلطانية، لف دورة كاملة حول حافتها، وهو ينظر إليها من جميع الجهات، قبل

أن يخفض رأســـه نحو اللبن. كان علال يراقب، وهو يخشى من أن تزعج الرائحة الغريبة لمعجون الكيف الثعبان فينفر منها. ظل الثعبان هناك من دون أن يتحرك.

انتظر نصف ســـاعة أو أكثر. ظل الثعبان في المكان نفسه ولم يتزحزح عنه، ورأســـه مندس في الســـلطانية. من وقت إلى آخر كان علال يلقي بنظرة ســـريعة على السلة ليتأكد من أن الثعبان الآخر لا يزال راقدا في داخلها. واصل النسيم إحداث الاحتكاك بأفرع أشجار النخيل معا. وعندما رأى علال أن الوقت قد حان، نهض ببطء، وهو يراقب السلة، حيث كان من الواضح أن الثعبان لا يزال راقدا فيها، فانحنى ولملم أطراف البطانية الثلاثة معا. ثم رفع الطرف الرابع منها، حيث انزلق كل من الثعبان والســـلطانية إلى داخل قاع الكيس المرتجل. تحرك الثعبان قليلا، لكن علال لم يعتقـــد أن هذا كان بدافع الغضب. كان يعرف على وجه التحديد أين سيخفيه: بين الصخور عند قاع النهر الذي جفت مياهه.

فتح الباب وهو ممســـك بالبطانية أمامـــه وخرج تحت ضوء النجوم. لم يكن المكان بعيدا عن الطريق الممتد عبر مجموعة من أشجار النخيل العالية، ثم انعطف إلى اليسار إلى داخل الوادي. وهنـــاك في مكان ما بين الجلاميد، حيث يمكن أن تكون الحزمة غير مرئية، دســـها بعناية، ثم عاد مسرعا إلى البيت. كان الرجل العجوز مستغرقا في النوم.

لم يكن هناك سبيل للتأكد من أن الثعبان الآخر لا يزال هناك في الســـلة، لذلك التقط علال برنســـه ومضى إلى الخارج. ثم أغلق الباب خلفه واستلقى على الأرض لينام.

قبل أن تشــرق الشمس كان الرجل العجوز قد استيقظ، وظل ممدا في الحجرة وهو يســعل. نهض علال منتفضا، ومضى إلى الداخل، ثم شــرع في إشــعال النار في الموقد. بعد دقيقة سمع الرجل العجــوز يصرخ: «لقد هربا مرة ثانية! تســللا إلى خارج السلة! ابق في مكانك وسأعثر عليهما!»

لــم تمض فترة طويلة قبل أن يهمهم الرجل العجوز في رضى صارخا: «عثرت على الثعبان الأســود!» لم يرفع علال بصره عن الركــن حيــث كان جاثيا، فاقترب منه الرجــل العجوز وهو يلوح بالكوبرا. «يجب عليّ أن أعثر الآن على الثعبان الآخر».

وضع الثعبان في مكانه المعتاد وواصل البحث. عندما اتقدت النار في المجمرة، التفــت علال ناحيته وقال: «هل تريد مني أن أساعدك في البحث عنه؟»

«كلا، كلا! ابق حيث أنت».

قــام علال بغلي الماء وأعد الشــاي، والرجــل العجوز لايزال يزحــف على ركبتيه، وهو يرفع الصناديــق ويدفع الأجولة بعيدا عن أماكنها. انحلت عمامته وجرى العرق على وجهه.

«تعال لتشرب الشاي»، قال علال.

لم يبد أن الرجل العجوز قد سمعه في المرة الأولى. بعد ذلك نهــض ودخل إلى الحجرة، حيث أعاد لف عمامته. وعندما خرج جلس بجوار علال، وتناولا إفطارهما.

«إن الثعابــين ذكية جدا»، قال الرجل العجــوز. «بإمكانها أن تنســل وتدخل في أماكن لا وجود لها على الإطلاق. لقد حركت كل شيء في هذا البيت».

بعدما فرغا من تناول الطعام، ذهبا إلى الخارج وراحا يبحثان عن الثعبان في ما بين جذوع أشـجار النخيل النامية بالقرب من البيـت. عندما اقتنع الرجل العجوز بـأن الثعبان قد ضاع، عاد بحزن إلى البيت.

وفي النهاية قال: «كان هذا الثعبان جيدا. والآن عليّ أن أذهب إلى تارودانت».

ودع أحدهما الآخر وأخذ الرجل العجوز جواله وسـلته وسار في الممر نحو الطريق السريع.

طوال اليوم، بينما كان علال في عمله، كان منشـغلا بالتفكير في الثعبان، لكنه لم يكن قادرا على الوصول إليه حتى حان موعد الغروب فذهب إلى الصخور في الوادي وأخرج البطانية. وحملها عائدا إلى البيت في حال عالية من الانفعال.

وقبـل أن يفك البطانية، ملأ طبقـا عريضا بمزيج من اللبن ومعجون الكيف، ثم وضعه على الأرض. وأكل هو نفسه ملء ثلاث ملاعق من المعجون ثم جلس يشاهد ويراقب، وهو ينقر بأصابعه على طاولة الشـاي الخشـبية الواطئة. حدث كل شيء بالضبط كمـا كان يأمل. خرج الثعبان ببطء من عمق البطانية، وبسـرعة شديدة وجد طريقه إلى الطبق حيث أخذ يشرب الخليط. واصل علال النقر بأصابعه طوال الفترة التي كان الثعبان يشرب فيها، وعندما انتهى الثعبان ورفع رأسـه لينظر إليه، توقف الفتى عن النقر، فزحف الثعبان عائدا إلى البطانية.

في وقت لاحق من ذلك المساء وضع علال المزيد من اللبن في الطبق، وراح ينقر ثانية على الطاولة. بعد فترة قصيرة من الوقت

برز رأس الثعبان، وفي النهاية ظهر الثعبان بالكامل، وتكرر نمط الأداء نفسه مرة ثانية.

فـــي خلال تلك الليلـــة وكل ليلة تلتهـــا، كان علال يجلس مع الثعبان، وهو يحـــاول بصبر لا حدود له أن يجعل الثعبان صديقا له. لم يحاول أن يلمســـه قط، لكنه بعد فترة قصيرة أصبح قادرا على اســـتدعائه، وإبقائـــه أمامه بقدر ما يحب، فقط بمجرد النقـــر على الطاولة، ثم يصرفه وقتما يشـــاء. وقد اســـتخدم معجون الكيف طوال الأســـبوع الأول أو نحو ذلـــك، ثم جرب هـــذا الروتين من دونـــه. وفي النهاية كانت النتيجة واحـــدة. ومـــنذ ذلك الوقت لم يعد يطعمه ســـوى اللبن والبيض فقط.

وذات مـــرة بينما كان صديقه ممددا وهو يتلوى برشـــاقة أمامه، بدأ يفكر في الرجل العجوز، فتمكنت منه فكرة طردت كل الأشياء الأخرى من ذهنه. لم يكن هناك أي معجون كيف فـــي البيت لعدة أســـابيع، فقرر أن يعد بعضا منه. اشـــترى المكونات في اليوم التالي، وبعدما انتهى من عمله في البلدة، أعـــد المعجون. وعندمـــا فرغ من إعداده، خلـــط كمية كبيرة منه مـــع اللبن في ســـلطانيـــة ووضـــعهـــا على الأرض ليـــأكل الثعبان. ثم أكل هـــو نفســـه أربع ملاعق، وتناول بعدها بضع رشفات من الشاي.

خلع ملابسه بسرعة، وحرّك الطاولة حتى يتسنى له الوصول إليها من دون عناء، وتمدد عاريا فوق الحصيرة بجوار الباب. في هـــذه المرة واصل الطرق على المائـــدة، حتى بعدما انتهى الثعبان

من شــرب اللبن. ظل الثعبان ثابتا، وهو ينظر إليه، كما لو أنه لم يعد هناك شك في أن النقر المألوف كان يصدر عن ذلك الجسم البني الممدد أمامه.

وعندمــا لاحظ علال أنه حتى بعــد انقضاء فترة طويلة بقي الثعبان في مكانه، وهو يحدق فيه بعينيه الحجريتين الصفراوين، بدأ علال يقول له مرارا وتكرارا: «تعال هنا». كان يعرف أنه ليس بإمكانه أن يســمع صوته، لكنــه كان يعتقد أن بمقدوره أن يحس بما في ذهنه عندما كان يستحثه على هذا. «بإمكانك أن تجعلها تقــوم بما تريد، ومن دون أن تقول كلمة»، كان الرجل العجوز قد أخبره بهذا من قبل.

على الرغم من أن الثعبان لم يتحرك، فقد اســتمر علال في تكرار أمره، لأنه كان يعرف أنه سوف يأتي إليه. وبعد انتظار آخر طويل، خفض الثعبان رأســه فجأة وبدأ في التحرك نحوه. وصل الثعبــان إلى وركه وانزلق بمحاذاة ســاقه بطولها. ثم صعد فوق ســاقه وظل ممددا لبعض الوقت فوق صدره. كان جسده ثقيلا وفاترا، وكانت حراشــفه ناعمة ملساء على نحو رائع. بعد فترة من الوقت توقف، وتكوّر في ذلك المكان بين رأسه وكتفه.

بمرور الوقت اســتحوذ معجون الكيف علــى عقل علال كلية. اســتلقى في حالة من البهجة الخالصة، وهو يشعر برأس الثعبان قبالة رأسه، ولم يعد يفكر في شيء إلاّ أنه والثعبان كانا معا. كانت الأشــكال التي تتشــكل وتذوب خلف جفنيه قد بدت مماثلة لتلك الأشــكال التي كانت تغطي ظهر الثعبان. بين الحين والآخر كانت تلك الأشكال تدور معا في حركة كبيرة محمومة إلى أعلى ثم تتبعثر

منحلّة إلى شظايا سرعان ما كانت تتحول إلى عين كبيرة صفراء، منقسمة عند المنتصف بوساطة بؤبؤ العين الرأسي الضيق الذي كان ينبض على إيقاع نبضاته. بعد ذلك كانت العين تتراجع، خلال تحول وتبدل الظلال وضوء الشمس، حتى بقيت فقط الأشكال المزينة لحراشف الثعبان، وهي تندفع محتشدة بإصرار متجدد بينما كانت تندمج ثم تنفصل. وفي النهاية عادت العين من جديد، بشكل كبير جدا هذه المرة بحيث بدت من دون أي حواف حولها، وكان البؤبؤ قد اتسع ليشكل ثقبا واسعا تقريبا بحيث يسمح له بالدخول فيه. وبينما كان يحدق داخل هذا السواد، أدرك أنه كان ينجذب ببطء نحو الفتحة. وضع يديه بحيث تلامسان السطح اللامع المصقول للعين على كلا الجانبين، وبينما كان يفعل هذا شعر بأنه ينجذب إلى داخلها. انزلق في الفتحة وابتلعه الظلام.

عندما استيقظ علال أحس بأنه قد عاد من مكان ما بعيد جدا. فتح عينيه فرأى، على مقربة شديدة منه، ما يشبه خصر وحش ضخم، مغطى بشعر خشن صلب. كان هناك اهتزاز متكرر في الهواء، مثل رعد بعيد يتحرك بطريقة التفافية عند حواف السماء. تنهد، أو تخيل أنه تنهد؛ لأن تنفسه لم يند عنه أي صوت. ثم حرّك رأسه قليلا، محاولا أن يرى ما وراء كتلة الشعر المحاذية له. بعد ذلك رأى الأذن، وأدرك أنه كان ينظر إلى رأسه هو من الخارج. لم يكن يتوقع هذا، كان يأمل فقط في أن يقترب صديقه ويشاركه عقله. لكن الأمر لم يبد له غريبا على الإطلاق، فقط قال لنفسه إنه كان يرى في هذه اللحظة بعيني الثعبان، بدلا من عينيه هو.

فهم الآن لماذا كان الثعبان حذرا منه: فقد كان الفتى من هذا المكان يبدو مخلوقا بشعا، بكتل الشعر المجعد على رأسه وتنفسه الذي كان يتردد داخله مثل عاصفة مفرطة البُعد.

بسط نفسه وانساب عبر الأرضية إلى الحجرة. كانت هناك ثغرة في الجدار الطيني بدرجة تسمح له بالخروج. وعندما دفع نفسه خلالها، تمدد بالكامل على الأرض في ضوء القمر الشفاف، وهو يحدق في غرابة المشهد، حيث لم تكن الظلال ظلالا.

زحف بمحاذاة جانب البيت ومضى في الطريق صاعدا نحو البلدة، مبتهجا بإحساس الحرية المختلف عن أي إحساس آخر أحس به من قبل. لم يكن هناك إحساس بأن له جسدا، لأنه كان مضمنا تماما في الجلد الذي كان يغطيه. كان من الرائع أن يداعب الأرض بمعدته الطويلة الممتدة بينما كان يتحرك على امتداد الطريق الصامت، وهو يشم رائحة العروق الحادة لنبات الشيح في الريح. عندما ارتفع صوت المؤذن من المسجد في سماء القرية، لم يكن بإمكانه أن يسمعه، أو يعرف أن الليل سينتهي في غضون هذه الساعة.

عندما لمح رجلا أمامه، ترك الطريق واختبأ وراء صخرة حتى زال الخطر. لكن هناك بينما كان يقترب من البلدة بدأ الكثيرون من الناس يتواجدون، حتى أنه ترك نفسه يهبط نحو «الساقية»، ذلك المصرف العميق الذي يوجد بمحاذاة الطريق. وفي ذلك المكان كانت الأشجار وكتل النباتات الميتة تعوق تقدمه. كان ما زال يجاهد على امتداد أرض الساقية، وهو يدفع نفسه حول

الصخـــور وبين كتل الأغصان الجافة الملبـــدة التي خلفتها المياه، عندما بدأ الفجر يبزغ.

قدوم النهار جعله يشـــعر بالقلق والتعاســـة. تسلق إلى أعلى ضفة الساقية ورفع رأســـه ليتفحص الطريق. رآه رجل كان يمر به، فوقف برهة ســـاكنا تماما، ثم استدار وجرى إلى الخلف من حيث أتى. لم ينتظر علال فقد كان يريد الوصول إلى البيت الآن بأسرع وقت ممكن.

بمجـــرد أن أحس بصوت ارتطـــام حجر بالأرض في مكان ما خلفـــه، ألقى بنفســـه على الفور من فوق حافة الســـاقية وزحف إلى أســـفل الضفة. كان على درايـــة بالتضاريس في هذا المكان، فحيث كان الطريق يقطع الوادي، كانت هناك ماسورتان للصرف الصحي ليســـتا بعيدتين إحداهما عن الأخرى. كان هناك رجل يقف أمامه على مســـافة ممسكا بجاروف، وهو يحدق إلى أسفل في الساقية. فواصل علال التحرك، وهو يدرك أن عليه أن يصل إلى ماســـورة الصرف الصحي الأولـــى قبل أن يتمكن الرجل من الوصول إليه والتمكن منه.

كانت أرضية النفق الممتد أســـفل الطريـــق مضلعة بتموجات رملية صغيرة. وكان هواء الماسورة التي يتحرك خلالها له رائحة جبليـــة. ثمة أماكن فـــي هذا المكان كان بإمكانـــه الاختباء فيها، لكنه واصل التحرك، وســـرعان مـــا وصل إلى الطرف الآخر من ماســـورة الصرف الصحي. ثم واصل تحركه إلى الماسورة الثانية فمضى تحت الطريق في اتجاه آخر، إلى أن برز مرة ثانية وسط الســـاقية. كان كثيرون من الرجال خلفه وقد تجمعوا عند مدخل

الماســورة الأولى، وكان أحدهم جاثيا على ركبتيه ورأسه وكتفيه في داخل الفتحة.

انطلق الآن إلى البيت في خط مستقيم عبر الأرض المنبسطة، وقد أبقى عينيه مثبتتين في حذر على كتل أشجار النخيل المجاورة لهذه الأرض المنبسطة. كانت الشمس قد أشرقت، وبدأت الأحجار تعكس ظلالا طويلة مائلة إلى الزرقة. فجأة ظهر ولد صغير من خلف جذوع أشــجار النخيل في الجــوار، رآه الولد، ففتح عينيه على اتســاعهما وفغر فمه من شدة الرعب. فقد كان الولد على مقربة شديدة من علال إلى درجة أنه اندفع إليه مباشرة ولدغه في قدمه. جرى الولد بخطوات واسعة في انفعال نحو مجموعة الرجال عند الساقية.

أســرع علال نحو البيت، ولم ينظر إلــى الخلف إلاّ عندما وصــل إلى الفتحة الموجودة في الطــوب اللبن. كان عدة رجال يركضون نحوه من بين الأشــجار. فاندس بســرعة إلى داخل حجرة النوم. كان الجســد الأســمر لا يزال ممددا بالقرب من الباب. ولم يكن هناك متســع من الوقت، وكان علال في حاجة إلى بعض الوقت ليعود إلى الجســد، ليتمــدد على مقربة من رأسه ويقول له: تعال هنا.

بينما كان يحدق في الحجرة حيث يرقد الجســد، كان هناك طرق عنيــف على الباب. كان الفتى قد وقــف على قدميه عند أول الطــرق، كما لــو كان زنبركا قد تحرر فجأة، ورأى علال في يــأس تعبير الرعب الكامل على وجهــه، وكيف أن عينيه لا عقل خلفهمــا. وقف الولد يلهث، وقبضتــاه مضمومتان. انفتح الباب

وحدّق بعــض الرجال إلى داخل البيت. ثم خفض الفتى رأســه وهــو يصرخ ثم اندفع إلى الخارج عبــر فتحة الباب. تمكن أحد الرجال من الخروج بهدف الإمساك به، لكن توازنه اختل وسقط على الأرض. اســتداروا بعد لحظة وبدأوا يركضون خلف الشكل العاري خلال بستان أشجار النخيل.

حتــى عندمــا كانوا، يفقــدون أثره، من وقت إلــى آخر، كان بوســعهم ســماع صراخه، وعندئذ كانوا يتمكنون من رؤيته، بين جــذوع أشــجار النخيل، وهو لا يــزال يعدو. وفــي النهاية تعثر وســقط على وجهــه، عندئذ تمكنوا من الإمســاك به، وتقييده، وســتر عريه، ثم اصطحابه بعيدا، لإرســاله في أحد الأيام بعد ذلك مباشرة إلى المستشفى في برشيد.

بعد ظهر ذلك اليوم عادت المجموعة نفســها من الرجال إلى البيــت لاســتئناف البحث الذي كانوا قد عزمــوا عليه في وقت سابق. كان علال ممددا في حجرة النوم، ناعسا. عندما استيقظ، كانوا قد أصبحوا بالفعل في الداخل. فالتفت وانسل إلى الفتحة، فرأى رجلا كان ينتظر هناك خارج البيت، وفي يده هراوة.

انطلق الغضب الذي كان يعتمل في قلبه دائما، وانفجر في تلك اللحظة، وكما لو أن جســده كان سوطا، قفز إلى خارج الحجرة. كان الرجال الذين على مقربة منه يزحفون على أيديهم وركبهم، فشعر علال بالغبطة والســرور وهو يغرس نابيه في اثنين منهم قبل أن يتمكن الثالث من فصل رأسه بضربة فأس.

العين

منذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة جاء إلى هنا رجل للعيش في طنجة، كان من الأفضل له أن يبقى بعيدا عنها. فما حدث له لم تكن له يد فيه من دون شك، على الرغم من التلميحات الهامسة للمقيمين هنا من السكان المتحدثين بالإنجليزية. عادة ما تصدر عن هؤلاء الناس ردود أفعال مشابهة لتلك التي تصدر عن جماعات بدائية بعينها، عندما تحل البلية بفرد من أفرادها، فإن الآخرين يتفقون على عدم مد يد العون إليه، فلا يفعلون شيئا سوى النأي والجلوس للفرجة، وهم على يقين من أنه هو من أنزل المعاناة والشقاء على نفسه، وبالتالي يصبح هذا الشخص في المنطقة المحرمة، وغير صالح لتلقي المساعدة. في حالة هذا الرجل على وجه التحديد، أظن، أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يساعده، ومع ذلك، كان استنكار ما أوقعه فيه حظه السيئ، لا محالة قد جعل الأشهر الأخيرة من حياته أكثر مشقة من حيث التحمل.

كان اسمه دنكان مارش، قيل إنه جاء من فانكوفر. لم تسبق لي رؤيته، ولم تسبق لي معرفة أحد ادعى أنه قد رآه. ومنذ الوقت الذي تناهت إلى أسماعنا فيه قصة موته في دائرة حفلة الكوكتيل، شعر بعض السكان الأجانب الأقل تقديرا للمسؤولية بأنه قد أصبح لهم مطلق الحرية في أن يطلقوا العنان لميولهم في نسج الأساطير.

كان قــد جاء إلى طنجة بمفرده، واســتأجر بيتا مؤثثا على ســفح «جامع المقرى»(*) كان في غاية السهولة عليه العثور في تلك الأيام على بيت كهذا، وفي الوقت نفســه كان رخيصا في تكلفتــه، وفي تلك الفترة عين مغربيا في ســن المراهقة للعمل كحــارس ليلي للبيــت وملحقاته. كان البيــت مجهزا بطاهية وبســتاني مقيــم، لكن كليهما أعفي مــن خدمته، وحلت محل الطاهية امرأة أخرى بناء على اقتراح الحارس. ولم تمض على ذلك فتــرة طويلة حتى بدأ مارش في الإحســاس بالأعراض الأولــى لمرض في الجهاز الهضمي، أخذ يزداد معه على مدار الشــهور حتى أصبح أكثر تدهورا باستمرار. فنصحه الأطباء في طنجــة بالذهاب إلى لندن. ســاعده قضاء شــهرين في المستشــفى على التعافي نوعا ما. لم يحدث تشــخيص دقيق للحالــة، ومع ذلك، عاد إلى هنا، ليلبــث طريح الفراش. وفي النهايــة أرســل بالطائرة إلى كندا محمولا علــى نقالة، ولقي حتفه هناك بعد وصوله بوقت قصير.

في خلال كل هذا لم يكن هناك شيء غير عادي، فقد افترض أن مارش كان أحد ضحايا التســمم البطيء من جانب الموظفين المحليين. كانت هناك عدة حالات مماثلة طيلة العقود الخمســة التي مكثتها في طنجة. وفي كل حالة منها كان يقال إن الضحية الأوروبية نفســه، أو نفســها، وحدها الملامة، لتشجيعها الخادم على التآلف والحميميــة الزائدة. ما يبدو غريبا هو أن أحدا لم يأخذ المســألة أبدا على محمل الجد من حيث التقصي والبحث

(*) وردت بالعربية [المترجم].

عن المتهـم، لكن نظرا إلى انعدام الدليل لم تكن هناك أهمية أو غاية لمحاولة التحقيق.

ثمة مسـألتان في التفاصيل تكملان القصة. في فترة ما في أثناء مرضه، أخبـر مارش صديقا مقربا منـه بالترتيبات التي اتخذها لتوفير إعانة مالية لحارسـه الليلي في حال إذا ما تعين عليه هو نفسـه مغادرة المغرب مجبرا، وقد أعطى للولد خطابا موثقـا متعلقا بهذا الموضوع، لكن من الواضح أن الولد لم يحاول الضغط أبدا للمطالبة بحقه. جاء تقرير آخر من الطبيب هالسي، وهـو الذي رتّب لنقل مـارش من البيت إلى المطـار. كانت هذه المعلومة الصغيرة هي التي جعلت القصة، على الأقل بالنسبة إلي، تعود وتدب فيها الحياة مجددا؛ فوفقا لما ورد في تقرير الطبيب، كان باطنا قدمي مارش محفورين بطريقة مرتبة ومنظمة بشقوق عميقة على هيئة أشكال غير متقنة، وكانت الشقوق حديثة، لكن كان هناك بعض التلوث الميكروبي. اسـتدعى الطبيب هالسـي الطاهية والحـارس الليلي، فبدت عليهما الدهشـة والهلع عند رؤيتهمـا لقدمي صاحـب البيت، وكانا غيـر قادرين على تبرير هذه التشـوهات. في غضون أيام قليلة من رحيل مارش، عادت الطاهية والبستاني الأصليان، اللذان كان قد استغني عنهما، إلى الإقامة في البيت، إثر مغادرة الاثنين الآخرين اللذين تركا البيت بالفعل عقب الحادث.

كان التسميم البطيء واضحا تماما، خصوصا في ضوء ملاحظة مارش عن تقديم المعونة للولد، لكن الأشكال المحفورة بالسكين في القدمين كانت عائقا في طريق أي مجموعة من الدوافع التي يمكن

أن يستنتجها المرء. فكرت في هذا الأمر. من الممكن أن يكون هناك بعض الشك في أن الولد كان مذنبا. فقد تمكن من إقناع مارش بطرد الطاهية التي كانت موجودة في البيت منذ البداية، على الرغم من أنه كان عليه الاستمرار في دفع أجرتها، واستئجار امرأة أخرى (في الأغلب من عائلته) لتقوم بطهي الطعام. تستمر عملية التسمم شهورا ولو كانت غير ملحوظة، ولم يكن هناك من هو في مكان أفضل لتولي مسؤولية هذه العملية من الطاهية نفسها. كان من الواضح أنها قد عرفت بالترتيب المالي الذي قد اتخذ لمصلحة الولد، وتوقعت المشاركة فيه. في الوقت نفسه، كانت الشقوق المتصالبة والدائرية في القدمين غير قابلة للتفسير. إن من دس السم البطيء صبور، وحذر، ومنظم، همه الرئيسي هو إبقاء الجرعة مؤثرة وأيضا تجنب ترك أي علامات مرئية. كان التهور والمخاطرة غير واردين عنده.

جاء وقت لم يعد الناس تأتي فيه على ذكر قصة دنكان مارش. أنا نفسي قليلا ما كنت أفكر فيها، فلم يعد يوجد لديّ المزيد من الافتراضات العملية الملائمة والمحتملة لأقدمها. ذات مساء ربما منذ خمس سنوات، جاء إليّ أحد الأمريكان المقيمين هنا بخبر مفاده أنه قد عثر على مغربي زعم أنه كان حارس مارش الليلي. كان اسم الرجل هو «العربي»، ويعمل نادلا في مطعم صغير في شارع جانبي يدعى «لا فان بيك». يبدو واضحا أنه كان يتحدث الإنجليزية بشكل سيئ، لكنه كان يفهمها من دون صعوبة. قال الأمريكي إن هذه المعلومة ستكون بمنزلة عون لي، في حال إذا ما شعرت بالرغبة في الاستفادة منها.

قلَّبت الأمر في رأسي، وذات ليلة بعد ذلك بعدة أسابيع ذهبت إلى المطعم لرؤية العربي بنفسي. كان المكان مضاء بشكل خافت ومملوءا بالأوروبيين. تفحصت عمال المطعم الثلاثة. كان يشبه بعضهم البعض، فلكل منهم شارب أسود عريض، ويرتدون الجينز الأزرق، وقمصان خفيفة مفتوحة العنق. أعطاني أحدهم قائمة الطعام، تمكنت من قراءتها بصعوبة شديدة، حتى عندما وضعتها مباشرة تحت وهج مصباح المائدة الصغير. وعندما عاد الجرسون الذي أحضرها لي، سألت عن «العربي».

انتزع القائمة من يدي وترك المائدة. بعد لحظة ظهر نادل آخر من الثلاثي واقترب مني وناولني القائمة التي كان يحملها تحت ذراعه. طلبت ما أردته بالإسبانية. عندما أحضر الحساء تمتمت قائلا له إنني لم أكن أتوقع أن أجده يعمل في هذا المكان. أدهشه هذا، كان بوسعي أن أرى أنه كان يحاول أن يتذكرني.

«ولِمَ لا أعمل هنا؟» كان صوته ثابتا، من دون أن يتغير مستواه.

«بالطبع! لِمَ لا؟ كل ما في الأمر أنني تخيلت أنك تمتلك بازارا أو دكانا على الأقل».

كانت لضحكته شهقة معبرة عن الاستياء والسخط «بازار!»

عندما جاء بالطلب الثاني اعتذرت له عن تدخلي في شؤونه. لكنني قلت له إنني كنت مهتما، لأنني كان قد ترسخ لديّ اعتقاد منذ عدة سنوات بأنه قد تسلم ميراثا من سيد إنجليزي.

«هل تقصد السنيور مارش؟» كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما.

«نعم. هذا اسمه. ألم يعطك الرسالة؟ لقد أخبرني أصدقاؤه أنه قد فعل ذلك».

تطلع من فوق رأسي بينما قال: «لقد أعطاني خطابا».

«هل سبق لك أن أطلعت أحدا عليه؟» كان هذا تهورا وافتقارا للياقة من جانبي، لكن في بعض الأحيان يكون من الأفضل أن تمضي إلى الهدف مباشرة.

«لماذا؟ وما الفائدة من هذا؟ فالسنيور مارش قد مات؟» وهزّ رأسه بشكل قاطع، وانتقل إلى مائدة أخرى. بمرور الوقت انتهيت من الكريم كراميل، وعندما انصرف معظم الزبائن، وبدا المكان أكثر عتمة، جاء إلى مائدتي ليرى إن كنت أرغب في تناول القهوة. طلبت فاتورة الحساب. وعندما أحضرها لي قلت له إنني أود كثيرا أن أرى الخطاب إن كان لا يزال في حوزته.

«بإمكانك أن تأتي ليلة غد أو أي ليلة، وسوف أطلعك عليه. إنه في البيت».

شكرته ووعدته بالعودة في غضون يومين أو ثلاثة. كنت متحيرا بينما كنت أغادر المطعم. فقد بدا من الواضح أن النادل لم يعتبر نفسه مسؤولا عن المتاعب التي لحقت بدنكان مارش. عندما اطلعت على الوثيقة، بعد بضع ليال، لم أعد أفهم أي شيء.

لم يكن خطابا، بل عريضة من النوع الذي يباع في أكشاك السجائر. تقول في بساطة ووضوح: لمن يهمه الأمر «أوافق أنا، دنكان وايت لو مارش، بموجب هذه الوثيقة على إيداع مبلغ مائة جنيه في حساب العربي الريني، في مطلع كل شهر، مادمت

أنــا على قيد الحيــاة». كانت موقعة وموثقة بحضور شــاهدين مغربيين، وتحمل تاريخ الحادي عشر من يونيو ١٩٦٦. قلت بينما كنت أعيدها إليه: «ولم تعد عليك بأي فائدة».

هــزّ كتفيه ودسّ الورقــة في محفظته. «وكيف ســتعود عليّ بالفائدة؟ فالرجل قد مات».

«إن هذا سيئ جدا»، قلت.

«ســيرت»، في الاســتخدام المغربــي الدارج، تعنــي المكتوب أو القضــاء والقــدر أكثر مما تعني المصادفــة أو الحظ المحض البسيط.

كان بإمكاني في تلك اللحظة أن ألح فأسأله إن كانت لديه أي فكرة عن ســبب مرض دنكان مارش، لكننــي كنت في حاجة إلى مزيد من الوقت للتفكيــر في ما كنت قد عرفته لتوي. قلت بينما كنت أنهض لأغادر، «أنا آسف لأن الأمور قد سارت بهذه الطريقة. ســأعود خلال بضعة أيام». مدّ يده لــي فصافحته. لم تكن لديّ آنذاك نية في العودة. ربما أعود قريبا أو ربما لا أرجع أبدا.

«مادمت على قيد الحياة». ظلت هذه العبارة تتردد في ذهني لعــدة أســابيع. من المحتمل أن مــارش أورد هــذه العبارة بهذه الطريقة ليســهل فهمها على الشــاهدين العدلين(*) من طنجة، اللذيــن وضعــا توقيعهما المنمق على الوثيقــة، ومع ذلك لم يكن بمقدوري تفســير الكلمات إلاّ بطريقة أكثــر ميلودرامية. كانت الوثيقة بالنسبة إلي تمثل إقرارا قانونيا لوثيقة جرى إبرامها بين خادم وســيده في حضورهما. أراد بها مارش مساعدة الحارس

(*) وردت بالعربية [المترجم].

الليلـــي، ووافق الحارس الليلي على طلب ســيده. لم يكن هناك شيء لأؤســس عليه مثل هذا الاستنتاج أو الفرض، وعلى الرغم مــن ذلك كنت أعتقــد أنني في الطريق الصحيــح. بدأت أؤمن بالتدريج أنه لو كان بوســعي التحدث مع الحارس الليلي، باللغة العربيــة وفي داخل البيت نفســه، فربما أكون في وضع يتيح لي رؤية الأمور بوضوح أكثر.

ذهبت ذات مســاء إلى مطعم «لا فان بك» ومن دون أن أجلس أشــرت إلى العربي أن يحضر إلى الخارج للحظة. وهناك سألته إن كان بإمكانه أن يعرف لي ما إذا كان البيت الذي كان السنيور مارش يسكنه لايزال خاليا حتى تلك اللحظة أم لا.

«لا أحد يســكن هناك في الوقت الراهن». توقف، ثم أضاف: «إنه خال من السكان. أنا أعرف الحارس الوصي».

كنت قد قررت، على الرغم من إلمامي الضعيف باللغة العربية، أن أتحــدث إليه بلغته، لذا قلت: «انظر. أريد أن أذهب معك إلى البيت حيث أرى أين حدث كل شيء. سأعطيك خمسة عشر ألف فرنك مقابل أتعابك».

كان قد فزع لســماعه للغة العربية، ثم تبدّل تعبير وجهه إلى الرضــا، وقــال: «من المفتــرض أن هذا الحارس لا يســمح لأي شخص بالدخول».

ناولته ثلاثة آلاف فرنك. «رتب هذا معه. وخمســة عشر لك عندما نغادر البيت. هل بإمكانك القيام بهذا يوم الخميس؟».

يجب عليّ أن أقول إن البيت قد بني في الخمسينيات عندما كان البناء الجيد ممكنا في ذلك الوقت. كان البيت منغرسا بشكل

متين وراسخ في سفح التل، والغابة مرتفعة من ورائه. اضطررنا إلـــى صعود ثـــلاث مجموعات من درجات الســـلم عبر الحديقة للوصول إلى المدخل. الحارس الوصي، وهو رجل جبلي(*) مقطب الجبـــين ويرتدي جلبابا بنيا، تبع خطواتنـــا عن كثب، وهو ينظر إليّ بارتياب.

كانت هناك شرفة عريضة فوق الطابق العلوي، تطل من جهة الجنوب الشـــرقي على المدينة والجبال. خلف الشرفة مرج ظليل ينتهي حيث تبدأ الغابة. كانت حجرة المعيشـــة واســـعة ومضيئة ومزودة بأبواب على الطراز الفرنسي تطل على المرج. كانت روائح الجدران الرطبة والعفن الفطري تزكم الأنوف. القناعة الحمقاء بأنني كنت على وشـــك أن أفهم كل شـــيء تملكتني واســـتحوذت علـــيّ، ولاحظت أنني كنت أتنفس بســـرعة أكبـــر. تجولنا داخل حجـــرة الطعام. كان هنـــاك ممر في الخلفيـــة، وكانت الحجرة التـــي نام فيها مـــارش مغلقة ومظلمة. كان هناك ســـلم عريض حلزونـــي يؤدي إلى طابق في الأســـفل حيث كانت هناك حجرتا نوم إضافيتين ويســـتمر الســـلم في حلزونيته مؤديا إلى الأسفل حيث المطبخ وحجرات الخدم. كان باب المطبخ مفتوحا على فناء صغير أرضيته مفروشة بالحجارة وجدرانه العالية غطتها نباتات الفيلودبندرون(* *).

تطلـــع العربي إلى الخارج حيث الفناء ثم هزّ رأســـه وقال في تجهم: «هذا هو المكان الذي بدأت فيه المشكلة كلها».

(*) وردت بالعربية [المترجم].

(* *) نبات أمريكي استوائي متسلق من عائلة الأرسيا، لأوراقه لون أخضر لامع وملمس ناعم، وغالبا ما يستخدم في تزيين المنازل [المترجم].

اندفعت عبر المدخل وجلست في الشمس على دكة من الحديد المطاوع. «إن المكان رطب في الداخل. لماذا لا نجلس هنا في الخارج؟» قلت للعربي.

تركنا الحارس الوصي وأغلق البيت. جلس العربي مقرفصا بشكل مريح على عقبيه قرب الدكة.

لم تكن لتحدث أي مشكلة على الإطلاق، لو كان مارش قد رضي بياسمينة، الطاهية التي كان راتبها جزءا من الإيجار، لكنها كانت طاهية مهملة وكان الطعام الذي تطهوه سيئا. وقد طلب مارش من العربي أن يعثر له على طاهية أخرى.

«قلت له من البداية إن لدى هذه المرأة التي تدعى مريم فتاة صغيرة، وأن بمقدورها أن تتركها لبضعة أيام مع صديقات لها. لكنها ستضطر في الأيام الأخرى إلى إحضارها معها عندما تأتي إلى العمل. وقال إن الأمر ليس ذا أهمية، لكنه كان يريد منها أن تبقى هادئة».

استأجر المرأة. كانت ليومين أو ثلاثة في الأسبوع تصطحب الفتاة معها، حيث كانت تلعب في الفناء ويكون باستطاعتها أن تراقبها. اشتكى مارش منذ البداية من أنها كانت مزعجة وكان يرسل الرسائل مرارا وتكرارا إلى مريم في الطابق السفلي، يطلب منها أن تسكت الطفلة. وفي أحد الأيام تسلل بهدوء حول البيت من الخارج ثم هبط إلى الفناء. وحبا على يديه وقدميه، ووضع وجهه في وجه الفتاة الصغيرة، وتجهم في وجهها بصورة وحشية جدا إلى درجة أنها أخذت في الصراخ. عندما اندفعت مريم مسرعة إلى خارج المطبخ نهض مارش مبتسما ومشى مبتعدا. واصلت الفتاة الصغيرة

الصراخ والنحيب في ركن من المطبخ حتى أخذتها مريم إلى البيت. في تلك الليلة، وكانت لاتزال تبكي، أصيبت بحمى شـديدة. وظلت عدة أسـابيع متأرجحة بين الحياة والموت، وعندما تجاوزت مرحلة الخطر أخيرا، كانت قد فقدت قدرتها على السير.

أخذت مريم، التي كانت تتقاضى أجرا عاليا نسبيا، تستشير فقيهـا(*) تلو الآخر. وأجمعوا جميعا على أن «العين» قد أصابت الطفلـة، وكان من الواضح أن من أصابها هـو «النصراني»(* *) الـذي كانت تعمل عنده. كان يجب عليهـا أن تفعل ما قالوه لها، قـال العربي شـارحا، وكان أن تقوم بإعطاء مـارش مواد معينة سـيكون بإمكانها فـي النهاية أن تبطل السـحر. وقال لي وهو يحدق في وجهي بشـكل مريك، إن هذا كان ضروريا جدا. حتى لو كان السـنيور قد وافق علـى إبطال مفعول العين (وبالطبع لم تكـن مريم لتقدر على ذكر هذا إليه) فإنه لم يكن بإمكانه القيام بهـذا. ولم تكن العقاقير التي أعطتهـا له ضارة، بل مجرد دواء لجعله أكثر اسـترخاء بحيث عندما يأتي الوقت المناسب لفك أو إبطال السحر لا يبدي أي نوع من أنواع المعارضة.

في وقت ما أسرّ مارش للعربي أنه يشك في مريم ويعتقد أنها تضع مادة مخدرة في طعامه، وشـدّد عليه أن يكون حذرا ويقظا لها. وكانت الوثيقة الموقعة التي تضمن للعربي عيشة كريمة بمنزلة حافز لضمان مسـاعدته الفعالة هذه. ونظرا إلى أن العربي كان يعتقد أن المخاليط التي كانت تدسها مريم في طعام سيدها غير ضارة نسبيا، فقد طمأنه وتركها تواصل تسميمه بعقاقيرها.

(*) وردت بالعربية [المترجم].

(* *) وردت بالعربية [المترجم].

بعدمـــا تملكه التعـــب من الجلوس القرفصـــاء، نهض العربي فجأة وبدأ يسير جيئة وذهابا، وهو يخطو بحرص فوق منتصف كل بلاطة حجرية. «عندما تعين عليه الذهاب إلى المستشفى في لندن، قلت لها: لقد أصبته الآن بالمرض. افترضي أنه لن يتمكن من العودة؟ فإنك لن تســتطيعي إزالة مفعــول العين أبدا. كانت قلقة بهذا الشـــأن. «لقد فعلت ما كان باســتطاعتي»، قالت، «إن الأمر الآن بين يدي الله».

عندما عاد مـــارش بالفعل إلى طنجـــة، حثها العربي على ســـرعة إنجاز الأمـــر، خصوصا أنها كانـــت محظوظة بالقدر الكافـــي لأنه قد عـــاد. كان العربي يعتقد، حســـبما قال، أنه كان من الأفضل لصحة الســـنيور مارش لو أنها لم تستمر في معالجته لفترة طويلة.

لم أســـأل أي أســـئلة بينما كان يتحدث، وقصدت أن أبقي وجهي خاليـــا من التعبير كلية، لاعتقـــادي أنه لو لاحظ أدنى علامة على الاســـتهجان فقد يتوقف. كانت الشمس قد غابت خلـــف الأشـــجار وكان الفناء يبعث القشـــعريرة في جســـدي فانتابتني رغبـــة قوية في النهوض والســـير جيئة وذهابا كما كان يفعل هـــو، لكنني اعتقدت أنه حتى هذا قد يتســـبب في مقاطعـــة كلامه. فبمجرد أن يتوقـــف التدفق فإنه قد لا يعود إلى الجريان ثانية.

وســـرعان ما صار مارش أســـوأ مما كان عليـــه في أي وقت مضى، آلام مبرحة في معدته وكليتيه. وظل وقتها في الســـرير، وكان العربي يحضر له الطعام.

عندما رأت مريم أنه لم يعد قادرا على مغادرة السرير، حتى للذهاب إلى الحمّام، قررت أن الوقت قد حان للتخلص من سحر العين. في الليلة نفسها التي عقد فيها الفقيه مراسمه في منزلها في حضور الطفلة المشلولة، حضر أربعة رجال من عائلة مريم إلى المكان هنا في «جامع المقري».

«عندما رأيتهم قادمين، ركبت دراجتي البخارية وذهبت إلى المدينة. لم تكن بي رغبة في أن أكون هنا عندما يقومون بما انتووه. فالأمر لا يعنيني في شيء».

وقف ساكنا وهو يفرك يديه معا. بدأت في سماع صوت الريح الجنوبية الغربية عبر الأشجار، كان الوقت بعد الظهر. «تعال، سأطلعك على شيء ما»، قال.

تسلقنا درجات جانبية من خلف البيت ووصلنا إلى شرفة تعلوها تعريشة. وكان خلف الشرفة مرج ممتد وسور من الأشجار.

«كان مريضا جدا ليومين متتاليين عقب الواقعة. وظل يطلب مني أن أتصل هاتفيا بالطبيب الإنجليزي».

«ألم تفعل ذلك؟».

توقف العربي عن السير ونظر إليّ. «كان عليّ أولا أن أقوم بتنظيف كل شيء. فمريم لم تكن تلمسه. كان ذلك في أثناء موسم تساقط الأمطار. وكان الطين والدم يغطيانه عندما رجعت إلى هنا ووجدته. في اليوم التالي أعطيته حماما وغيرت الملاءات والبطاطين. ونظفت البيت، لأنهم كانوا قد لوثوا كل شيء عندما أعادوه إلى هنا. تعال معي، وسترى إلى أين كان لهم أن يأخذوه».

عبرنا المرج وكنا نسـير في حزام العشـب الطويل الذي كان يطوق حـدود أطراف الغابة. كان هناك ممـر يؤدي إلى اليمين خلال شبكة من الشجيرات المنخفضة، فتابعنا سيرنا فيه، ونحن نخطو فوق الصخور وجذوع الأشجار المتساقطة حتى وصلنا إلى بئـر حجرية كبيرة. انحنيت فوق الجـدار الصخري المحيط بها فرأيت دائرة صغيرة من السماء منعكسة على صفحة الماء بعيدا إلى أسفل.

«كان يجـب عليهم أن يجروه على طـول الطريق كله إلى هنا، كما ترى، وأمسـكوه بثبات فوق البئر مباشرة بينما كانوا يحفرون العلامات في قدميه، بحيث يسـقط الدم في الماء. كان من الفأل السيئ أن يسـقط الدم على جانب البئر. وكان عليهم أن ينقشوا العلامات نفسها التي كانت مرسومة في ورقة الفقيه لإنقاذ الفتاة الصغيـرة. كان من الصعب جدا القيـام بهذا خاصة في الظلام والمطر. لكنهم قاموا به. لقد رأيت الشقوق عندما كنت أحممه».

سـألته بحـذر إن كان قد رأى أي علاقة بـين كل هذا وموت مارش. توقف عن التحديق إلى السور والتفت إلى الخلف. وبدأنا نمشي عائدين نحو البيت.

«لقد مات لأن ساعته قد حانت».

سـألته «هل انفكّ السحر؟ هل اسـتطاعت الطفلة المشلولة السـير بعد ذلك؟» لكنه لم يسمع بشيء من هذا أبدا، لأن مريم ذهبت بعد فترة قصيرة جدا لتعيش مع أختها في قنيطرة.

عندما كنا في السـيارة، في طريق عودتنا إلى المدينة، ناولته المال. فحدّق فيه لعدة ثوان قبل أن يدسه في جيبه.

تركتــه ينزل فــي البلدة وقــد تملكني إحســاس غامض من الإحبــاط وخيبة الأمل، ورأيت أنني لــم أتوقع فقط، بل وتمنيت حقــا، أن أجد شــخصا ما قد يصلح لأن يكــون مذنبا، ولكن ما الجريمــة؟ لم تكــن هناك أي نية في ارتــكاب جريمة، مجرد أم تتخبــط في ظلمة الجهل العتيــق. فكرت في هذا الأمر وأنا في طريق عودتي إلى البيت مستقلا سيارة الأجرة.

في الغرفة الحمراء

عندما كنت أمتلك بيتا في سـريلانكا، جـاء أبي وأمي في أحد فصول الشـتاء لرؤيتي. مبدئيا شـعرت بقـدر من تأنيب الضمير بسـبب تشـجيعي لزيارتهما. فربما كان لأي سبب من هذه الأسـباب - الحرارة المستمرة، والطعام ومياه الشرب غير المعتادين، وحتى وجود عيادة للجذام على مسـافة ربع ميل من البيت - تأثيره السـلبي فيهما بطريقـة أو بأخرى. لكنني كنت أبالغ فـي التقليل من قدرتهما على التكيـف، فقد أبديا قدرة عاليـة أكبر مما كنت أظـن، وكانا قانعـين وراضيين كلية بكل شيء. على الرغم من عدم مبالاتهما بالافتقار إلى المياه الجارية في الحمامات، ومدحا بشـكل مسـتمر الكاري الذي كان يقوم «أبوهامي» الطباخ المقيم، بإعداده. كان كلاهما في السبعينات من العمر، لم تغرهما مسـافة أو أماكـن اهتمام أكثر بعدا من جزيرتي الصغيرة. كان كافيا بالنسـبة إليهما البقاء في البيت يقرآن، أو ينامان، أو يأخذان بضع غطسـات وقت الشـفق في المحيـط، أو يذهبان في رحلات قصيرة على امتداد السـاحل في سـيارة أجرة. إذا توقف السائق، فجأة عند مزار أو ضريح لتقديم جوزة هند كقربان، كانـا يغتبطان، وإذا التقيا مصادفة بمجموعـة من الأفيال تتحرك بتثاقل علـى طول الطريق، كان يجب على السيارة أن تركن على مسافة بعيدة إلى الأمام، حتى يتمكنا من مشـاهدتها تقترب ويمر الطابور مـن أمامهما. لم يكونا مهتمين بالتقاط الصـور الفوتوغرافية، وقد جنبني هذا

ربما أشــق عبء يقع على كاهل المرشــد: الانتظار المتكرر حتى تنتهي الطقوس بين الإنسان والآلة. كانا حقا ضيفين مثاليين.

كانــت كولومبو، حيث عاش النــاس الذين أعرفهم، تبعد أقل من مائة ميل عن بيتــي. صعدنا إلى كولومبو عدة مرات لقضاء عطلات نهاية الأسبوع، التي كنت أرتبها مسبقا مع أصدقائي عن طريق الهاتف. وهناك كنا نتناول الشــاي في الشرفات العريضة لبيوت بعينها في «حدائق أشجار القرفة» الشهيرة، ونجلس لتناول العشاء مع أساتذة من الجامعة، وقساوسة بروتستانت، وتشكيلة من أعضاء الحكومة. (اســتغرب كثيرون من الســيرلانكيين من أننــي ينبغــي عليّ أن أخاطــب والديّ باســميهما الأولين، دود، وحنة، واســتعلم العديد منهم عما إن كنــت في الواقع ابنا فعليا لهمــا أم بالتبني). كانت عطلات نهاية الأســبوع هذه في المدينة حارة ومرهقة، وكنا ســعداء دائمــا بالعودة إلى البيت، حيث كان بإمكانهما استبدال ملابسهما بأخرى مريحة.

وفي أحد أيام الآحاد وقبل فترة قصيرة من عودتهما المنتظرة إلى أمريكا، قررنا مشاهدة سباقات الخيل في «جينتوتا»، حيث توجد هناك أيضا بعض حدائق النباتات التي أرادت حنة مشــاهدتها. حجزت غرفتين في فندق «الشرق الجديد» في «جالي»(*) وتناولنا الغداء هناك قبل أن نغادر لمشاهدة السباقات.

كالعادة، بدأت أحداث الســباقات متأخرة. كان المشــاهدون، على أي حال، هم محور الاهتمام. مجموعة من النساء في أردية الساري الحريرية المتوهجة الألوان دفعن حنة للصياح من فرط

(*) ميناء في جنوب غرب سريلانكا [المترجم].

البهجة. كانت السباقات نفسها شيئا يبعث على الإحباط وخيبة الأمل. وبينما كنا نغادر أرض السباق، قال دود برضى: سيكون من الأفضل العودة إلى الفندق والاسترخاء.

«لكننا سنذهب إلى الحدائق النباتية»، ذكّرته حنة، ثم أضافت «أريد فقط أن ألقي نظرة سريعة عليها».

لم يكن دود متلهفا. «تلك الأماكن تغطي الكثير من المنطقة، أنتِ تعرفين»، قال.

«فقط سنلقي نظرة سريعة على الداخل ثم نخرج»، قالت بلهجة وعد.

أخذتنا سيارة الأجرة إلى الداخل، كان دود متعبا، ونتيجة لذلك كان يلاقي قدرا من الصعوبة في المشي. «السنة الماضية أو نحو ذلك وجدت قدميّ غير قادرتين دائما على تنفيذ ما أريده بالضبط»، شرح مفسّرا.

«أنتما تتقدمان في سيركما ببطء وعلى مهل»، قالت لنا حنة. «سأسرع أنا إلى الأمام إلى أعلى وأكتشف إن كان هناك أي شيء يمكن رؤيته».

وقفنا ننظر إلى شجرة قرنفل، كانت رائحتها النفاذة تملأ الهواء بما يشبه الغاز المتسرب. عندما استأنفنا سيرنا، كانت حنة غير موجودة على مرمى البصر. تقدمنا تحت النباتات العالية، بالقرب من منعطف في الممر، نظرنا إلى الأمام، ومع ذلك لم يكن هناك من أثر لها.

«إلى أين تظن أن أمك قد ذهبت؟ أول شيء نعرفه أنها ستكون تائهة».

«إنها في الأمام إلى الأعلى في مكان ما».

بعد فترة وجيـــزة، في نهاية حارة قصيرة تدلت من ســـقفها نباتات متســـلقة، رأيناها، وقد أخفاها جزئيا، إصبع سريلانكي يقف بجوارها ويشير أثناء تحدثه.

«ما الذي يحدث؟» استحثّ دود خطواته. «أسرع إلى هناك»، قـــال لي، وبدأت على الفور، في الإســـراع في ســـيري. ثم رأيت حنة تبتســـم في حيوية، فأبطأت من ســـرعتي. كانت واقفة هي والشـــاب أمام صف هائل من أشـــجار الأوركيد العنكبوتية ذات اللون البني.

«آه! ظننت أننا قد فقدناك»، قلت.

«انظر إلى هذه الأوركيدات. أليست رائعة؟»

اقترب دود، وأومأ إلى الشاب، وراح يتفحص الأزهار المعروضة.

«إنها تبدو لي مثل الكرنب ذي الرائحة الكريهة»، أعلن.

انفجر الشاب في ضحك مفرط. فحدّق فيه دود.

«هذا الشـــاب كان يخبرني بتاريـــخ الحديقة»، بدأت حنة في ســـرعة. «وعن الموطن الأصلي للنباتات، وكيف جاءت في النهاية لتغرس هنا. إنه موضوع شيق».

ابتسم الشاب السريلانكي بفخر. كان يرتدي «فانيلة» بيضاء من نسيج صوفي ناعم وسترة قرمزية، وكان شعره الأسود الناعم يصدر في ضوء الشمس لونا أزرق لامعا كالمعدن.

مـــن عادتـــي أن أتّبع منهجا محـــددا أصر عليـــه بالبعد عن الشـــخص الـــذي لا أعرفه والذي يحاول إشـــراكي في محادثة. فـــي هذه المـــرة كان الأوان قد تأخر كثيرا، وبتشـــجيع من حنة،

كان الغريب يمشـــي بجوارها، ونحن عائدون إلى المسار الرئيس. تبادلنا أنا ودود النظرات السريعة، وهز الأكتاف، ثم بدأنا نواصل التقدم وراءهما.

في مكان ما إلى أعلى في نهاية الحدائق بنيت مقصورة أسفل أشجار المطر العالية. وكان يستلقي في شرفتها قليل من الرجال في أردية الســارونغ(*) فوق الكراسي الطويلة. توقف الشاب عن السير. «أدعوكم الآن إلى بيرة الزنجبيل الباردة».

«آه»، قالت حنة، في حيرة. «حســنا، نعم. سيكون هذا لطيفا. سأرحب بالفرصة لكي أجلس».

نظر دود إلى ساعة يده. «أعتذر عن عدم تناول البيرة، لكنني سأجلس وأشاهدكم».

جلســنا نتطلع إلى الخضرة الوارفة. وكان الشاب في حديثه يقفــز من موضوع إلى آخر؛ وقد بدا غيــر قادر على متابعة أي خيط أفكار إلى أبعد من البداية. اعتبرت هذا عيبا فيه، وحاولت أن أدرك مــن نبرات صوت حنة إن كانــت قد وجدته مريكا كما وجدته أنا.

لم يكن دود منصتا، فقد وجد حرارة الجو في ســيلان شنيعة في هذه الأرض المنخفضة. وكان من الســهل رؤية أنه كان متعبا. اعتقدت أنني ربما أفلح في التغطية على ثرثرة الشاب، فاستدرت إلى دود وبدأت التحدث معه تقريبا في أي شيء كان يخطر ببالي: إحياء صنع الأقنعة في أمبالانجودا، ورقصة الشيطان، والتكرار المتزايد للجريمة بين الصياديــن المتحولين إلى الكاثوليكية. كان

(*) اللباس الرئيس لكلا الجنسين في أرخبيل الملايو، ويتألف من قطعة قماش تغطي الجزء الأدنى من الجسم على شكل تنورة [المترجم].

دود منصتا، لكن لم يصدر عنه ما هو أكثر من تحريك رأسه من وقت إلى آخر ليجيب.

فجأة سمعت الشــاب يقول لحنة: «عندي البيت المناسب لك بالضبط. المصادفة الســعيدة أرســلتني لألبي لك مطالبك. إنه بيت هادئ تماما وآمن».

ضحكــت ثم قالت: «شــكرا، كلا! نحن لا نبحــث عن منزل، سنكون هنا لأسابيع قليلة أخرى فقط».

نظرت إليها بشــدة، على أمل أن تلتقط نظرتي الســريعة كتحذيــر ضد التمــادي فيما هو أكثر من هــذا، وكي لا تذكر اســم المكان الذي كانت تقيم فيه. لم يكن الشاب منتبها، على أي حــال. «مضبــوط تماما. أنتِ لن تشــتري أي منازل. لكن يجدر بك أن تريه وتخبري أصدقاءك عنه. إنه استثمار ممتاز إلى حد بعيد، ليس ثمة شــك في ذلــك. هــل لي أن أعــرِّفك بنفســي، من فضلك؟ اســمي «جســتس جونزاج»، أصدقائي ينادونني سوني».

ابتســامته، التــي لم تكن ابتســامة على الإطــلاق، أعطتني إحساسا عصبيا غير مريح.

«هيــا بنا علــى كل حال. خمس دقائق مشــيا، أنا أضمن لك هــذا». نظر إلى حنة بصورة متفحصــة. «أعتزم إعطاءك ديوان شعر لي، سأوقعه لك باسمك. سيجعلني ذلك سعيد جدا».

«آه»، قالــت حنة، بملاحظة هلع في صوتها. ثم اســتجمعت قواها وابتســمت. «ســيكون هذا جميلا. لكنك تفهم، لا يمكننا البقاء هناك أكثر من دقيقة».

كان هناك صمت، ثم ســأل دود بحــزن: «ألا يمكننا الذهاب بالسيارة، على الأقل؟»

«مســتحيل، يا سيدي إن شارعنا ضيق جدا، لا يمكن للسيارة أن تســير فيه. سأســوي الأمر في لمح البصر»، ثم صاح الشاب مناديا، فحضــر النادل، وظل يتحدث معه بالســيرلانكية بعض الوقت، ثم أومأ الرجل وذهب إلى الداخل. «سيارتك سيحضرها سائقك الآن إلى هذه البوابة، على مسافة قريبة جدا من هنا».

كان هذا مجاوزا للحد قليلا. سألته كيف يعتقد أن أي شخص قادر على معرفة أي سيارة كانت لنا.

«ليســت في ذلك مشــكلة. كنت موجودا عندما كنتم تغادرون السيارة البونتياك. سائقك يدعى ويكراماسينج، ويقطن في آخر البلدة. إنه موضع ثقة. الناس هنا لا يعوّل عليهم كثيرا».

في كل مرة تحدث فيها كنت أكرهه أكثر. «أنت لست من أهل المكان هنا؟» سألته.

«لا، لا! أنا شــاب من كولومبو(*)، هؤلاء الناس أوغاد بشكل لا يصدق. كل واحد من الأشــقياء الملاعين لديه سكين في حزامه، ذلك من المؤكد».

عندما أحضر الجرسون الحساب، وقّعه سريعا في زهو وتباه ثم نهض. «هل لنا أن نمضي إلى المنزل، إذن؟».

لم يجب أحــد، لكننا نهضنا نحن الثلاثــة ومضينا معه على مضض فــي اتجاه بوابة الخروج. كانت الســيارة الأجرة هناك؛ حيّانا السيد ويكراماسينج من خلف عجلة القيادة.

(*) ميناء وعاصمة سريلانكا وتقع في الغرب منها على الساحل [المترجم].

كانــت حرارة العصر قد تلاشــت، تاركة فقــط زقاقا هنا أو هناك تحت الأشــجار حيــث كان الهواء ســاكنا. مبدئيا، كانت الحارة التي اخترقناها واسعة بقدر كاف لاستيعاب العربات التي تجرها الثيــران، لكن النبات الناتئ من كلا الجانبين جعلها أكثر ضيقا من ممر للسير على الأقدام.

في نهايــة الحارة كان هناك قائمان من الخرســانة من دون بوابة. مررنا خلالهما، ودخلنا في مســاحة واســعة من الأرض تكتنفها من الجانبين إسطبلات مهدمة. باستثناء جناح عبارة عن امتداد جانبي اتخذ شــكل زاوية قائمة، كان البيت بأكمله مخفيا بأحراش عالية وآجام مزهرة. عندما بلغنا المدخل توقف الشاب واستدار إلينا، رافعا أحد أصابعه. «لا توجد ضوضاء هنا، أليس كذلك؟ طيور فقط».

بعد ساعة ستبدأ الطيور في الاستيقاظ من سبات فترة النهار. صــدر صوت تغريد غيــر معروف من الأشــجار. خفض إصبعه واستدار إلى الباب. «إنها تغني في الصباح. أما الآن، فلا».

«آه، هذا جميل»، قالت له حنة.

قادنــا عبر مجموعة حجرات فارغة مظلمة. «هنا كان الرجل المختص بغسل الملابس (الدوبي) يغسل الملابس المتسخة بالأتربة والطين. هذا هو المطبخ، هل ترين؟ على الطراز السريلانكي، يعمل بالفحــم النباتي فقط، فقد كان أبي يرفض كلا من الكيروســين والغاز، حتى عندما كنا في كولومبو».

تكومنا فــي ممر قصير بينما كان يفتح الباب. مد الشــاب يده، فغمر المكان في الداخل ضوء ساطع. كانت غرفة صغيرة،

صنعت لتبدو أصغر بطلاء الحوائط والسقف بلون قرمزي لامع. المكان كله تقريبا كان يحتله سرير كبير بمفرش ستاني أحمر قان نوعا ما، مع صف من الكراسي المستقيمة الظهر، المرصوصة بطول أحد الحوائط. «اجلسوا وكونوا على راحتكم»، نصحنا مضيفنا.

جلسنا نحدق في السرير والصور الثلاث التي وضعت داخل إطارات على الحائط فوق رأس السرير، الذي كان من القضبان النحاسية: على اليسار صورة فتاة، وفي الوسط صورة مضيفنا، وعلى اليمين صورة شاب آخر. كانت اللوحات باهتة وعلى درجة من عدم الدقة كصور جوازات السفر التي جرى تكبيرها عدة مرات ضعف حجمها الأصلي.

سعلت حنة. لم يكن لديها شيء لتقوله. كانت الغرفة تبعث برائحة زاعقة ثقيلة لبخور قديم، كما هي الحال في كنيسة صغيرة مهجورة. إحساس العبث الذي انتابني لرؤيتنا جالسين هناك جنبا إلى جنب، محشورين في الوسط بين السرير والحائط، كان قويا جدا إلى درجة أنه باختصار أوقف كل عملياتي العقلية. كان الشاب هذه المرة هادئا، جلس متصلبا، وراح ينظر إلى الأمام مباشرة، مثل متفرج في مسرح.

في النهاية كان عليّ أن أقول شيئا. تحولت إلى مضيفنا وسألته إن كان ينام في هذه الغرفة. بدا السؤال صادما له. «هنا؟» صرخ، كما لو كان الأمر مستحيلا. «لا. لا! هذا البيت شاغر. لا أحد ينام في المنزل أو ملحقاته. فقط رجل بدين يحرس في الليل. أستأذنك للحظة واحدة».

قفز عن كرسيه وأسرع إلى خارج الحجرة. سمعنا صدى خطواته في الممر ثم تزايد الصمت. وهناك من مكان ما في البيت جاء صوت رنين دقات ساعة من الساعات الكبيرة التي توضع في إطار خشبي فوق الأرض، وكان صوتها الهادئ قد جعل الغرفة الصغيرة ذات اللون الأحمر القاني اللامع أكثر عزلة وغير محببة.

تقلقل دود في غير راحة فوق كرسيه، كان السرير قريبا جدا منه مما أعاقه عن تمديد ساقيه. «بمجرد عودته، نذهب»، قالها وهو يبرطم. «إنه يبحث عن الديوان، على ما أظن»، قالت حنة.

انتظرنا فترة. ثم قلت: «انظرا، إذا لم يعد في غضون دقيقتين، أقترح أن ننهض وننصرف مباشرة. بإمكاننا الاهتداء إلى طريقنا إلى الخارج من دون عناء».

اعترضت حنة، قائلة إن هذا سيكون من غير اللائق ولا يمكن اغتفاره.

جلسنا في صمت مرة ثانية، كان دود يقي عينيه من الضوء الساطع. عندما عاد سوني جونزاج، كان يحمل كوبا من الماء بينما وقف يشرب في المدخل. تبدّلت تعبيرات وجهه، بدا مشغول البال، وكان يتنفس بصعوبة.

نهضنا ببطء، وكانت حنة لاتزال تنظر في ترقب.

«سنذهب نحن، إذن؟ تعالوا». أطفأ الأنوار والكوب الفارغ لا يزال في يده، وأغلق الباب خلفنا، ثم فتح بابا آخر، وقادنا بسرعة خلال غرفة فخمة مؤثثة بآرائك كبيرة، وبارافانات من الكرومانـدل(*) وتماثيل برونزية لبوذا. لم يكن عندنا وقت لإلقاء

(*) الأعمال التي تطلى بالورنيش اللامع وكانت شائعة في بريطانيا ١٧٠٠م، وكانت مزينة بنقوش وتصميمات مطلية بالذهب والألوان [المترجم].

أكثــر من لمحة من جانب إلى آخر بينما كنا نتبعه. عندما خرجنا عبر الباب الرئيس، نادى على شــخص فــي مؤخرة المنزل بلكنة متعجرفة، على الأرجح كانت موجهة إلى الحارس.

في هذا الجانب كانت هناك مســاحة واســعة من شجيرات ونجيــل مهمــل غير مشــذب، حيــث مجموعة قليلة مــن آجام نخيل الأريقة تتجــه ببطء نحو الاختناق بأغلفــة جذور وأوراق الفيلوديندرون التي غطت جذوعها. بســطت النباتات المتســلقة نفسها على نحو بغيض فوق قمم الشجيرات مثل خيوط شبكات عنكبــوت ضخمة. كنت أعرف أن حنــة تفكر في الثعابين. أبقت عينيها في الأرض، وهي تخطــو بحذر من لوح حجري إلى آخر بينما كنا نعبر مدخل البيت الذي ينحني على نحو متواصل حول الإسطبلات، ومن ثم إلى الخارج في الحارة.

نزل الشــفق اللطيف سريعا. لم يكن أحد راغبا في التحدث. عندمــا وصلنا إلى الســيارة كان الســيد ويكراماســينج واقفا بجوارها.

«وداعا، إذن، وأخبروا أصدقاءكم أن يبحثوا عن سوني جونزاج عندمــا يأتون إلى جينتوتا»، ومد يــده إلى دود أولا، ثم أنا، وفي النهاية إلى حنة، ثم انصرف.

كان الاثنان هادئين جدا في طريــق العودة إلى جالي(*). كان الطريق ضيقا وأزعجتهما الأضواء الشــديدة للسيارات القادمة من أمامنا. وفي أثناء العشاء لم نأت على ذكر ما حدث في فترة بعد الظهر.

(*) ميناء في جنوب غرب سريلانكا [المترجم].

عندما كنا نتناول إفطارنا في اليوم التالي، في الشرفة التي كان يجتاحها نسيم الصباح، شعرنا بأننا بعيدون بشكل كاف عن التجربة بما يسمح بمناقشتها. قالت حنة: «ظللت مستيقظة طوال الليل وأنا أرى ذلك السرير الفظيع».

تأوه دود.

قلت إن الأمر كان مثل مشاهدة التلفزيون لكن من دون صوت. حيث بإمكانك أن تشاهد كل شيء، لكنك لا تستطيع أن تفهم ما الذي يحدث.

«كان الطفل معتوها تماما. يمكنك أن تكتشف ذلك على بعد ميل»، صرح دود.

لم تكن حنة منصتة. «لا بد أنه كانت هناك حجرة للخدم. لكن لماذا لم يأخذنا إلى هناك؟ أنا لا أعرف؛ شيء ما محبط للغاية في ما يتعلق بالأمر برمته. إنه يجعلني أشعر ببعض السأم بمجرد التفكير فيه، وذلك السرير!»

«حسنا، كفى تفكيرا في ما حدث، إذن!» قال لها دود. «أنا عن نفسي سأخرجه من رأسي تماما». ثم ظل صامتا برهة. وقال «إنني أشعر بتحسن بالفعل. أليست هذه هي الطريقة التي يسلكها البوذيون؟»

استمرت الإجازة المشمسة أسابيع قليلة أكثر، في رحلات أطول إلى الشرق، حيث «تيساماهارانا» والأفيال البرية في «محمية يالا». لم نذهب إلى كولومبو مرة ثانية إلى أن حان الوقت المناسب لي لوضعهما على متن الطائرة.

الطقس شبه المظلم للرياح الموسمية كان يعصف من جهة الجنوب الغربي بينما كنا نسير بطول الساحل. كان هناك المطر ينهمر بشدة عندما وصلنا في منتصف فترة العصر إلى «جبل لافينيا» الساحلي، وحجزنا غرفا لنا. كان صوت تكسر الأمواج خارج غرفتي عاليا جدا إلى درجة أن دود أغلق النوافذ لنسمع ما كنا نقوله.

انتهزت فرصة الرحلة إلى كولومبو لترتيب محادثة مع المحامي الخاص بي، إنه هندي يتحدث التيلجو(*). كان علينا الالتقاء في بار في «جاليفيس»، على مسافة بضعة أميال أعلى الساحل. قلت لحنة «سأعود في السادسة». كان المطر قد خفّ بعض الشيء عندما مضيت إلى الخارج.

تحركت الرياح المحملة بالرطوبة خلال بهو جاليفيس، لكن الهواء المعبق بالدخان الكثيف داخل البار كان يتحرك فقط تحركا خفيفا عن طريق المراوح. عندما دخلت، كان أول شخص ألاحظه هو ويستون الذي يعمل في «بنك تشارترد». لم يكن المحامي قد وصل بعد، لذا وقفت عند البار مع ويستون وطلبت شرابا.

«هل أنت الذي رأيته في جينتوتا في حلبة السباق الشهر الماضي. مع زوجين من العجائز؟».

«كنت بصحبة أبي وأمي. لم ألاحظك».

«لم يكن باستطاعتي التحدث إليك. كانت المسافة بعيدة جدا جدا. لكنني رأيت الثلاثة أنفسهم في ما بعد مع شخص من أهل البلد. ما الذي تعرفه عن سوني جونزاج؟».

(*) لغة في جنوب شرق الهند وجزيرة سيلان [المترجم].

ضحكت أنا. «لقد استدرجنا إلى بيته».

«هل تعرف القصة؟ إنني ملم بها».

هززت رأسي نافيا.

القصة التي وجد لذة في روايتها، بدأت في اليوم التالي لعرس جونزاج، عندما مضى إلى حجرة الخدم ووجد عروسه في السرير مع الصديق الذي كان إشبينا له في حفل الزفاف. كيف حدث أن حصل على مسدس معه؟ كان ذلك أمرا غير واضح، لكنه أطلق النار على كل منهما في الوجه، وبعد ذلك قطع جسديهما إلى قطع صغيرة. ثم علّق ويستون قائلا: «ذلك النوع من الأمور ليس شديد الغرابة، بل هو شائع، بالطبع. لكنها المحاكمة هي التي تسببت في هذه الفضيحة. قضى جونزاج أسابيع قليلة في مستشفى الأمراض العقلية ثم أطلق سراحه».

«بإمكانك أن تتخيل»، قال ويستون. «الإثارة السياسية. يذهب الفقير إلى السجن بسبب حفنة أرز، لكن الغني يمكن أن يقتل الآخرين من دون عقاب، إلى غير ذلك النوع من الأمور. لانزال نطالع إشارات إلى الحادثة في الصحافة من وقت إلى آخر».

كنت أفكر في اللون القرمزي الزاهي وحدائق النباتات. «لا. لم أسمع عنها أبدا»، قلت.

«لقد أصابته لوثة عقلية، لكن هاهو، حر في أن يفعل أي شيء يعن له. وكل ما يرغب فيه في ذلك الوقت هو إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بالدخول إلى ذلك البيت وإطلاعهم على الحجرة حيث وقع هناك الحدث العظيم. وهو الشيء الأكثر مرحا في اعتقاده».

رأيـت الهندي يدخل إلى البـار. «إنها قصة لا تصدق، لكنني أصدقها»، قلت لويستون.

ثم استدرت لتحية المحامي، الذي اشتكى على الفور من الهواء الراكد داخل البار. جلسنا وتحدثنا في الردهة.

تمكنـت من الرجوع إلـى «جبل لافينيا» في الوقت المناسـب للاسـتحمام قبل العشـاء. بينما كنت مسـتلقيا في الماء الفاتر، حاولت تخيل ردود أفعال حنة ودود عندما أخبرهما بما سمعته. عن نفسـي شـعرت برضى حقيقي لمعرفتي بقيـة القصة. لكن لكونهمـا عجوزين، قد يطيلان التفكير فيها، ويقومان بتطويرها بعد ذلك إلى حد كريه جـدا في محادثة تلطخ ذكرى إجازتهما. لم أكن قد قررت بعد إن كنت سأخبرهما أم لا عندما ذهبت إلى حجرتهما لاصطحابهما إلى العشاء في الطابق الأسفل.

جلسنا بعيدا عن الموسيقى قدر استطاعتنا. كانت حنة مرتدية ملابسـها بشـكل أقل أناقة عن المعتاد، وكان الاثنـان يتحدثان بحيوية ونشاط أكثر من المعتاد. أدركت أنهما كانا سعيدين بقرب عودتهما إلى نيويورك. في منتصف الوجبة بدآ في استعراض ما اعتبراه أهم ما شـاهداه في زيارتهما. ذكرا معبد «توث»، وشبلي نمر البنغال في «ديهيوالا» اللذين كانا أليفين مستأنسـين لكنهما تحسرا على امتناعهما عن شرائهما، وكذلك العشاء الإندونيسي في حديقة «السـيد بلتجينز»، حيث وثب طائر المينة(*) فوق حنة، وقال: «كليه كله من دون إبطاء»، وأيضا الكوبرا التي كانت أسفل الأريكة في حفلة شاي «السيدة دي سيلفا».

(*) أي طائر من الطيور الآسيوية من فصيلة الزرزور وبصفة خاصة تلك التي لديها القدرة على محاكاة الكلام [المترجم].

«وذلك الشـــاب الغريـــب الأطوار في المنزل الغريب الشـــاذ»، أضافت حنة بتأمل.

«أي واحد كان ذلك؟» ســـأل دود، في تجهم بينما كان يحاول التذكر. ثم استطاع تذكره. «آه، يا الله»، برطم. «صديقك المميز». ثم التفت إليّ قائلا، «بإمكان أمك انتقاؤهم بكل تأكيد».

كان المحَيــط يهدر في الخارج. بدت حنة غارقة في التفكير. «أنـــا أعرف ما الذي كان عليه الأمر!» صاحت حنة فجأة. «كانت زيارتنـــا إلى بيته مثل مشـــاهدتنا عن قرب لأحد المعابد بصحبة أحد الرهبان البوذيين(*). أليس هذا هو ما يطلقونه عليهم؟».

استنشق دود مزيدا من الهواء. «معبد ما والسلام!» ضحك.

«لا، أنـــا جادة. كان لتلك الحجرة معنى خاص بالنســـبة إليه. كانت بمنزلة المزار المقدس عنده».

نظـــرت إليها. لقد تمكنت من الوصـــول إلى لب الموضوع من دون حاجة إلى الخوض في التفاصيل. «شعرت بهذا، أنا أيضا»، قلت. «لكن بالطبع، ليس هناك طريق لمعرفة هذا».

(*) ذكرت كلمة ذات أصل سنسكريتي [المترجم].

كلمات غير مستحبة

(١)

أنا سعيد لأنك رددت على خطابي من البحر، على الرغم من شـــعوري بالأســـف لأنني أرى في كلماتك الظن أنني أفكر فيك فقط بوصفك شخصا حبيس حجرته. أو هل قيل ذلك لمجرد أن جعلتني أشعر بالذنب لبقائي بعيدا متنقلا؟

بدأت الأســـعار بالطبع في الارتفاع هنا منـــذ فترة طويلة قبل الابتزاز الدولي في البترول في سنوات السبعينيات. رأيناها ترتفع قبل ذلك، وكنا نظن دائما أنه لن يمكنها الارتفاع أكثر من هذا. كل شيء ارتفع ثمنه خمسة أضعاف عما كان عليه منذ عشر سنوات. ولأنه قد مُنع الاســـتيراد في عـــام ١٩٦٥، أصبحت لدينا بدلا من السلع المســـتوردة بضائع مهربة، تلك التي كانت تجذب الناس من أي مـــكان لأن يدفعوا مقابلهـــا. أظن أنه يجب على المرء أن يتذكر أن الأســـعار هنا كانت منخفضة بشـــكل غير معقول في ســـنوات الثلاثينيـــات والأربعينيات، على الرغم من إمكان اســـتمرارها في الارتفاع بشكل غير محدد تقريبا قبل أن تكون مساوية لمثيلاتها في أوروبـــا وأمريكا. ثم جاء تضخم البترول، حتى أنها لاتزال تواصل ارتفاعها، ومع ذلك فهي لاتزال أقل انخفاضا عن دول أخرى.

بعد الاســـتقلال بخمس ســـنوات أو نحو ذلك كان كريستوفر يتحدث مع رجل عجوز من البربر في مكان ما في الجنوب، وفي وسط حديث عام مال الرجل العجوز عليه وقال له سرا: «قل لي إلى متى سيستمر هذا الاستقلال؟».

أتذكر أنني في ســنة ١٩٤٧ أرسلت في طلب مبلغ ألف دولار مــن نيويورك. إذا كان يهمك أن تتذكــر، كان ذلك المبلغ في تلك الأيام كافيا للعيش لمدة ثلاثة أو أربعة أشــهر، على الأقل هنا. لم يتســلم البنك النقود التي كان من المفترض أنها قد أرسلت إليه، لكنهم نصحونــي بمراجعة جميع البنوك الأخــرى الموجودة في البلدة. وكان هناك ما يزيد على أربعين بنكا منها في ذاك الوقت. وقــد راجعت بنكــين أو ثلاثة يوميا؛ ولم يعرف أحد شــيئا. مر شهر ومازلت لم أحصل على نقودي بعد. اقترحت عليّ المفوضية الأمريكيــة أن أذهب إلى البنك الأول وأطالــب بها، وفي الوقت نفســه أن ألمّح في كلامي معهم إلى أن الوزير المفوض الأمريكي ســيتخذ الخطوات اللازمة إذا فشــلوا في العثــور عليها. كانت النتيجة كالسحر: ذهب الكاتب مباشرة إلى دولاب الملفات وأخرج منه الشــيك. لكنني دائما ما كنت أتساءل عما كانوا يأملون في كســبه من جراء تأخيره طوال تلك المــدة الطويلة. فقد بدت لي وقتها فترة طويلة جدا، وكنت مستاء لذلك. أصبحت الأمور الآن أكثر ســوءا. فالنقد الأجنبي كلــه الذي يأتي إلى البلدة يودع في ســلة عملات مشتركة في الدار البيضاء ويحتفظ به هناك حتى يربح نسبة الفوائد من هؤلاء الذين يقترضونه، وبوجه عام تزيد الفترة على ثلاثة أشهر. في النهاية يظهر المبلغ في كشف حساب رصيدك في البنك، وبأقل ســعر تحويل ممكن له خلال كل هذه الفترة. من المفهوم تماما بشكل واضح أن الحرب كانت دائرة وأن نفقاتها كانت مرتفعة، لكن ذلك لا يقلل من شــأن مشــكلة هذا الإجحــاف المزعج. ربما نحن محظوظون لعــدم اضطرارنا إلى

دفـــع ضريبة خاصة بالحرب، والله أعلم، ربما يحدث هذا الآن. يكفي ما في اليوم من شرور.

تسأل عن أخباري: حياتي اليومية، وما أفكر فيه، وآرائي في الأحداث الخارجية. كل شـــيء سيكون في وقته المناسب، إذا كان في وســـعي تنـــاول كل هذا. لكن ما يحدث هنـــا في هذه المدينة أشـــد وطأة بكثير مما نســـمع به من الخارج. هنـــاك الكثير من الجرائم، لكن يبدو أنه في كل ســـنة لدينا جريمة قتل بذاتها هي التي تشـــغل اهتمام الجميع على حد سواء ولكن لأسباب مختلفة من دون شك.

على ســـبيل المثـــال، منذ عامـــين، بينما كان العمـــال مازالوا يعملـــون في بناء مســـجد جديد في المنطقـــة الواقعة بين المكان هنـــا و«بلاس دي فرانـــس»، اعتادت امرأة عجـــوز على الظهور مـــن مبنى على الجانب الآخر من الشـــارع، وهي تحمل إبريقين من الشـــاي والقهوة للرجال. كانت تأتي في الصباح الباكر، قبل شـــروق الشـــمس، عندما يكون الهواء لا يزال باردا، والعمال في انتظـــار متلهف لوصولها. وفي أحد الأيـــام لم تظهر المرأة، وفي وقت لاحق من اليوم نفسه قيل إنها قد قتلت في سريرها. تمكن شـــخص ما من تســـلق نافذتها ودخل إلى شقتها، وقبل أن يغادر الشـــقة قطع رقبتها بتدبر وحذر. كان قد توقع العثور على المال المخبأ - حيث افترض، لكـــون المرأة يهودية، أنه من الطبيعي أن يعثر على الخبيئة في مكان ما - لكن لأنها كانت تعيش في حالة من الفقر الشـــديد، لم يعثر على شيء ســـوى راديو ترانزيستور بلاســـتيك أزرق، فأخـــذه. بعد ذلك، على الرغـــم من أن العمال

لم يعودوا يحصلون على المزيد من الشـــاي والقهوة، فإنهم كانوا يستمعون للموسيقى عبر الراديو الترانزيستور الأزرق، لكن ذلك كان لأيـــام قليلة فقط. فقد لاحظت جـــارة المرأة المقتولة الراديو هناك بين أكوام البلاط، وكانت متأكدة تماما من تعرفها عليه إلى درجة أنها أعطت أوصافه إلى شرطي في الشارع. لذلك تمكنوا بالطبع من الإمساك بالعامل، الذي قال إنه لم يكن من الممكن أن يقطع رقبة اليهودية العجوز لو كان يعرف كم هي فقيرة!

ثم كانت هناك قضية أخرى في العام الماضي، تخص عجوزين أمريكيين - لا أعتقد أنك قد سبقت لك معرفتهما - كانا يعيشان فـــي بيت صغيـــر في أعلى «الجبـــل القديم»، فـــي أقصى نهاية الطريق البحري، حيث ينعطف إلى بقايا الطريق الروماني. كانا منعزلين هنـــاك بمعنى الكلمة، من دون هاتـــف أو بيت آخر في الجـــوار على مرمى البصر. لذلك بعد عدة ســـنوات من العيش هناك في ســـلام وأمان، هوجما بغتة. كان الـــزوج في الحديقة عند حافة الغابات، يملأ إحدى القنوات بالمياه. فقتله المهاجمون ودفعوا برأسه في القناة. رأت الزوجة كل شيء عبر النافذة قبل أن يتمكنـــوا من الدخول إلى البيـــت وضربها، محاولين إجبارها على أن تخبرهـــم بالمكان الذي كان المال مخبـــأ فيه، كان هذان الاثنان مفلسين، ويعيشان على كوبونات الضمان الاجتماعي، لم يكـــن هناك مال، لذا بعدما أنزلـــوا المزيد من الضربات في وجه المرأة، مضوا فـــي طريقهم. مات الزوج ونجت الزوجة. كان هذا الحادث بمنزلة إنذار للأوروبيين الذين يعيشون في طريق الجبل القديم، فجميعهم لديهم ممتلكات هناك، وتحرس بالفعل من قبل

حـــراس مقيمين. وقد اختار اللصـــوص الزوجين العجوزين على وجه التحديد لأنهما لم تكن لديهما حراسة، وبالطبع لم يحصلوا على شـــيء على الإطـــلاق من هجومهم هذا. رددت الشـــائعات أن المجرمين قد ألقي القبض عليهم بعد شـــهرين تقريبا. وأنهم كانوا جزءا من عصابة كانت تعيش في كهف على الساحل ناحية الغرب. لكن من يدري ما الحقيقة؟ إن هذه الأشياء تؤخذ بجدية وعلى محمـــل الخطر من جانب الأوروبيـــين المقيمين في البلدة أكثر من وفرة الطعام والشـــغب والمعارك والقتال مع من يسمون بالبوليســـاريو في الصحراء الكبرى. عقلية مائدة البريديج، إذا كنت ستعذر سوء تعبيري هذا.

على أي حال، هذا هو كل ما عليه الأمر في الوقت الراهن.

(٢)

حسن أننا عدنا إلى الاتصال مجددا.

أنت مخطئ، فأنا أتذكـــر المرة الأخيرة التي رأى فيها أحدنا الآخر. كنت تعيش في تلك الشـــقة المجنونة فوق ســـطح القلعة، وكانت هنـــاك رياح فظيعة تهب من الميناء. كان لديك عدد قليل من الناس على العشاء، وأتذكر أن الباب المطل على السطح كان ينفتـــح وأن الريح كانت تهب عبر الشـــقة بأكملها، إلى درجة أن الجميع كانوا يصرخون: أغلق الباب! لا أعرف في أي ســـنة كان هذا على وجه التحديد، لأن الحدث يبدو أنه ليســـت له علاقة بالســـياق الزمني. النقطـــة التفصيلية الوحيـــدة الأخرى التي أتذكرها هي أنك لم يكن في اســـتطاعتك قراءة أي شـــيء كتب

بعد القرن الثامن عشــر. وأنني تقبلت ذلك على أنه خصوصية شــخصية، ومنذ ذلك الوقت وأنا أفكر في الأمر، وأتســاءل في تعجب إلى أي مدى هذا النقد القاسي والتضييق المفروض ذاتيا منك ســليم بالنســبة إلى مؤلف ينتمي إلى القرن العشرين. هل عدم قراءتك لأي كتابات معاصرة على الإطلاق محاولة للهروب من احتمال تأثيرها الضار، أم أن أي تواصل مع الأدب الحديث أو المعاصــر منفر بالنســبة إليــك لأنه يوحي بالمنافســة؟ تظل بالطبع أسبابك الخاصة المتعلقة باستبعاد كتابات القرن التاسع عشــر غامضة علــى أي حال. على الرغم مــن أنني لا يمكنني في الموسيقى الإدلاء بسهولة بتصريح شامل مشابه لتصريحك، يحط من شــأن جميع موســيقى القرن التاســع عشر. إن ذلك النوع من التعميم غيــر مثمر على الإطلاق، إنه يبدو لي كذلك، وأتعجب كيف تتمســك به بشكل محكم وصارم وكأنه قول مأثور أو مثل تتبناه.

لــم أكن متأكــدا حتى منتصف هذا اليوم مــن مكان وجودك في أثناء الخمس عشرة ســنة الماضية أو نحو ذلك. سمعت عن طريق آخرين أنك كنت تعيش في هونج كونج، وطوكيو وحتى في ماليزيــا. كانت هناك بلدة في ماليزيا قالوا إنك كنت مغرما بها، لكنني لا يمكنني تذكر اسمها. تقع على الساحل الشرقي، بعيدة بعض الشيء في الشمال. بمجرد إقلاعك عن عادة الكتابة لي، لم يعد في مقدورك معرفة أين تكتب، الأمر الذي أفهمه وأستوعبه، فالعــذر منطبق تمامــا وبقوة أكثر على شــخصي، لأنك لم يكن لديك مسكن ثابت، في حين كان لديّ مسكن ثابت دائما.

لست في حاجة إلى أن أسألك إن كنت تتذكر «بيتي وآليس هووي»، نظرا إلى أنهما كانا رفيقيك في لعبتي البرديج والكاناستا(*)، بالإضافة إلى جميع السكان الآخرين الأجانب الذين كنت أتجنب أنا معرفتهم. مات كلاهما منذ عشرة أيام أو نحو ذلك؛ من يعرف السبب؟ هو أولا، ثم هي بعد عدة أيام. «سمينا «مقتنعة» بأن «بيتي» قتلت نفسها لكيلا تضطر إلى الذهاب في أثناء جنازة «آليس». من الممكن أن تكون هي على صواب؛ لم أعرف أبدا السيد والسيدة هووي إلا في الحفلات والسوق. لا يخامرني شك في أنك ستتحسر على رحيلهما.

وبالطبع هناك «فاليسكا» الرائعة. لقد عادت إلى هنا عدة مرات منذ أن سافرت أنت، على الرغم من أنها لم تعد خلال السنوات الخمس الماضية أو نحو ذلك. كان عبد الواحد يكن كراهية قوية لها، لأنها بشكل رئيسي رفضت بثبات وفي قوة أن تجلس في المقعد الأمامي في السيارة الموستانج، على الرغم من أنه كان المقعد الوحيد المريح في السيارة. إصرارها على الركوب في الخلف أغضبه وضايقه، نظرا إلى أنه افترض، وربما هو على حق تماما، أنها أرادت أن توضح للناس بشكل جلي أنه كان السائق. هذه الكراهية أو البغضاء جعلت من السهل عليه في الأساس انتقاد النواحي الأخرى في سلوكها. وهو ما كان يقوله لي باستمرار، لكن ليس لها بالطبع. ثم في يوم ما واتته الفرصة فانطلق واستغلها. وكانت النتيجة على

(*) لعبة من ألعاب الورق [المترجم].

درجة مـــن الجنون إلى درجة أنني لم يكن في إمكاني توبيخه بعد ذلك كما كان ينبغي عليّ أن أفعل.

في تلك الأيام عندما كنت أذهب لإحضار فاليسكا من الفندق كانت دائمـــا ما تجلس إلى مائدة في البهـــو، وهي تقرأ، أو تحل الكلمات المتقاطعة أو أي شـــيء كان، المهم أن تكون مشغولة جدا. كان عبد الواحد يقود السيارة حتى مقدمة الدرج مباشرة لذلك لم يكن في وسعها أن ترانا، وكانت دائما ما تلقي بلمحة خاطفة بين الحين والآخر، حتى تتيقن تماما من رؤيتها لنا. لسبب ما لم يكن فـــي مقدوري أن أفهم جيدا لماذا لم تكن تتزحزح أبدا من مكانها حتى أنزل أنا من الســـيارة وأصل إلى البهو وأجتازه ثم أقف على مســـافة قدم من طاولتها. كان هذا بمنزلة طقس شعائري. وفي أحد الأيام بقيت في البيت وأرســـلت إليها عبد الواحد، وعندما رأته يصل إلى البهو قفزت إلى أعلى وتبعته إلى السيارة، وفق ما قال، وهي تسأله مرارا وتكرارا: «أين بول؟ أين بول؟».

فـــي تلك اللحظة كان يجب أن يحضر الشـــيطان ويدفع عبد الواحـــد إلى النظر إلى الأرض وإلى أن يقول لها في حزن: «لقد مات بول». سيكون في إمكانك أن تتخيل الصرخات والصيحات التي نتجت من هذا التصريح. ســـاعدها عبد الواحد على ركوب السيارة ثم انطلق بها إلى «الإيتيسا»(*). كما تعرف، إنه لا يتحدث الإنجليزيـــة، لكنه كان يعرف ما يكفي مـــن الكلمات لينقل إليها أننـــي كنت ممددا على الأرض، وأن الناس كانوا يقفون متحلقين من حولي وهم ينظرون إليّ.

(*) اسم البناية التي كان بول بولز يسكن في الطابق الرابع منها هو وزوجته جين في طنجة [المترجم].

قال ذلك لها بينما كانا في طريقهما إلى «ساحة الكويت»، ثم صاحت فاليسكا فجأة: «آه يا للمسيح! إن كاميرتي في الفندق. لا تشغل بالك. استمر في طريقك».

كانت في حالة هستيرية بكل معنى الكلمة عندما رأتني سليما معافى، وفكرت أنا: هذا كثير جدا، ورأيتني أصطحبها إلى الطبيب النفسي في «بني ماكادا». وفي تلك الأثناء كانت تتلوى وتصرخ في عبد الواحد قائلة: «يا ابن العاهرة!».

لا أعتقد أنها ستسامحه أبدا على مزحته هذه، لكنه لا يزال مبتهجا حتى الآن كلما تذكرها. وكما قلت لك، لم يكن في إمكاني أن أقدم على انتقاده، نظرا إلى أنه من زاوية معينة قد فعل ذلك من أجلي، اعتقادا منه أن سلوكها قد يتغير نتيجة لذلك. لكن بالطبع لم يتغير شيء، واعتبرته هي مجرد تصرف عشوائي من عربي مجنون كان متشوقا لمعرفة رد فعلها.

إنهم يقومون ببناء فيلات رائعة فخمة في جميع الأنحاء من حولي. مبنية بطريقة جيدة لكنها بشعة، تبدو مثل صناديق النغم القديمة، واجهاتها مكسوة بالحديد والبلاط المشغول. يلزم القانون كل فيلا من الفيلات بوجود مدخنة، رغم عدم ارتباط المدخنة بأي شيء داخل البيت، أي أنها مجرد ديكور أو زينة. كان أصحاب هذه المباني ينتظرون المشترين الذين لم يأتوا. وهل سيأتون؟ فالأسعار تبدو عالية جدا: بين خمسمائة وعشرين ألفا ومائتي ألف دولار، وليست هناك تدفئة، وبالطبع لا يوجد فرن، أو مدفأة - وفي الأغلب لا توجد مساحة أو فراغ في الخارج لإقامة حديقة. مع أن تلك المساحة التي تحدد ما إذا كانت تلك

المباني بالفعل فيلات قانونية، أو مجرد مساكن فقط وهذه لن تكون في حاجة إلى مداخن.

أتمنى أن تكون جميع أمورك على ما يرام، وأنك سوف تجيب عن رسالتي.

(٣)

لقد اتخذت من كتابة الرسائل إليك هدفا منتظما إن لم يكن مستمرا، وذلك لإبقائك على اتصال بهذا الجزء من العالم الخارجي، فقد يساعدك هذا على رفع روحك المعنوية. من الواضح أن الطريقة الوحيدة لإعطائك فكرة عن حياتي هي بالنسبة إلي أن أكتب كل ما يخطر في رأسي. لأنه في الاختيار الواعي للمادة المضمنة ثمة احتمالية لفرض وجهة نظر، أو تحيز. أعتقد أن نهجي سوف يعطيك صورة أكثر دقة عن حياتي اليومية - على الأقل، ذلك الجزء منها الذي يعتمل في داخل رأسي، وهو أهم جزء إلى حد بعيد.

لقد تخيلت كثيرا وجودي في وضعك الذي لا تحسد عليه في حالة حدوث حريق أو زلزال وعجزك عن النهوض هربا من سريرك ومحاولة الركض إلى مكان آمن. أو إذا كنت في كرسيك المتحرك، وانتفاء القدرة لديك على الذهاب به إلى أي مكان إلاّ إلى أول أو آخر طرقات المبنى. أعتقد أن هذا سيكون هاجسي وانشغالي الرئيسي، لكن مرة ثانية، ربما لن يكون هذا، نظرا إلى أن المرء لا يعيش في توقع دائم للحرائق والزلازل. لكن في وسعي أن أتصور نفسي مستلقيا في أثناء الليل وأنا مستيقظ وأتخيل

بالتفصيل ما الذي سيكون عليه الأمر إذا أصبت باختناق من أثر الدخان أو سقطت فجأة فوق الأرضية ودعامة خشبية فوق ساقيّ وغبار الجص يصيبني بالاختناق. آمل ألا تعيش في مثل هذه التأملات، وأنا أشك - نوعا ما - في قيامك بهذا. يجب أن تصبح من الآن قدريا بدرجة كافية لتكون قادرا على أخذ جميع الظواهر الموضوعية كأمور مصاحبة لحالتك. إذا كانت هذه هي المسألة، فربما تكون ناجمة بشكل جزئي عن اضطرارك إلى العيش لمدة ثماني سنوات مع زوجة مستحيلة - نوع من التدريب على بلوغ حالة من القبول المطلق. خطر لي في الوقت نفسه أن الوجود المتواصل لامرأة مثل «باميلا» قد فاقم بسهولة من التوتر الذي أفضى بها في النهاية إلى إصابتها بالسكتة الدماغية. لقد عانيت أنت بلا مبرر طوال تلك السنوات الثماني. كانت باميلا عنصرية. كانت تشعر بأنها تتحرك على مستوى أرقى من مستواك، لأنها كانت على دراية بأن أجدادها كانوا يعيشون في ماساتشوسيتس منذ مائة سنة، بينما كان أجدادك يعيشون في منطقة مجهولة بعض الشيء في أوكرانيا. «لقد كنا هنا قبل الباقين، لذلك فإنها ملك لنا بالطبع، لكننا نحب وجودك معنا هنا، لأنه يجعل الحياة أكثر إمتاعا». هل أنا مخطئ، أم أن باميلا كانت كذلك بالفعل؟ ألم تكن أنت على دراية تامة بالتناقض بين ما كانت تقوله والطريقة التي كانت تتصرف بها؟ بسبب هذا التبدّل الكبير، لم أعد أتذكرها جيدا. أقصد أن وجهها يهرب مني؛ ولا أقدر على تخيل صورة لها. إنني على أي حال أتذكر صوتها بالفعل. كانت نبرته جميلة وسماعها ممتعا، باستثناء عندما كانت تغضب.

وكان هـــذا متوقعا: يتغير صوت المرء عن عمـــد ويتحرر منطلقا كوســـيلة من وسائل تعبير المرء عما فيه من العاطفة. لكنني حتى الآن مضطر إلى الســـؤال: هل كانت باميلا تغضب؟ عندما أعيد مســـترجعا الشـــريط الذهني الذي لدي عن الإفطار في «كويتو» في ذلك البهو الفسيفســـائي لمحل الآيس كريم ذي الشـــرفة التي كانوا يقدمون فيها الطعام أســـمع تلك العبارات الصارخة المجزأة الصـــادرة عنها، ليس بوصفها تعبيرا عن الضيق بل أوامر تصدر إلى شخص ذي مكانة ومنزلة. كان لتلك العبارات أثرها المرغوب: وهو أن تتكمش أنت في محارتك، ولا تعود تتبس ببنت شفة. كان كل شـــيء يمضي بطريقة مبهجة مادامت ليســـت هناك مقاومة؛ وإلاّ كان يجب على الأوامر أن تصدر.

الحقيقة هي أنني لم أفكر فيها على الإطلاق طوال عقدين أو ثلاثـــة. فكرت فيهـــا صباح اليوم فقط لأننـــي كنت أحاول، من خلال مـــا عرفته عن حياتك، أن أتخيل الأســـباب الممكنة للإصابـــة الدماغية. أعتـــرف بأنه بعد وقـــوع الحادثة هناك المجال لاهتمام أكاديمي بحت. فالقيام بالتحاليل والفحوصات لا يعالج المريض.

تذكرت بعدما اســـتيقظت صباح اليوم أغنية سخيفة سمعتها عندمـــا كنت طفـــلا، وقت أن كانت تغنيها لي امرأة كان اســـمها «إيثل روب».

أنـــا لا أعرف من كانت، لكـــن يمكن أن أتذكر أنها كانت تعمل مدرســـة. صدمتني الكلمات لغرابتها الشـــديدة إلى درجة أنني حفظتها عن ظهر قلب.

In der vintertime ven der valley's green
And der vind blows along der vindowsill
Den der vomen in der vaudeville
Ride der velocipedes around der vestibule.

كان اللحن تنويعا على «أتش، دي ليبر أوغسطين». إنك لم تسمع الأغنية بالتأكيد، إنني أتساءل إن كان قد سمعها أحد في أي وقت، خارج دائرة معارف الآنسة روب. كانت أوائل العشرينيات من القرن الماضي هي فترة الأغنية العاطفية العبثية السخيفة وخير الشواهد على ذلك: «آه وايم الحق»، «الأوجوبوجو»، «لينا كانت ملكة فلسطين»، «نعم. ليس لدينا موز»، «بارني جوجل»، والله أعلم ماذا أيضا. كانت هناك أيضا أغنية لـ «فاني برايس» تدعى «الوردة المستعملة»، تلك الأغنية التي أوقعتني في مشكلة مع والدة مضيفتي عندما غنتها في حفلة هنا في الستينيات. لم تعر انتباها لـ «حتى البيانو في محل بابا يباع بدولار وعشرة سنتات»، لكن عندما وصلت «حتى آبي كوهن، ذلك الولد الذي أعشقه، كان من الجرأة والجسارة لكي يخبرني أنه كان متزوجا من قبل»، قفزت السيدة إلى أعلى وجرت إلى الطرف الآخر من القاعة حيث كنت أجلس. وأمسكت بوجهي بين إبهامها وأصابعها في إحكام وهصرته، وهي تصرخ قائلة: «حتى أنت يا بول بولز، حتى أنت؟» كان الأمر برمته مفاجئا جدا ودراميا إلى درجة أنني شعرت بارتكاب خطأ عظيم خارج عن العرف. لحسن الحظ أنه كان هناك ضيوف آخرون يعرفون الأغنية، وكان في استطاعتهم إقناعها بأنني لم أكن أرتجل الكلمات لأجل المناسبة، وعلى الرغم من ذلك لم تهدأ تماما.

أعتقد أن أهم ميزة مشتركة بيننا - على الرغم أنه من حقك أن تزعم أننا لا توجد لدينا نقاط مشتركة على الإطلاق - هي إيماننا الراسخ بأن العالم البشري قد دخل في فترة حاسمة ونهائية ولا رجعة عنها من التفكك والدمار، وأن هذا سوف ينتهي إلى حالة شديدة من العنف والفوضى بحيث تجعل من أي محاولات للحفاظ على السيطرة أو النظام عديمة الجدوى تماما. دائما ما كنت أجدك تدين بشدة وحدة انحلال وتفسخ الحضارة حتى أكثر مني. كان هذا بالطبع وقتما كان أسوأ ما أمكن لنا أن نتخيله هو الدمار بفعل حرب نووية. لكن الآن في إمكاننا تخيل الظروف التي قد يكون الموت المفاجئ كامنا خلفها عن طريق حريق محبب أو مرغوب للتحرر من جحيم الحياة، ربما ننتظر طويلا للإقدام على «قتل رحيم» عالمي عام. هل في استطاعتنا أن نأمل في حرب نووية - أقصد من الناحية الأخلاقية - أم أننا ممنوعون من الإخلاص فلا نتمنى استمرار الجنس البشري بغض النظر عما يتكبده من معاناة؟ استخدمت كلمة أخلاقية لأن الرغبات غير الأخلاقية تبدو لي مرتبطة بأحداث أو خلاصة نتائج خاطئة.

أهم ما يشغل بالي هو أنني بي رغبة شديدة في معرفة إن كان وجودك في حالة من الضعف والعجز قد غيّر من وجهة نظرك على أي حال من الأحوال. هل تركك هذا أكثر غضبا، أم أكثر استسلاما، أم غير مبال بشكل تام؟ على الرغم من أنك لم تكن كذلك أبدا، وتحت أي ظرف من الظروف، إلى درجة أنني أشك في احتمال حدوث مثل هذا التغيير الرئيسي في شخصيتك.

لديّ إحساس بأنك قد تعتبر هذه الأشياء مسألة شخصية تماما، ونتيجة لذلك فقد تستاء من فضولي المتلهف هذا.

(٤)

في استطاعتي أن أدرك أنك لا تتذكر فعلا عطلة نهاية الأسبوع التي أشرت إليها من قبل. ليس هناك شيء مخجل في ما يتعلق بعدم مقدرتك على التذكر الدقيق، فحتى الآن، يبدو بشكل مضاعف من سوء الحظ أنه كان يجب أن تحرم من التنقل الداخلي والخارجي، أقصد حرية التجول في الماضي، لسبر أغوار خزائن الذاكرة. أعرف أنه منذ أربعين سنة وأنت تقول إنك لا تتذكر، نظرا إلى أن ثلاثتنا كنا في حالة سكر بيّن شديدة ولا يمكن لأحد أن يتذكر تفاصيل تلك الرحلة الحمقاء. لكن لا أنا ولا أنت كنا في حالة سكر عندما وصلنا إلى القرية وقد اضطررنا إلى النزول من القطار لأن هذا كان آخر ما انتهوا من وضعه من خط السكة الحديد. كان الوقت لا يزال نهارا، فعبرنا النهر فوق ذلك الجسر غير المكتمل لنصل إلى ما يطلق عليه فندق. تتذكر بالتأكيد أنه لم يكن هناك شيء لاحتسائه سوى المسكل(*)؛ وظللت تقول إنه يبعث برائحة تشبه ورنيش الأثاث، وقد كان كذلك بالفعل وفقما أتذكر. هل سبق لك شرب أي شيء مماثل له منذ ذلك الحين؟ ويا لها من ليلة، بصحبة بارتولومي الجالس هناك يسكر ويسكر وهو يقهقه ورأسه في حالة اهتياج شديد. وفي إحدى اللحظات - فتش جديدا في ثنايا ذاكرتك، يجب أن تتذكر

(*) المسكل: شراب مكسيكي يستقطر من أوراق نبات المسكل [المترجم].

هذا - انهارت شبكة الناموسـية المعلقة أعلى السرير فوق رأسي إلى درجـة أنني أصبحت ملفوفا في طيات الناموسـية، وجعلني الغبار أعطس، وأشار إليّ باتولومي من فوق كرسيه بينما كنت أنا أجاهد، وأصرخ: «باريسـيس النينو دياس!»(*) وضحكت أنت وهو طويلا بينما كنت أعطس وذراعاي تتخبطان هنا وهناك بحثا عن مخرج، وأنا أحاول إيجاد فتحة في الشـبكة. لم يكن هناك شـيء يمكن عمله في ذلك الوقت سـوى إرسـال بارتولومي إلى الطابق السـفلي لطلـب زجاجة أخرى مـن «التهوكان» والاسـتمرار في احتسـاء شراب «المسـكل». أعتقد أنه هو في النهاية من خلصني من الشـبكة. أعترف بأنك كنت ثملا نوعـا ما، لكن بالطبع ليس بدرجة تكفي لأن تخفق في القيام بأي شـيء. كل ذلك كان عبارة عـن مرح، وينتمي إلى الجانب الدائن في دفتر الحسـابات. لكن كالعادة، كنت أنا أكثر إدراكا للتفاصيل غير السارة من دون النظر إلـى جميع التفاصيل الممتعة. كان اليـوم التالي أبديا لا نهاية له. كان من المؤلم أن نكون على متن تلك العربة العتيقة المقعقعة لقطار صغير، وأنا أتطلع باشـمئزاز إلى أميال من الصبار على السفوح الجافة من التلال. كانت كل رجة من القطار تضاعف من الدق في رأسـي. نام بارتولومي. وبدا أنك لم تكن تعاني دوار الخمر، الذي كنت أشـعر بسببه ببعض الألم المبرح، لكن وقتها، كنت أنت معتادا علـى الكحول ولم أكن أنا معتادا عليه. ونظرا إلى أنـك تقول إنك لا تتذكر، فإنني أشـعر بالوجود وحدي مـع الذكرى؛ وربما أيضا أكون قد حلمت بها كلها.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

أحيانا ما أشــك فيك لمبالغتك في تحدثــك عن عجزك عن تذكر الحاضر، ليس بالتأكيد لإثارة الشــفقة، نظرا إلى أن ذلك لــن يكون متفقــا معك، وبالإضافــة إلى ذلك، فــإن الرغبة في المبالغة ربما تكون لا شــعورية في أصلها. ومع ذلك، فأنت تؤكد وتشدد فعلا على وضعك البائس، إلى درجة لا تمكن الواحد من الحيلولة دون الشعور بالأسف عليك. لكن السؤال هو: لماذا تكتب بليتك أو محنتك بخط مائل؟ فإحساســي أن هذا ببساطة ليس من القســوة في شيء. أشعر بأنك تفكر وتقول لنفسك: أنا الآن في كرسي متحرك. هذا هو كل ما في الأمر، وهذا هو ما يرغب فيه العالم. بعبارة أخرى، لقد ألحقوا هذا بك.

وفقمــا أتذكــر، أنت لســت مغرما على وجــه الخصوص بالحيوانات. لقد كنت أعتبر نفسي دائما من المولعين بالقطط على عكس محبي الكلاب. بدا لي أنه سيكون هناك وقت كاف فــي ما بعــد للتصادق مع الكلاب. لكن فــي هذا المكان ليس هنــاك احتمال كبير لذلك. إنها تخرج في الليل في جماعات، وأحيانا ما تهاجم المارة في الشارع. ذات مرة طاردت ستة منها صديقا أمريكيا لمســافة ربع ميل علــى طول الطريق الجديد الــذي يمتد من نهاية الجبل القــديم إلى القطاع الجديد في دراديب. عندما يصبح كلب بعينه مقلقا للنوم بشــكل مستمر فإننــي ألجأ إلى تدابيــر حازمة اتبعتها مرتين. ســيكون من الأفضــل أن أصف هذه التدابير الحازمــة، إنني على دراية، فبدلا من أن أدعك تعتقد أنني سممت الحيوانات. طبعا كان هذا هو أول شــيء خطر لي، لكنني قررت التغلب عليه بسبب

المعاناة التي يسـببها للحيـوان. أيضا، الأعراض الناجمة عن الموت من سـم الفئران - المنتج الوحيد الذي كان في إمكاني العثور عليه هنا - قديمة جدا ومحفوظة إلى درجة أن صاحب الحيوان سـوف يشـك على الفور في أن كلب الحراسـة قد تسـمم. طريقتي مـع الكلب الأول، الذي اعتـاد النباح طوال الليل في الحديقة المجاورة، استغرقت وقتا طويلا لكنها كانت فعالة. لقد تطلبت مني هذه الطريقة أن أظل مستيقظا حتى منتصف الليل لمدة أسبوع وأنا منتظر انقطاع الناس تماما عن السـير في الشـارع، ثم أمضي إلى المطبخ في نحو الواحدة والنصف وأعد نصف رطل من الهامبورجر النيئ. وفي إحدى الليالي بعد ذلـك قمت بخلط الميليريل واللارجاكتيل باللحم، وفـي الليلة التالية أقوم بطحن العديد من حبوب الأنافرانيل. وأظل أداوم على تبديل المخلوط حتى يقرر صاحب الكلب أنه قد أصبح كلبا مسعورا، ويطلق عليه النار. لم يكن هناك شيء مـن النباح بعد الليلة الأولى من العـلاج. بدت هذه الطريقة أكثر الطرق إنسانية للتخلص من الحيوان.

في سـنة أخرى وضعت كلبة مولودها في الجراج، الذي كان مفتوحا بشـكل مسـتمر. هيأ لها الخفير كرتونة لتنام عليها مع جرائها. وعندما كبرت جراؤها، بقيت الكلبة في الجراج، بتشجيع من امرأة إثيوبية غريبة الأطوار كانت ترسل إليها خادمتها طوال الوقت بالطعام. وبمجرد إحساسها بأنها أصبحت في بيتها تماما في الجراج، بدأت تشـترك فـي محادثات كثيرة مع أصدقاء لها فـي عين حياني ودراديب. شـكوت هذا إلى عبـد الواحد؛ فقد

اعتقدت أنـــه قد يكون عنده حل. كان عنده حل واحد بســـيط. التقط الكلبة ووضعها في شـــنطة الســـيارة. ومضينا بالســـيارة إلـــى «فوريه ديبلوماريك»، عند حافة الشـــاطئ، حيث كان هناك مطعـــم يديره مغربي ولديه طاقم من الـــكلاب. قبل أن نخرجها من الشـــنطة، أدار عبد الواحد الســـيارة الموســـتانج إلى الجهة المعاكسة، ليكون متأهبا للإقلاع بها بسرعة. وقفت الكلبة لبرهة على الشاطئ، وقد تملكتها الحيرة؛ رأتها الكلاب الأخرى وجاءت لتقصي أمرها. بينما كانت الكلاب متحلقة من حولها انطلق عبد الواحـــد، وهربنا، وعلى الرغم من ذلك فقـــد تمكنت من رؤيتها وهي تجري خلف الســـيارة لمســـافة كبيرة بينمـــا كنا ننطلق عبر الغابـــات. لم تكن غبية، فبمجرد ســـماعها صوت المحرك دفعت الكلاب الأخرى جانبا وأسرعت نحو السيارة.

لابد من أن شـــيئا ما قد حدث للمغاربة. منذ خمســـين سنة كانت الكلاب ممقوتة عندهم. فقط المغاربة الذين كانوا يعيشون في الريف هم من كانوا يمتلكونها. فقد كان من القذارة الشديدة أن تعيـــش في المدينـــة. لكنهم لاحظـــوا بطريقة مـــا أن معظم النســـاء الفرنســـيات تقريبا كن يمشين في الشـــارع وبصحبتهن كلاب مربوطـــة، وبالتدريج بدأوا فـــي تقليدهن. في البداية كان الأولاد يقـــودون كلابا مهجنـــة، يربطونها بحبـــال محكمة حول رقابها. أصبحت النساء الفرنسيات اللائي كن يمررن في الشارع مستاءات، وكن يصحن: «يا لهذا الكلب المسكين! سوف يختنق!»(*) الآن أصبح لدى كل طفل مغربي في المناطق المجاورة كلب يمتلكه

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

ويشــفق عليه. معظمها كلاب رعي ألمانية، يعتقد الآباء أنها توفر نوعا أفضل من الحماية.

لا يمكن التنبؤ بســلوك الفرنسيين. الشهر الماضي كان هناك مصور فوتوغرافي يلتقط الصور لمصلحة صحيفة «ليبراسيون». الشــيء الوحيد الذي أثاره وحــرّك انتباهه للتعجب من المفاجأة كان حجم جرة زبدة فول ســوداني مملــوءة بحبوب الطيور. هل هــذا جدير بالتصديق؟ أراد أن يعرف، هل يبيعون فعلا مثل هذه الجرار من زبدة الفول الســوداني؟ عندما قلت له «نعم»، لم أكن متأكدا من أنه لم يرتب في كلامه ظنا منه أنني أوقعه في شرك، لأنني رأيته يذهب إلى الطرف الآخر من الحجرة ليتفحص الجرة بعناية. أتمنى لك السعادة في عيد الميلاد المجيد.

(٥)

أرسل لي شــخص ما علبة شــوكولاته أمريكية بالكريمة في الأســبوع الماضي. على غطائها كتبت الكلمــات التالية «صناعة منزلية». وعلى الناحية الأخرى من الغطاء نفسه قائمة المكونات الداخلــة فيها. كان مــن بين هذه المكونات: ســكر، زيوت نباتية مهدرجــة جزئيا، ســوربيتول، ليســيثين، هيدروكســي تولووين بالبوتيلــين، هيدروكســي أنيســول بالبوتيلين، بروبيــل جاليت، سوربيت البوتاســيوم، ثاني أكسيد الكبريت وبنزوات الصوديوم. ليس مــن المحتمل حتى لدى أكثر البيــوت عصرية أن تكون في مطابخها كل هذه الأصنــاف الترفيهية. على الرغم من أنني لم يتسن لي تناول طعام في مطبخ أمريكي منذ عدة سنوات، لكنني

أعرف أنهم ميالون أكثر وأكثر إلى أن تبدو مطابخهم مثل المعامل. ربما أصبحت لديهم الآن دواليب تخزين كيميائية تحتوي على كل شيء بدءا من ترثيلين جليكول الإيثيلين وانتهاء بميتوكلوبراميد.

كانت المطابخ في البيوت الريفية في زمن الحرب العالمية الأولى لا تبعث على الراحة والسرور هي الأخرى، وفقما أتذكر، على الرغم من كل الدعاية التي تتحدث عن هذه المطابخ بشكل رومانسي. كانت هناك دائما روائح مختلطة من اللبن الفاسد، والشبت والحديد تنبعث من مياه الآبار. واللوالب الورقية اللاصقة المخصصة كمصايد للذباب مدلاة من كل ركن وخطاف، والذباب لايزال يئز في جميع الجهات، وإذا كانت هناك كلاب، فإنها تبعث برائحة. وإذا كان هناك أطفال، فستنبعث منهم رائحة. كان من غير المعقول أن نتصور أن الناس الجادين يرغبون في العيش بهذه الطريقة. ما الذي أصابهم؟ لا شيء. إنهم فقط لا يعرفون شيئا أفضل، هذا كل ما في الأمر. لم ترضني هذه الإجابة أبدا. إنها تنطوي بداهة على معيار مزدوج إلى درجة جعلت من المستحيل على أبي وأمي أن يتغاضيا عن نقائص هؤلاء الناس. بل إنهما لم يسامحاني أبدا على جهلي بما كان يجب عليّ معرفته، وكانت القسوة تستعمل ضدي على وجه التحديد لأنني لم أكن صبيا مزارعا. منذ سبعين عاما كان يوجد هناك اختلاف طبقي بين هؤلاء الذين نشأوا في المدينة وهؤلاء الذين كبروا في المزرعة. الآن يبدو أن هناك اختلافا ضئيلا جدا. كان مفهوم الطبقة قد دُمر بحذر وعناية. إما أنك تمتلك، أو، لا تمتلك.

نتيجـة الديموقراطية، على ما أظن، عندما أسـيء فهم معنى الديموقراطية على أنها التشابه بدلا من المساواة.

لم يكن في إمكانك أن تعرف فندق باريس النموذجي الصغير والمتوسط في أسعاره في سنوات العشرينيات - بحلول الوقت الـذي كنت قد وصلت أنت فيه إلـى باريس، بعد الحرب العالمية الثانيـة، كانت الأمور قـد تغيرت نوعا مـا - كانت هناك ثلاث أو أربـع حجرات فقط في كل طابق، وكانت السـلالم والممرات مفروشـة عن آخرها والنوافذ محجوبة بوساطة مجموعتين من السـتائر. كان هناك في العـادة مصدران للإضاءة في الحجرة، أحدهما مدلى من منتصف السقف والآخر فوق مقدمة السرير. كلاهما كان مثبتا بنظام البكرات المتحركة، حتى يتسنى تحريكهما إلى أعلى وإلى أسـفل وفقا لمتطلبات اللحظة. وكان ورق الحائط غامقـا دائمـا ذا خطوط ملونة عريضة ربمـا كانت في يوم من الأيـام ذات ألوان صارخة، على الرغم من أنه ليس هناك طريق لمعرفـة ذلك، نظرا إلى أن طبقـات التقادم التي علتها منذ فترة طويلـة جعلتها ذات لون داكن. كان من السـهل أن تشـعر بأنك محاط بغلاف محكم عليـك ومحمي في تلك الحجرات، وكثيرا مـا أحلم بها حتـى الآن. ولكن مثل هذه الأحـلام لا تبعث على السرور، نظرا إلى أنني دائما ما كنت أبدو على وشك الاضطرار إلى المغادرة للسماح لشخص آخر بالانتقال إليها. على الأقل، لم يكن هناك حلم يخلو من هذا القلق اللاشعوري.

بالمناسبة، لا يوجد لديك سبب لتوبيخي على عدم إبداء ردود أفعال معينة خاصة بي تجاه أحدث قصة مأساوية من قصصك.

فمثل هذه الردود يمكن أن تكون عاطفية فقط من حيث المحتوى، وليس هناك مغزى على الإطلاق في التعبير عن العواطف بكلمات، فذلك هو ما يبدو لي. ومع ذلك أؤكد لك، أنني قد عانيت من إحساس عميق بالإحباط عندما قرأت خطابك وأنني أدركت أنك كنت تعاني مزيدا من العذاب، وأعتقد أنني قد نقلت إليك هذا الانطباع في وقت سابق.

ربما تتذكر - على الرغم من أنك قد لا تتذكر، نظرا إلى أنك لم تفتح من قبل كتابا مكتوبا في قرننا لتطالعه - عبارة وردت على لسان كاستور في الغثيان: «أنا نجوت»(*)، وقد ترجمت بشكل سيئ ومن دون براعة في الطبعة الأمريكية بـ «أنا أعمّر»، أفهم إحساس كاستور لأنه وحيد هنا بنجاته؛ إنه إحساس ليس مخالفا لإحساسي، لكنني سأعبر عنه بقولي: «حياتي تشرق بعد الوفاة»(* *). هل تفهم شيئا من هذا؟

كنت قد تمنيت دائما أن يعيد شخص ما صياغة نهاية «هكلبيري فين»(* * *)، محولا إياها عن المشاهد الختامية الهزلية التي ربما أقحمها توين بتأثير من موجة الاندفاع العاطفي في فكرة الكتاب المكتمل تقريبا كضرورة إذا كان المطلوب أن يحظى العمل بالتقدير من جانب القراء الأمريكيين. إنها الرواية الأمريكية العظيمة، التي دمرت بلا أمل في إصلاح بسبب مؤلفها عديم الحساسية غير الحصيف. سأكون مهتما بمعرفة رأيك، أم أنك تشعر بأن الكتاب لا يستحق إبداء الرأي في ما يتعلق بمحتواه،

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

(* *) وردت بالفرنسية [المترجم].

(* * *) مغامرات هكلبيري فين (١٨٨٤) رواية للكاتب مارك توين [المترجم].

نظرا إلى أن ترقيع تحفة أدبية غير متقنة لا يعد تحفة أدبية على الإطلاق؟ بل وفوق ذلك سيكون تزويرا للأسلوب بشكل ناجح، إلى حد جعل الفراغات والفواصل تلفيقية، والنثر الذي سيعقبها سيكون بشكل إقناعي استمرارا لما سبقها، مهمة تبدو مستحيلة. لذلك فإنني لن أحاول تجريتها بنفسي.

أعتقد أن من علامات الشيخوخة التي تدب وتزحف تقلص مدى الاهتمام والانتباه، والذي يصيبني على هيئة نكوص أو ارتداد إلى مرحلة الطفولة. سوف نرى.

(٦)

لم آت على ذكر العداء الذي كنت قد أشرت إليه في خطاباتك لأنني افترضت أنه كان موجها إلى العالم بصفة عامة، وليس موجها إلى شخصي. الآن أرى، كم كنت مخطئا. في البداية أخبرتني أن خطاباتي مطلقة العنان وعلى سجيتها. وقد تجاوزت عن هذا، كان مجرد نقد لطريقتي. لكنني لن أغض الطرف عن كلمة «شماتة». ونظرا إلى ذلك، أدركت أنني كنت سأحسن صنعا لو اقتصرت خطاباتي على بطاقة واحدة عند الضرورة مكتوب عليها «تمنياتي لك بالشفاء العاجل»، وأن أدع الأمر ينحصر في ذلك.

يبدو لي أنه خلال هذه الفترة النهائية من حياتك سيكون من المربح والمجدي التوقف عن تغذية ميولك المستعذبة للألم. يمكنني أن أرى أنك لا تشعر بهذا على الإطلاق، وأنك على العكس تعتزم الاستمرار في إطلاق العنان لها تماما. هذا سيئ

جدا. من الواضح أنه لا يوجد هناك شـــيء يمكنني القيام به من هنا لمســـاعدتك، لذلك ربما أتجاهل الأمر أيضا. لكن بينما أنت غـــارق في عدمك المفروض ذاتيـــا، أتمنى أن تتذكر - ولن تتذكر - أننـــي قمت بهذه المحاولة البســـيطة التـــي لا طائل من ورائها لمساعدتك لكي تبقى إنسانا.

«مـــادام ليس هناك عالم آخر»(*)، كمـــا اعتادت روزا لوبيز أن تقول.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

المترجم في سطور

أ. محمد هاشم عبدالسلام

- روائي ومترجم.
- من مواليد العام ١٩٧٥.
- حاصل على بكالوريوس علوم الحاسب الآلي العام ١٩٩٦.
- له عدة كتب منشورة، مثل:

قشـــرة زائلة (رواية - ٢٠٠٠)، بيت المرايا (رواية - ٢٠٠٢)، محاورات مع أعلام السينما الأوروبية - ٢٠٠٦. كما أن له كثيرا من الكتب قيد الطبع والنشر.

- له كثير من المقالات والترجمات والنصوص الإبداعية المنشـورة في الصحف والمجلات.

المراجع في سطور

د. سليمان خالد الرياح

- من مواليد الكويت العام ١٩٥٣.
- حاصل على شهادة البكالوريوس - في الآداب - قسم اللغة الإنجليزية وآدابها العام ١٩٧٥، وعلى شـهادة الماجسـتير في تخصص اللغـة الإنجليزية - كلغة أجنبية العام ١٩٩٠.
- حصل على شـهادة الدكتـوراه من جامعة ولاية أوهايو فـي كولومبوس، في تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية العام ٢٠٠٢.
- شغل عضوية كثير من اللجان العلمية وغيرها.
- يعمل حاليا أسـتاذا مسـاعدا في قسـم اللغة الإنجليزية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، ويشغل منصب رئيس وحدة اللغة الإنجليزية في كلية التربية الأساسية.
- راجع لسلسلة إبداعات عالمية، رواية «الشباب»، العدد ٣٥٦، أكتوبر ٢٠٠٥.



الفهرس

hamza mizou



العقرب وقصص أخرى
(الجزء الثاني)

يعد بول بولز كاتبا متميزا، غزير الإنتاج، وما هذه المجموعة - والجزء الأول منها الصادر في العدد الماضي من هذه السلسلة - سوى النزر اليسير من إنتاجه القصصي. ومن الملاحظ أن الكاتب يميل في كتاباته إلى أسلوب الحوار بدلا من أسلوب السرد الممل. وإن كان يبدو أن بولز يلجأ إلى الرمز في أحيان قليلة، كما هي الحال في قصة «الضبع». كما تتسم كتابات بولز باستخدام كثير من الألفاظ والتعابير العربية والإسبانية والفرنسية في قصصه، وبعضها باللهجات الدارجة، حيث إن أحداثها تقع في بلاد ومناطق مختلفة - في المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية - (باستثناء قصة «في الغرفة الحمراء» التي تدور أحداثها في سريلانكا). وهذا يدل على كثرة أسفاره واحتكاكه بثقافات متعددة تنعكس في قصصه. ومن الأمثلة على هذا الحوار قصة «زمن الصداقة»، إذ تمثل الثقافة الغربية فيها «الآنسة ويندلينج»، بينما يمثل الثقافة العربية «سليمان» و«بوفيلجا».

أبطال قصص بولز شخصيات بسيطة ومن واقع الحياة، وبعضها يحمل أسماء عربية مثل «علال»، وهناك قصة تحمل اسما عربيا وهو «مجذوب»، وهي بالطبع تعبر عن ثقافة عربية، مثل القصتين السابقة الإشارة إليهما. أما الشخصيات الأخرى غير العربية، مثل «رامون» في قصة «اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز»، فهي تعبر عن قيم وأفكار وتقاليد غربية، وإذا التقت بشخصيات أجنبية بالنسبة إليها فمن الطبيعي أن يحدث احتكاك بين ثقافتين وحضارتين وقيم وتقاليد متباينة.

تتناول قصص بولز تفاصيل الحياة اليومية في المدينة أو المنطقة أو البيئة التي تقع فيها الأحداث، مع وصف دقيق وشامل لها وذكر أسماء الأماكن وما يميزها من معالم جغرافية.

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٠٣
ردمك: ٦-٢٦١-٠-٩٩٩٠٦